مصر العثمانية



جرجي زيدان

مصر العثمانية

تأليف

جرجي زيدان

مقدمات تمهيدية

التاريخ الإسلامى بالنظر إلى سائر التواريخ

التاريـخ العـام

التاريخ العام ، عبارة عن الحوادث التى رافقت الإنسان فى أول وجوده إلى الآن . أو ذكر ما انتاب الأمم من التقدم أو التأخر والصعود أو الهبوط فى السياسة والاجتماع ، أو هو بيان تَدَرُّج البشر فى المدنية . ولذلك فهو مَقصور على الأمم التى كان لها شأن فى ترقية الهيئة الاجتماعية .

وقد عبّر بعضهم عن التاريخ بقوله : إنه الفَلسفة مشروحة بالأمثال حتى تكون حوادث المتقدمين عبرة للمتأخرين .

والتاريخ العام يقتضى معرفة أخبار الناس من أول عهد الإنسان إلى الآن . وهذا غير ميسور لأن ما وصل إلينا من حوادث البشر إنما هو جزء صغير جدا فى تاريخهم . والإنسان لم يدوّن

تاريخه إلاّ بعد أن وُفق لاختراع الكتابة . وهو لم يوفق إليها إلاّ بعد التدرج فى الرّقى أدهاراً ، ظهرت فى أثنائها دول وأمم انتشبت بينها الحروب ، وعقدت المعاهدات ، وذهب العقلاء فى أثنائها مذاهب فى الفلسفة . فهذه كلها ذهبت أخبارها فلم يصلنا منها شىء ، حتى أسماء تلك الأمم ، فإنها ضاعت . وإنّما استدللنا على وجودها من ثمار أعمالها ، أو بما خلفته من الأدوات أو الأحافير أو الخرائب .

وعلماء التاريخ لا يعدون تلك المعرفة تاريخاً . ولذلك سمّوا المدة التى قضاها الإنسان قبل تدوين أخباره «الزمن قبل التاريخ» وهو أطول كثيرا فى زمن التاريخ تقدم فيها الإنسان شوطا بعيدا فى سلّم المدنيّة والارتقاء العقلى . وفيها تألفت الهيئة الاجتماعية ووُضعت سنن الزواج والإرث . وانتظمت العائلة . وفيها شكّلت الحكومات ، وانشئت الأديان . وفيها حدثت أهم الاختراعات والاكتشافات التى بنى عليها البشر رقيهم فى زمن التاريخ ؛ لأن فى تلك الفترة المظلمة ، اخترعت الكتابة ، واستنبط الطبخ والعجن والخبز والغزل والنسيج والخياطة والبناء . واكتشفت النار والملح ، وهما من أهم الاكتشافات .

مَنْ لَنَا بمن يخبرنا عن مخترع الكتابة الصورية ؛ لنشيدٌ له

تذكارا ، أو مخترع الإبرة للنصب له تمثالا ، بل لو عرفنا مكتشف النار ، أى أوّل من ولّد النار بالفرك ، لَحقَّ له علينا الإكرام الجزيل. إن ذلك وأمثاله من أعمال الإنسان قبل زمن التاريخ لا يدخل فى علم التاريخ ولا إلى معرفته سبيل إلا بالتخمين .

أما زمن التاريخ فهو الذى عرفنا أممه وقبائله ودوله وبعض حوادثه ، إما من الكتب التى وصلت إلينا أو من النقوش التى قرأناها فى الآثار أو من أحوال أخرى . وهو لا يتجاوز فى مدته ستة آلاف سنة ، نصفها الأول ناقص ، وأكثره مبنى على الحدس والتخمين . والنصف الآخر محشو فى أوائله بالمبالغات أو الخرافات . ولكن أكثره ثابت ، لرجوعه إلى النصوص التاريخية بعد شيوع الكتابة .

ما معنى لفظ تاريخ ؟

وقبل التقدم إلى ذكر أقسام التاريخ ؛ نتكلم عن أصل هذا اللفظ فى العربية . وقد اختلفت الأقوال فيه ؛ فذهب جماعة إلى أنه فارسى ، وقال آخرون : إنه يونانى . وتكلفوا فى تخريجه تكلفا نحن فى غنى عنه لأن اللفظ عربى . وفى القاموس [١] «أرخ الكتاب

(١) يقصد القاموس المحيط .

يأرخه أرخا ، وقّته» أى عرف وقته . ثم تفرع المعنى فصاروا يدلون بها عن علم التاريخ أى ذكر الوقائع والحوادث . ولعل سبب الشك فى كون هذا اللفظ عربيا أن العرب أخذوا التاريخ عن الفُرس . وقيل لهم إن اسمه عند الفرس «ماه روز»[٢] فعربوها «مؤرخ» ثم اشتقوا منها مصدراً «تاريخ» وهو تكلف لا حاجة بنا إليه ، فدفعاً لكل شك فى كون هذا اللفظ عربيا نأتى بأشباهه من أخوات اللغة العربية .

فهو فى العبرانية «يرخ» ومعناه : القمر . ومثلها «يرحا» فى السريانية لنفس هذا المعنى ونحو ذلك فى الكلدانية والآشورية . وهى أيضا تدل عندهم على الشهر ؛ لأن حسابهم كان قمريا . وكذلك الشهر والقمر فى العربية بمعنى واحد . ولا عبرة فى إبدال الخاء ، حاء ، بين العربية وأخواتها ، فإنه عادى فيها . ومن بقايا دلالة «يرح» أو «أرخ» على القمر فى العربية ، قول العرب «راح» أى ذهب أو جاء فى العشى ، أى فى نور القمر . والمعنى راجع إلى

---

(٢) ماه روز : بمعنى حساب اليوم والشهر ، انظر عبد النعيم حسنين ، قاموس الفارسية، ص ٦١٢/١ ، دار الكتاب اللبنانى ، القاهرة ١٩٨٢ ، «وماه روزه» بمعنى التاريخ . انظر حسن عميد ، فرهنك فارسى عميد ، ص ٩٠٩ ، مؤسسة انتشارات امير كبير ، طهران ١٣٤٢ .

العشى بدون تقييد بالذهاب أو المجىء ، مثل قولهم أصبح وأمسى . ثم غلبت فيها الدلالة على الذهاب فى العشى ثم صارت تدل على مطلق الذهاب . وقد يكون اللفظ الواحد معناه القمر فى إحدى هذه اللغات ، والشهر فى اللغة الأخرى ، فإن «سهر» فى السريانية معناها قمر فى العربية وهو «الشهر» بإبدال السين شيناً . وقد بقى فى معناها الأصلى فى العربية «الساهور» وهو القمر أو غلافه .

والخلاصة أن لفظ التاريخ ، عربى الأصل والاشتقاق .

أقسام التاريخ العام

اختلف المؤرخون فى تقسيم زمن التاريخ وتبويبه . والأكثر يرون قسمته إلى ثلاثة أقسام : الأول ، التاريخ القديم ويبدأ بأقدم الأزمان ، وينتهى عند سقوط روميه سنة ٤٧٦ للميلاد . والقسم الثانى ، القرون الوسطى أو المظلمة ، وهى تمتد من هذا التاريخ إلى اكتشاف أميركا سنة ١٤٩٢ مسيحية . والثالث ، التاريخ الحديث ، من اكتشاف أميركا ولا يزال .

ذلك هو تقسيم التاريخ العام عند كتاب الافرنج . وهو فى اعتبارنا تقسيم ناقص ، مبنى على الأحوال التى توالت فى أوربا وأميركا ، ولا يدخل فيها من تاريخ الشرق إلاّ الدول القديمة فى

مصر وبابل وفينيقية وغيرها من التمدن القديم . ولم يراعوا فيه الانقلابات السياسية العظيمة التى توالت فى الشرق بعد ذهاب تلك الدول . وكان لها تأثير كبير فى تاريخ العمران فى سائر أنحاء العالم المتمدن .

أمّا أقسام التاريخ العام بالنظر إلى الشرق وأممه ودوله ، فإنه فى نظرنا يقسّم إلى قسمين كبيرين ، أوْ هُمَا شطران : شرقى وغربى . نعبر عنهما بتاريخ الشرق ، وتاريخ الغرب . ونقصد بالشرق آسيا على الإجمال ومعها وادى النيل وما يليه من البلاد التى تمدنت قديما فى أفريقيا . ونعنى بالغرب أوربا وأميركا وما يلحقهما .

ولكل من هذين الشطرين ثلاثة أطوار أو أعصر تتشابه فى التقسيم ولكنها تختلف فى الزمن . لكل منها عصر قديم وعصر متوسط وعصر حديث . لكن الشرق متقدم فيها على الغرب وسابق منه فى عوامل المدنية

فتاريخ الشرق القديم يمتد من أقدم الأزمنة إلى فتح الإسكندر المكدونى بلاد فارس سنة ٣٣١ قبل الميلاد .

وتاريخة الأوسط أو قرونه الوسطى أو المظلمة تمتد من فتح الإسكندر إلى ظهور الإسلام سنة ٦٢٢ للميلاد أو السنة الأولى

للهجرة .

وتاريخه الحديث يبدأ بظهور الإسلام ولا يزال . ثم إن تاريخ الإسلام ينقسم إلى عصور سيأتي بيانها .

أما تاريخ الغرب القديم فيبدأ من أول تمدنه نحو القرن الخامس عشر قبل الميلاد فى بلاد اليونان . وقد اقتبس أصول تمدنه من أمم الشرق القديمة فى مصر وفينيقة وبابل وغيرها ، وينتهى بسقوط روميه سنة ٤٧٦ م . وسبب انقضائه ، هجوم البربر، بدو شمال أوربا «قبائل الجرمان» على المملكة الرومانية . وفى أثنائه دخل الشرق في أجياله الوسطى بسقوط دولة الفُرس ، كما تقدم .

وتاريخ الغرب الأوسط هو عصر الظلمة أو القرون الوسطى في أوربا . يبدأ بسقوط روميه ، وتسلط البربر إلى بزوغ نور التمدن الحديث بعد اكتشاف أميركا سنة ١٤٩٢ م . وقد أغفل فيه الغربيون علوم أسلافهم اليونان . ونهض الشرق فى أثنائه من عصوره المظلمة بظهور الإسلام وقيام دولة العرب ، فأخذوا تلك العلوم وترجموها .

فتاريخ الإسلام هو تاريخ الشرق الحديث . وبه نهض الشرق من غفلته واستعاد رونقه ومجده . وامتد سلطان المسلمين

على أضعاف ممالك أسلافهم الشرقيين . وخفقت أعلامهم على ممالك الفراعنة والفينيقيين والآشوريين والبابليين والفرس والأرمن والهند والترك والمغول والمغاربة وسائر بلاد المشرق ، وقِسْم من أوربا ؛ فى اسبانيا وفرنسا وإيطاليا ، مما لم يسبق له مثيل .

أقسام تاريخ الإسلام

يقسم تاريخ الإسلام إلى خمسة أعصر :

١ - عصر التكون والنمو : من ظهور الإسلام إلى آخر الدولة الأموية بالشام وهو عصر الفتوح فى الدولتين ، أو العصر العربى .

٢ - عصر البلوغ : من أول الدولة العباسية ١٣٢هـ إلى تغلب الجند التركى سنة ٢٣٢ للهجرة . وهو يشتمل على أبان الدولة العباسية . وفيه نشأ الأدب ، ونقلت علوم القدماء إلى العربية. وهو عصر الإسلام الذهبى . ويُعرف بالعصر الفارسى ؛ لأن الدولة فيه كانت بأيدى الوزراء الفرس .

٣ - عصر التفرع والتشعب : من تسلط الأتراك إلى سقوط بغداد . وفيه تفرعت هذه الدولة إلى دول من أمم مختلفة ،

فى أنحاء مختلفة . ونشأت دول جديدة كدولة الفاطميين بمصر والأمويين بالأندلس والسلاجقة فى الشام وغيرها . ونشأت سائر دول الأتراك والأكراد والفرس وغيرهم .

٤ - القرون الإسلامية الوسطى : من سقوط بغداد إلى أوئل القرن التاسع عشر .

٥ - النهضة الأخيرة : من أوائل القرن الماضى ، ولا تزال، وهى مقتبسة من تمدن الغرب الحديث .

ويقسم التاريخ على الإجمال أيضا إلى عام وخاص . والعام يتضمن تاريخ البشر عموما . والخاص يشمل التاريخ الخاص المتعلق بموضوع واحد ؛ كتاريخ أمة ، أو مملكة ، أو ولاية، أو مدينة أو دولة أو عائلة أو شخص . والمتعلق بشخص واحد يُسمى ترجمة ، أو سيرة ، أو حادثة مأثورة ؛ كتاريخ الإخلاص ، ومذبحة المماليك ، وحادثة عرابى ، وظهور المتمهدى ، ونحو ذلك .

ويسمى التاريخ الخصوصى بأسماء تختلف باختلا موضوعه ؛ كتاريخ الكنيسة والتاريخ السياسى والشرع والقضائى والتجارى والأدبى والعلمى ونحو ذلك .

مزايا التاريخ الإسلامى
على سائر التواريخ

فتاريخ الإسلام من التواريخ الخاصة المتعلقة بالأمم أو الدول ؛ لأن المراد بها ذكر حوادث الأمة الإسلامية أو الدولة الإسلامية ، ومقابله تاريخ الرومان أو اليونان أو الفرس ونحوهم لكنه يمتاز عنها بأمور جديرة بالاعتبار أهمها :

١ – ان تاريخ الإسلام حلقة موصلة بين الشرق والغرب ؛ لأنه بامتداد أصحابه إلى أقصى الشرق وإلى أقصى الغرب تمكنوا من الوصل بينهما . وهو أيضا حلقة موصلة بين التمدن الغربى القديم ، والتمدن الغربى الحديث ؛ لأنه حفظ ما توالى على عوامل التمدن الغربى القديم من التغيير أو التحوير فى العلوم الفلسفية والطب مما اشتغل به المسلمون فى أثناء تمدنهم ، ولا سبيل إلى معرفة ذلك إلاّ بتاريخ الإسلام .

٢ – يمتاز تاريخ الإسلام عن سائر تواريخ الأمم والدول ،

بما يدخل تحته من تواريخ العناصر المختلفة التى أنقذها الإسلام فى أواسط آسيا وغيرها ، وكانت فى حال البداوة أو الهمجية ، فساقها إلى المدنية ، أو العلم حتى نبغ منها العلماء والفلاسفة ورجال السياسة والإدارة . وأشهرهم الأتراك والمغول والبربر والزنوج .

وهنا نقطة يحسن بنا الوقوف عندها لحظة ؛ لنذكر شيئا عن كل من تلك الأمم :

الأتـــــراك

كان الأتراك قبل الإسلام ، أهل بادية يقيمون فى أواسط آسيا ؛ بين الهند والصين وسيبريا . ولم يعرفوا عن أهل الغرب من اليونان أو الرومان إلا قليلا . فكان الفرس يقتنونهم للرق والخدمة ، ويتهادونهم كما يتهادون المتاع . فلما جاء العرب وفتحوا بلادهم وجندوهم ؛ نهضوا فى جملة الناهضين ، وتولوا الإمارات . ثم انشأوا الدول العظمى فى فارس والعراق والشام ومصر وآسيا الصغرى والقسطنطينية وأفغانستان وتركستان . وأشهرها الدولة الطولونية والايليكية والإخشيدية والغزنوية والسلجوقية بفروعها ودول الأتابكة التى تخلفت عنها . ويزيد عدد الدول الشرعية

الإسلامية على ثلاثين دولة . واتسع سلطانهم حتى وطئت خيولهم أواسط أوربا ، ونبغ منهم القواد والساسة والفقهاء والكتاب وشادوا القصور والمساجد والمعاهد . وأنشأوا المارستانات والمدارس والتكيات .

وأكثر ما بقى من آثار الإسلام فى مصر والشام والعراق من بنائهم ؛ فهؤلاء لا سبيل إلى معرفة أحوالهم إلاّ بتاريخ الإسلام .

المغول

والمغول طوائف رُحَّل . كانوا يقيمون حوالى بحيرة «بيقال[1]» فى جنوبى سيبريا . ولم يظهروا للعالم إلاّ بعد الإسلام . وكانوا قبل ذلك قبائل يعيشون بالغزو والنهب والصيد والقنص .

فلما احتكوا بالمسلمين فى تركستان ورأوا دولهم وجيوشهم، عملوا على الاقتداء بهم ، حتى عمدوا إلى فتح مملكتهم ففتحوها ببداوتهم وخشونتهم ، وأمنعوا فيها قتلا ونهباً وإحراقا على يد جنكيز خان . لكنهم مالبثوا أن تحضروا ، لمعاشرتهم

(١) صحيح نطقها : بَايْقَال ، وصحيح كتابتها على شكلين : بيقال وبايقال ، وهى كلمة تركية تدل على اسم بحيرة فى جنوب سيبريا : على سيدى ، رسملى قاموس عثمانى ص ١٧٢/١ استانبول ١٣٢٠ .

المسلمين في فارس والعراق . وأنشأوا دولاً عظمى حكمت الشرق خمسة قرون ونصف قرن ، أشهرها أربع دول كبرى هى دول اقطاى وطلوى وجوجى وجغطاى .

وتفرعت منها دول أخرى امتدت سطوتها وخفقت أعلامها على زنقاريا وبلاد المغول والقبجاق وتركستان . وفتحوا المملكة الإسلامية ، وامعنوا في بلاد فارس والعراق والشام .

ونبغ منهم الساسة والقواد . وبعد أن كانوا أهل أوثان ، أسلموا وشادوا المساجد والمدارس والمعاهد . وعمروا المدن فى أقصى الشرق وأقاموا فيها الأبنية الباذخة ، والقصور الشامخة . وغرسوا الحدائق والبساتين وهذه الدول لا سبيل إلى معرفة أخبارها إلا بتاريخ الإسلام .

البـــربـــر

ويراد بهم بدو أفريقيا الشمالية . وهم قبائل رحل ، كانوا قبل الإسلام من الهمجية والجهالة على جانب عظيم . وكانوا أصحاب أوثان . يعتصمون الجبال ويتقاضون إلى الكهان . يكرهون المدنية وأهلها . وقد قاسى اليونان والرومان من غزوهم ونهبهم عذاباً شديداً . ولم يكن لهم شغل غير ذلك . ولاقى العرب

أيام الفتح مشقة كبرى فى إخضاعهم . فلما خضعوا وأسلموا تجندوا للخلفاء والأمراء . وافتتحوا البلاد . ولا سيما فى الغرب فاكتسحوا الأندلس بقيادة طارق بن زياد ، وكانوا عوناً كبيراً فى قيام دولة الادارسة والدولة الفاطمية ، وأنشأوا دولة الملثمين والمرابطين والموحدين والصامدة وآل زيرى وغيرهم مما لا يحصى. وقد جندوا الجنود وبنوا المعاقل وأخذوا بأسباب المدنية ولا وسيلة لمعرفة أخبارهم إلا بتاريخ الإسلام .

الزنـــوج

كان الزنوج ولا يزال ، السواد الأعظم منهم . يُحملون إلى الآفاق كما تحمل الأغنام - يباعون بيع السلع ؛ فكانوا يرضخون تحت نير المتمدينين ، وكانوا يعبدون الحجارة أو الشجر . وبعضهم لا يفهم معنى الدين أو العبادة . وكان المعروف فى مواطنهم عند ظهور الإسلام شمالى أفريقيا وبعض غربيها وشرقيها .

فلما انساح العرب فى الأرض للفتح أو المهاجرة ، ذهبت قبائل منهم إلى أواسط أفريقيا ، فضلاً عن شواطئها ، فاكتسب الزنوج منهم أخلاق الأمم المتمدنة ، وأسلموا . ثم انتظموا فى الجندية ، وتألفت منهم فرقاً حاربت تحت رايات الخلفاء فى بلاط الخلفاء ، حتى صاروا من أهل الحل والعقد .

وتولى بعضهم الحكومة . ثم تجندوا لأنفسهم . ونهضوا كما تنهض الأمم الراقية ، فألفوا جيشاً حاربوا به الدولة العباسية عدة سنين ، حتى أقلقوا راحتها . وفتحوا المدن ، وكادوا يؤسسون دولة إسلامية كبرى .

على أنهم أنشأوا دولاً صغرى فى أواسط افريقيا وغربيها . ونبغ منهم الحكام والقواد . وأشهرهم : كافور الاخشيدى صاحب مصر . وظهر غير واحد من الشعراء ونظموا القصائد الحسنة . ونبغ منهم جماعة من القراء والفقهاء . وتدخل أخبارهم فى تاريخ الإسلام .

وقس على ذلك أخبار أمم الشمال : كالكرج والأرمن والأكراد والخزر والصقالبة وغيرهم .

ناهيك بالعرب أنفسهم وتاريخهم قبل الإسلام وبعده . لولا الإسلام لذهبت أخبارهم وأخبار الأمم الإسلامية الأخرى . وأكثر ما يعرفه المتمدنون فى هذه الأمم ، أخذوا من تاريخ الإسلام .

٣ - أرخ المسلمون فترة من الدهر ، لم يُعرف تاريخها ، لولاهم . لأن حوادث ظهور الإسلام وما تلاه من أخبار الفتح وما عقب ذلك من إنشاء التمدن ونشر لواء العلم ونقل الفلسفة وغيرها من علوم القدماء ، وما اقتضاه ذلك من التغيير والتبديل ، قلما عرف عنه الإفرنج شيئا لولا تاريخ الإسلام .

٤ - إن مدة هذا التاريخ أطول من مدد سائر التواريخ ؛ لأن الإسلام يشمل دولاً شتى إسلامية ، إذا انقضت دولة قامت أخرى . ونحن فى القرن الرابع عشر من تاريخ الهجرة [١] . وقد توالى فى الإسلام مئات من الدول من أمم مختلفة فى آسيا وأفريقيا وأوربا . ولا يزال من هذه الدول كثير حتى الآن فى هذه القارات . منها الدول الكبرى كالدولة العثمانية والفارسية والدول الصغرى فى الهند وجزيرة العرب وأفريقيا .

ولا نعرف أمة طال سلطانها فى الأرض مثل هذه المدة . ولا يزال عمر الإسلام طويلا ، بل هو فى نهضة إصلاحية تساعده على طول بقائه . فهو لذلك يحتوى على تاريخ أطول من سائر التواريخ.

٥ - يمتاز تاريخ الإسلام عن سواه أنه يشتمل على تاريخ السياسة والدين والعلم والشريعة . وهذا قلما يجتمع فى التواريخ الأخرى .

وتاريخ الفقه الإسلامى لا يدانيه تاريخ فقه لأمة من أمم الأرض بما يدخل فيه من إعمال الفكر واستنباط العقل . وقس عليه تاريخ العلم ؛ لأن المسلمين أتوا فى نهضتهم العلمية فى العصر

---

(١) كتب المؤلف مخطوطه هذا عام ١٩١١ م = ١٣٢٩ / ١٣٣٠ هـ .

العباسى بما لم يأته غيرهم فى نهضة ، فقد اشتغلوا بعلوم اليونان والفرس والهنود والسريان وغيرهم ونقلوها إلى لسانهم وذكروا أخبارها وأحوالها فضلا عما فى اختلاف أجناس المؤرخين من جوامع الفوائد ، فإن بينهم العربى والفارسى والتركى والرومى والمصرى والسريانى والهندى وغيرهم . ولكل أمة مزية ، فاجتمعت هذه المزايا فى تاريخ الإسلام .

٦ - يشتمل تاريخ الإسلام على عبر تاريخة لا يتيسر اجتماع مثلها فى تاريخ أمة أخرى ؛ لكثرة العناصر والأجناس الداخلة فى الإسلام ، ولكل منها عادات وأخلاق .

وكان فى كتاب المسلمين ميل إلى ذكر الحوادث والاشارة إلى العبرة والوفاء فيها . على أننا لا ننكر ما فى تواريخ الأمم الأخرى من المزايا التى قد تمتاز بها على تاريخ الإسلام .

تاريخ مصر بالنظر إلى سواه

إن تاريخ مصر من قبيل التواريخ الخاصة ؛ لأنه يختص بمصر دون سواها من البلاد ، وهو تاريخ طويل . لأن مصر من البلاد التى تمدنت قديما ، ولعلها أقدم الممالك المتمدنة التى وصل إلينا خبرها . ويقسم تاريخها إلى قسمين كبيرين : قديم وحديث .

فالتاريخ القديم : يشتمل على تاريخها من أول عهدها إلى الفتح الإسلامى . ويدخل فيه تاريخ دول الفراعنة . وينتهى هذا بفتح الإسكندر ، الإسكندرية سنة ٣٣٢ ق . م . ودولة البطالسة تبدأ بفتح الإسكندر وتنتهى بالفتح الرومانى سنة ٣٠ ق . م . والدولة الرومانية تبدأ بهذا الفتح وتنتهى بفتوح الإسلام سنة ٦٤٠م.

وتاريخها الحديث يبدأ بفتوح الإسلام سنة ٦٤٠ م ، ولا يزال ، وهو تاريخها الإسلامى .

ويقسم تاريخها الحديث الإسلامى إلى ١٢ دولة كلها إسلامية ، يتخللها الفتح [1] الفرنساوى على يد «بونابرت» ، ثلاث سنوات . ونعدها دولة ثالثة عشرة وهى :

١ - دولة الخلفاء الراشدين : من سنة ١٨ - ٤١ هـ أو من ٦٤٠ - ٦٦١ م .

٢ - الدولة الأموية : من ٤١ - ١٣٢هـ أو من٦٦١ - ٧٥٠م.

٣ - الدولة العباسية : للمرة الأولى من ١٣٢ - ٢٥٧ هـ أو من ٧٥٠ - ٨٧٠ م .

---

(١) الفتح : اصطلاح إسلامى بمعنى أخذ بلد أو منطقة سلماً أو عنوة . انظر عمر نصوحى ، قاموس الشريعة الإسلامية والمصطلحات الفقهية ، جـ ٣ ص ٣٣٦ ، دار بيلمان ، استانبول بدون تاريخ .

٤ – الدولة الطولونية: من ٢٥٧ – ٢٩٢ هـ أو من ٧٨٠-٩٠٥ م .

٥ – الدولة العباسية : للمرة الثانية من ٢٩٢ – ٣٢٣ هـ أو ٩٠٥ – ٩٣٤ م .

٦ – الدولة الإخشيدية : من ٣٢٣ – ٣٥٨ هـ أو من ٩٣٤-٩٦٩ م .

٧ – الدولة الفاطمية : من ٣٥٨ – ٥٦٧ هـ أو من ٩٦٩-١١٧١ م .

٨ – الدولة الأيوبية : من ٥٦٧ – ٦٤٨ هـ أو من ١١٧١-١٢٥٠ م .

٩ – دولة المماليك الأولى : من ٦٨٤ – ٧٨٤ هـ أو من ١٢٥٠-١٣٨٢ م .

١٠– دولة المماليك الثانية : من ٧٨٤ – ٩٢٣ هـ أو من ١٣٨٢-١٥١٧ م .

١١– الدولة العثمانية : من ٩٢٣ – ١٢١٣ هـ أو من ١٥١٧-١٧٩٨ م .

١٢– الحملة الفرنساوية : من ١٢١٣ – ١٢١٦ هـ أو من ١٧٩٨-١٨٠١ م .

١٣– الدولة المحمدية العلوية : من ١٢١٦ هـ أو ١٨٠١ م ولا تزال .

موضوع هذا الكتاب

فموضوع هذا الكتاب يقتصر على الدولة الحادية عشرة من الدول الإسلامية التى دخلت مصر فى حوزتها ؛ نعنى الدولة العثمانية بعد إخراج المدة التى كانت مصر فى أثنائها تحت سيطرة الفرنساوى ، على أثر الحملة الفرنساوية من سنة ١٧٩٨-١٨٠١ فيكون موضوع هذا الكتاب ، تاريخ مصر العثمانية من الفتح العثمانى سنة ٩٢٣ هـ - ١٢١٣ هـ أو من ١٥١٧-١٧٩٨م وهو أظلم (١) أقسام التاريخ المصرى الحديث ، لأن مصر كانت فى أثنائه مضطربة . وقد استبد بها المماليك وفسدت حكومتها ، وقل من كتب فى تاريخها من المحققين . على أننا سنبذل الجهد فى إيضاح ذلك التاريخ .

ولا بد لنا قبل التقدم إلى الكلام فيه من أن نقدم القول بمقدمات تمهيدية لزيادة الإيضاح فنقول :

---

(١) قد يقصد المؤلف هنا بأظلم أقسام التاريخ ، قلة من كتب فى هذه الحقبة من المؤرخين .

ما كانت عليه مصر عند الفتح العثمانى

ويقتضى بيان ذلك أن نأتى بفذلكة تاريخ السلاطين المماليك الذين انتقلت مصر من أيديهم إلى العثمانيين على يد السلطان سليم الفاتح (١) .

السلاطين المماليك

ويراد بالسلاطين المماليك : الدولة التى أنشأها مماليك الدولة الأيوبية بعد انقضائها .

حكمت الدولة الأيوبية من سنة ٥٦٧ - ٦٤٨ هـ ، وهى كردية ؛ لأن مؤسسها السلطان صلاح الدين الأيوبى (٢) ، كردى. وهو من أعظم رجال الإسلام تعقلاً وسياسةً وبسالةً وتدبيراً . أنشأ دولته على أنقاض الدولة الفاطمية بمصر ، وبايع فيها للخلفا العباسيين . وحارب الصليبيين وردهم عن سوريا . وأنقذ بيت المقدس من أيديهم . ومآثره أشهر من أن تذكر . وارتفع شأن الأكراد فى أيام دولته ، وتولوا الإمارات والولايات فى مصر والشام وكردستان واليمن وخراسان .

ولما مات اقتسم مملكته ، أخوته وأولاده وأولاد إخوته ،

---

(١) السلطان سليم الفاتح ، هو السلطان سليم الأول العثمانى : ١٤٦٧-١٥٢٠ م.
(٢) السلطان صلاح الدين الأيوبى : ١١٣٩-١١٩٣ م .

ولذلك لم يطل حكمها ، فغلبهم على معظمها مماليكهم الأتراك .
كما غلبت الأتابكة ملوكهم السلاجقة قبلهم . فكان المماليك فى مصر دولتان تعرفان بالسلاطين المماليك .

أصل السلاطين المماليك

يدل اسم المماليك على أصلهم فقد كانوا أرقاء مملوكين، ثم صار الحكم إليهم . وهم من الأتراك . كانوا فى الأصل جندا منجورا أو مبتاعا بدأ استخدام الأتراك فى الجندية على هذه الصورة فى أيام المعتصم العباسى فى أوائل القرن الثالث الهجرة . فإنه استقدم منهم جماعة من تركستان ابتاعهم أو استرضاهم أو استأجرهم لتعزيز حاشيته خوفا من تغلب أحد الحزبين اللذين استفحل شأنهما يومئذ فى أثناء الفتنة بين أخويه الأمين والمأمون . إذ قام العرب مع الأمين ، والفرس مع المأمون . وكان الشأن الأكبر فى أول الدولة العباسية للجند الخراسانى (الفرس) وهم الذين نقلوا الدولة الإسلامية من بنى أمية إلى العباسيين . وكان العرب أقوياء لأنهم قوام الدولة ، ومنهم الخلفاء وهم مادة الإسلام وأصله. كان الفرس من حزب البرامكة. وكان الرشيد ذا عصبية للعرب ف الفرس ، لأنهم أنصار الشيعة العلوية فنكب البرامكة خوفا

ولما اختلف الأمين والمأمون وتنازعا على الخلافة بعد الرشيد . كان العرب مع الأمين ، والفرس مع المأمون ، لأن أمه فارسية ، والأمين أمه عربية هاشمية «زبيدة» . وكان الفوز للمأمون وقتل الأمين . فانحط شأن العرب . وصارت السيادة إلى الفارسيين أنصار المأمون واستبدوا فى الدولة .

وكانت الحضارة قد أضرت بالمسلمين وأذهبت منهم قوة التغلب والفتح . ففكر المعتصم أخو المأمون فى ذلك قبل أن تفضى الخلافة إليه . وكانت أمه تركية ، وفيه كثير من طبائع الأتراك مع الميل إليهم ، لأنهم أخواله . كما كان يميل المأمون إلى الفرس لنفس هذا السبب .

وشاهد المعتصم من جرأة الفرس وتطاولهم بعد قتل أخيه الأمين حتى أصبح يخافهم على نفسه . ولم تكن له ثقة العرب وقد ذهبت عصبتهم وأخلدوا إلى الحضارة والترف وانكسرت شوكتهم فرأى أن يتقوى بالأتراك وهم لا يزالون إلى ذلك العهد أهل بداوة وبطش مع الجرأة على الجر [١] والصبر على شظف العيش فجعل يتخير منهم الأشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم فى العراق ، أو يبعث فى طلبهم من تركستان وغيرها . فاجتمع عنده عدة آلاف

---

(١) هكذا فى الأصل .

منهم . وفيهم جَمَال و صحة ، فألبسهم أثواب الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة ، وميزهم بالزى عن سائر الجنود .

دولة المماليك الأولى

وصار تجنيد الأتراك من ذلك الحين قاعدة فى الدول الإسلامية . ومن جملتها الدولة الأيوبية بمصر ، فإن الملك الصالح ابن الكامل (٦٣٧ – ٦٤٧ هـ) استكثر من اقتنائهم حتى جعل منهم بطانته وأمراء دولته والمحيطين بدهليزه وصارت مناصب الدولة إليهم، وأمنع حصون البلاد فى قبضتهم قد اتخذوها مستقرا لهم حتى إذا ضاقت ذرعا من الإحاطة بهم ابتنوا – بأمر الملك الصالح– قصورا عظيمة متقنة البناء منيعة الجانب من جزيرة الروضة بضواحى القاهرة قرب المقياس . وقد زادها مركزها لبيعى مناعة وجمالا ، لأن النيل يتفرع هناك إلى فرعين . وكان عى نقطة تفرعه ، بالبحر ، لعظم اتساعه . فسمى هؤلاء المماليك، بالمماليك البحرية . ومنها اسم دولتهم تمييزا لها عن دولة المماليك الشراكسة ، الآتى ذكرها .

وكانت سطوة المماليك البحرية تنتشر يوما فيوم إلى أن طمعوا بخلع السلطان وتولى الملك مكانه . فلما تولى الملك المعظم

آخر سلاطين بنى أيوب ، وكان على ما كان عليه من الاستبداد ، أنفت نفوسهم من أعماله فسعوا فيه إلى أن قتلوه .

ولما قُتل الملك المعظم اختلفت الأحزاب فيمن يبايعون بعده وكل فئة منهم تحاول استبقاء الحكم فى يدها وتعاظم الخصام فتداركت الأمر شجرة الدر وهى محظية كانت لها منزلة عند الملك المعظم وسائر رجال الدولة فرأت حزب المماليك أعز جانباً من الجميع . وكانت قبلا قد تواطأت مع ايبك عز الدين وهو من أعظم الأمراء المماليك نفوذا وبينهما علاقات ودية من أيام الملك الصالح فتمكنت بهذه الصداقة من مبايعة الجميع لها مما لم يسبق له مثيل فى الإسلام لكنها لم تستطع استبقاء الحكم فى قبضتها أكثر من سنة فخلعها المماليك وولوا أيبك عز الدين المذكور سنة ٦٤٨ وله منازعون ومناظرون . وزاد الأمر إشكالاً تعدى الصليبيين على دمياط فى تلك الأثناء .

وما زالت السيادة تنتقل من واحد إلى آخر منهم حتى أفضت إلى الظاهر بيبرس البندقدارى أعظم سلاطينهم (٦٥٨-٦٧٦ هـ) .

الملك الظاهر بيبرس

وكان الملك الظاهر ملكا حازما ، شديد البطش كثير الغزوات ، خفيف الركاب يحب السفر . وكان مشهورا بالفروسية

فى الحرب . وله إقدام وعزم على القتال ، وثبات عند التقاء الجيوش حتى لقبوه بأبى الفتوح . وكان شعاره الأسد ، إشارة إلى شجاعته.

ومن أعماله المأثورة أنه عمر الحرم النبوى ، وقبة الصخرة فى بيت المقدس . وزاد فى أوقاف الخليل ، وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الإسكندرية ومنار رشيد . وردم فم بحر دمياط ووعر طريقه ، وعمر الشنوانى ، وعمر قلعة دمشق وقلاعا عديدة فى أنحاء سورية ، وعمر المدرسة بين القصرين فى القاهرة والجامع الكبير بالحسينية وهو المعروف الآن بجامع الظاهر . وحفر خليج الإسكندرية القديم وباشره بنفسه . وبنى هناك قرية سماها الظاهرية . وحفر بحر أشمون طناح ، وجدد الجامع الأزهر بالقاهرة وأعاد إليه الخطبة . وعمر بلد السعيدية من الشرقية بمصر . وبنى القصر الأبلق فى دمشق ، وغير ذلك من الآثار الباقية إلى اليوم .

واشتهر الملك الظاهر بحروبه مع الصليبيين ، فاستولى على بلاد كثيرة من سوريا وفلسطين وحلب ، وفتح بلاد النوبة وبرقة .

وفى أيامه جاء العباسيون إلى مصر على أثر فرارهم من بغداد بعد سقوطها بأيدى التتر وقتل الخليفة المستعصم سنة

٦٥٦هـ فجاء منهم إلى مصر الإمام أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله . فوصل مصر سنة ٦٥٩ هـ ، فاستقبله الملك الظاهر أحسن استقبال ، وبايعه ، وأثبت نسبه فى مجلس من القضاة والعلماء . وأراد أن يسترجع لهم بغداد ، فأرسل جندا لاستخراجها من سلطة التتر فلم يفلح ، فى حديث يطول شرحه ، لكنه أفلح فى جعل مصر مقر الخلفاء العباسيين ، وصاروا لا يثبت سلطان منهم على كرسى مصر إلا إذا بايعه الخليفة العباسى بماله من السيادة الدينية .

بقية دولة المماليك الأولى أو البحرية

مات الملك الظاهر سنة ٦٧٦ هـ . وخلفه على الملك ولداه بركه خان ثم سلامش . ولم يكونا أهلاً للرئاسة ، فتغلب عليهما وحتى كان على سلامش ، اسمه سيف الدين قلاوون الألفى ، فخلع سلامش ، وتسلم زمام الأحكام ، فبويع ولقب بالملك المنصور .

وكانت مدة حكمه بضع عشرة سنة من ٦٧٨ – ٦٨٩ هـ ، وكان حسن الشكل ، ربع القامة ، قليل الكلام بالعربية . وكان شجاعا بطلا مقداما فى الحرب ، مغرما بشراء المماليك حتى قيل

إنه تكامل عنده ١٢,٠٠٠ مملوك أكثرهم من الشراكسة . وحارب الصليبيين وغيرهم . وخلف آثارا بنائية لا يزال بعضها قائما إلى اليوم ، منها المارستان المنصورى ، وجامع قلاوون فى شارع النحاسين بمصر .

وبلـغ من عنايته بالمماليك أنه غير ملابسهم ، وألبسـهم المخمل الأحمر والأخضـر والسـمور والفـرو . وكان استكثاره من المماليك الشراكسة ، سببا فى خروج السلطة من نسله كما أصاب الملك الصالح باستكثاره من المماليك الأتراك . فتوالى على الملك بعده بعض أولاده وبعض مماليكه الأتراك . ولم يثبت الملك طويلا إلا لابنه الناصر بن قلاوون من سنة ٧٠٩ – ٧٤١ هـ ، فخلف آثارا كثيـرة ، وحارب حروبا جـمة . ومن جملـة آثاره مجراة المـاء ، والسقايات السبع على حدود مصر القديمة فى القاهرة .

وتكاثرت مماليك الملك الناصر المذكور فى أواخر أيامه ، وانتقل الحكم بعده إلى أبنائه الواحد بعد الآخر ، وهم ثمانية ، من سنة ٧٤١ – ٧٦٢ هـ . ومنهم السلطان حسن صاحب الجامع المعروف باسمه فى مصر . وانتقل بعدهم إلى جماعة من أهلهم حكموا ٢٢ سنة أخرى ، حتى انتقل سنة ٧٨٤ هـ إلى دولة المماليك الشراكسة أو «دولة المماليك الثانية» .

دولة المماليك الثانية ، أو ، الشراكسة

والمماليك الشراكسة هم مماليك السلطان قلاوون المتقدم ذكره . وهم جنس من أهل آسيا يخالف الأتراك . أصلهم من جهات سيبريا ونواحي بحيرة «بيقال» . وهاجروا في القرن السادس للميلاد إلى غربي بحر قزوين يُحملون من بلادهم للاتجار بهم في أنحاء العالم ، فاقتنى منهم سلطان المماليك البحرية الأخير عدداً وافراً فضلا عن المماليك البحرية اقتداءً بأسلافه . وكانوا يستخدمونهم في صالح الدولة فارتقوا فيها تبعاً لما خصتهم به الطبيعة من الجمال والذكاء حتى صارت إليهم حماية الحصون والقلاع فجعلوا سكناهم في الأبراج فلقبوا «بالبرجية» وما زالوا يزدادون عدداً وقوة ومنعةً حتى تاقت نفوسهم إلى تسلق كرسي الملك يجعلونه إرثا في نسلهم .

فتمكنوا من ذلك على يد مملوك منهم حازم اسمه برقوق ، وهو ابن مرتد شركسي اسمه أنس . تدرج في مصالح الدولة من أدناها إلى أعلاها بحزمه ودهائه حتى تمكن من تسلق كرسي الملك سنة ٧٨٣ هـ وما زال حاكما نافذ الكلمة إلى سنة ٨٠١ هـ .

وفي أيامه حمل «تيمورلنك» القائد التترى على العا

الإسلامى حتى هدد حدود سوريا فحمل عليه برقوق فى صفد وأوقفه عند حده .

أول علائق العثمانيين بمصر

وفى أثناء ذلك أفضت سلطنة آل عثمان إلى السلطان بايازيد فى آسيا الصغرى . وقد طمع بمصر فجاء تيمورلنك لينازعه عليها وعلى مصر ، فبعث كل منها وفدا إلى القاهرة ، فطلب وفد بايازيد إلى برقوق أن يعاهده على السلم . وإلى الخليفة العباسى المقيم فى القاهرة أن يقر بايازيد رسميا على سلطنة الأناضول ، فأجابهم إلى ما طلبوه .

أما وفد تيمورلنك فاتخذوا خطة أخرى لأنهم استعملوا الخشونة والفظاظة فى أقوالهم ومطالبهم ، فطلبوا منه أن يسلم لهم قرا يوسف ، وأحمد بن أويس اللذين قد التجآ إليه . فطيب برقوق خاطرهم وأخذهم بالملاينة فازدادوا فجورا ، فأمر بقتلهم ، فشق ذلك على تيمورلنك ، فساق جيشه وقدم للانتقام فمر بالرُّها ، وقتل من فيها ، ثم جاء حلب فأنكى فيها ، ثم توقف عن مسيره لغرض فى نفسه يسهل عليه افتتاح مصر . فلم يغفل برقوق عن ذلك ، فأكثر من الجند والسلاح . وتأهب للدفاع أو الهجوم لكنه لم يكد يتم هذه التأهبات حتى أدركته الوفاة .

والسلطان برقوق أعظم سلاطين دولة المماليك الشراكسة أو الثانية وله آثار منها جامع لا يزال يعرف باسمه وكان له ولع خاص باقتناء الأسلحة ، ونظم الجند ، وعين رتبه ، وجعل مناصب الدولة إلى تسعة من كبار الموظفين أكبرهم أتابك العساكر ، فرأس نوبة الأمراء ، فأمير السلاح ، فأمير المجلس ، فأمير الياخور ، فالدوادار ، فرأس النوبة الثاني ، فحاجب الحجاب . وهو أول من عقد مع العثمانيين صلحاً أو عهدا ، كما رأيت .

وتولى الملك بعــده اثنان من أولاده ، الواحد بعد الآخر . ثم تنازع الســيادة مماليك آخــرون ، يطول بنا ذكــر مدد حكمهم ، أهمهم فيما نحن فيه : الملك الأشرف قايتباى من سنة ٨٧٢-٩٠١ هـ .

تولى الملك والمملكة المصرية فى اضطراب . وفى أيامه اقتضت الأحوال أن تتداخل الدولة العثمانية بمصر ، وتعاديها . وذلك أن السلطان محمد الثانى حارب مَلك الفرس «أوزون» وتغلب عليه (١) . وكان بين المصــريين والفرس تحالف . ثم ما لبث «قايت

---

(١) اوزون حسن أو «حسن الطويل» لم يكن ملك الفرس ، بل كان حاكما تركمانيا فتح فارس عام ١٤٦٧ م . انظر المنجد فى الإعلام / ص ١/٩٣ ، بيروت ، ط ١٠ ، ١٩٨٠ .

بك» ، أن سمع بعزم السلطان المذكور على فتح «سوريـــا» سـنة ٨٨٥ هـ . ولكن لم يخرج من بر الأناضول حتى داهمته المنية فى مدينة «طيفور جابر» . وتخاصم ابناء «بايازيد» (١) ، و «جم» أو «زيزم» على الملك ، فشغلا عن الفتح ، فاغتنم قايت باى تلك الفرصة وانسحب بجيشه إلى مصر .

وما زال الخصام يتعاظم بين ابنى محمد حتى كانت بينهم اواقعة «يكى شهر» فانهزم جم حتى أتى مصر ، والتجأ إلى قايت بك ، فاكرم وفادته ، ثم علم أن ذلك الإكرام يهيج حاسة الانتقام فى بايازيد «الثانى» فقال فى نفسه : «إذا كان لا بد من محاربة العثمانيين فلنكن مهاجمين أولى من أن نكون مدافعين» فجعل يناوىء الأتراك ويقطع السبل على قوافلهم الناقلة الحجاج إلى الحرمين حتى قبض على وفد هندى مرسل فى مهمة سياسية إلى بايازيد . واستولى على «أدنة» و «ترسوس» وكانتا فى حوزة العثمانيين .

أما بايازيد فكان واقفا بالمرصاد ينتحل حجة لمهاجمة المصريين فجاءت تلك الإجراءات طينة على عجينة ، إلا أنه رأى أن ياتيهم من باب الحزم فأنفذ إليهم رسلاً فى طلب التعويض عما

(١) الأصل بايزيد .

سببوه من الخسـائر والأضرار . فأرجع «قايت باى» الرسل وبعث يهاجم الجيوش العثمـانية ، فقاومته أشد المقاومة ، وأرجعت جيشه إلى ملاطية ، فأنجدهم «قايت باى» بخمسة آلاف رجل فـعادوا إلى العثمـانيين وهم فى مضايق الجـبال ، فهجموا عليهم بغتةً ، وذبحوا منهم عدداً كبيرا ، وفر الباقون وتحصنوا فى «ترسوس» و«أدنة» ، فأنفذ جيشا كبيرا تحت قيادة صهره أحمد ، وهو ابن أمير البوسنة ، فلما وصل إلى معسكر الأزبكى ، اقتتل الجيشان فهجم أحمد هجمة قوية ، لكن رجاله لم يستطيعوا الثبات ، ففازت الجيوش المصرية ، وأسر أحمد بعد أن جاهد جهاداً حسنا ، فعاد الأزبكى بأسيره إلى مصر ظافرا ، فبنى جامعه المشهور المعروف بجامع الأزبكية ، وكانت فى أيامه بركة يتجمع إليها الماء أيام الفيضان وهى التى صارت الآن حديقة الأزبكية .

فلما بلغ بايازيد ما كان من انكسار جيوشه ، استشاط غضبا ، وجند جندا كبيرا جعله تحت قيادة «على باشا» لمحاربة المصريين . فسارت تلك الحملة من الأستانة فعبرت البوسفور فى ٣ ربيع آخر سنة ٨٩٣ ، ونزلت قَرَمَان . فاتصل خبرها بقايت بك ، فأوجس خيفةً فعمد إلى المصالحة . فأنفذ إلى بايزيد صهره أحمد

واسطةً لعقد شروط الصلح ، فرفض بايازيد ذلك رفضا باتاً ، وسار حتى التقى بالمصريين في «أدنة» و «ترسوس» فحاربهم وفاز عليهم، واسترجع المدينتين الواحدة بعد الأخرى ، بعد أن أهدر دماءً غزيرة ثم سار إلى أرمينيا وأخضعها، وحاصر عاصمتها ، فافتتحها بعد أن دافعت دفاعا قويا ، وأسر حاكمها ، وأرسله بعد ذلك إلى مصر بدلا من الأمير أحمد . فبعث قايت باى الأزبكى ثانية لدفع العثمانيين ، فواقعهم فى «ترسوس» ، فغلبوه أولا ثم عاد إليهم وفاز بهم وأعادهم القهقرى وعاد إلى القاهرة ظافراً ، فخلع عليه قايت باى . ثم رأى أن يغتنم كونه ظافرا لمصالحة العثمانيين ، فبعث إلى بايزيد فى ذلك فأجابه وطلب إليه أن يتنازل له عن «ترسوس» و «أدنة» وأنه إذا لم يفعل يدعو الناس إلى الجهاد ، فيجتمع تحت لوائه كل من يدعو لآل عثمان ، فيجيء مصر ويفتحها فتحاً مبيناً . فخاف قايت بك وتنازل عن المدينتين اكتفاءً بأهون الشرين وكان ذلك سنة ٨٩٦ هـ . فقايت بك أول من حارب العثمانيين . وكان عادلاً محبوباً ، وما زال العقلاء الذين عاصروا سائر دولة المماليك يضربون المثل بأيامه ، ويطلبون الرجوع إلى مثلها .

حرب أخري مع العثمانيين

قنسو (١) الغورى

خلف قايتباى على مصر خمسة سلاطين لم يطل حكمهم أكثر من خمس سنين لاضطراب الأحوال فجاء بعدهم السلطان قنسو الغورى حكم من سنة ٩٠٦ - ٩٢٢ هـ وكان مخلصا فى الحكم وهو صاحب الجامع المعروف باسمه فى القاهرة.

ويهمنا هنا أن فى أيامه حدث اختلاف آخر بين العثمانيين والمصريين . وذلك أن كركود أخا السلطان سليم بايازيد جاء مصر سنة ٩١٨ هـ ، فاراً من أخيه ، وكانا قد تخاصما على الملك كما حصل بجم وبايازيد قبلاً ، فرحب قنسو الغورى به ترحابا عظيما وجهزه بعشرين بارجة بحرية لافتتاح القسطنطينية ، فذهبت

(١) الصحيح «قانصو» . وقد أثبت نطق الكلمة بارتولد فى مادة قانصو من دائرة المعارف الإسلامية وكذلك بسيم دار قوت فى ترجمته وإضافته لمادة قانصو إلى اللغة التركية انظر الترجمة التركية لدائرة المعارف الإسلامية جـ ٦ مادة قانصو .

العمارة غنيمة لمراكب «أورشليم» فى البحر المتوسط ولم تكن النتيجة إلا إثارة غضب السلطان سليم على مصر فجهز إليها ، وابتدأ بفتح الحدود السورية وأرسل إلى مصر رسائل التهديد ، فاتحد الغورى مع ملك الفرس اسماعيل شاه على قهر العثمانيين ، وكان الفرس فى حرب معهم وسنعود إلى تفصيل ذلك إلا أن الجيوش العثمانية لم تبال بكثرة العدد فشتتت الجيشين وأى تشتيت . فعمد قنسو الغورى إلى مخابرة العثمانيين بأمر الصلح على أى وجه كان ، وبعث إلى السلطان سليم بذلك فسارت الرسل إلى السلطان سليم فخروا ساجدين وخاطبوه بأمر الصلح فقال لهم وقد استشاط غيظاً «لقد فات الأوان . انهضوا وارجعوا إلى سلطانكم وقولوا له ، إن الرجل لا تعثر بحجر واحد مرتين . وها إنى ذاهب إلى القاهرة فيستعد للدفاع إن كان له أهلا» .

فعادوا وأخبروا بما كان، فجمع قنسو رجاله وزحف لملاقاة الجيوش العثمانية فالتقى بها فى «مرج دابق» قرب حلب فانتشبت الحرب هناك وأظهر الغورى بسالة وثباتاً عظيمين حتى أوشكت رجاله أن تستظهر ، فمنعتها مدافع العثمانيين من ذلك ولم يكن للمصريين مثل ذلك السلاح فتشوش نظامهم ووقع الرعب فى قلوبهم ، وانحاز قائدا جناحيهم إلى العثمانيين وكان الغورى قائدا

لقلب الجيش فاضطر إلى الفرار ، فحوّل شكيمة جواده ، فسقط عنه لشدة الازدحام وقتل تحت أرجل الخيل سنة ٩٢٢ هـ .

آخر السلاطين المماليك

فخلفه الملك «الأشرف طومان باى» ابن أخيه ، وفى أيامه فتح السلطان سليم مصر وصارت عثمانية ، ولم يتم طومان باى سنة فى حكمه ، وقبل التقدم إلى تفصيل ذلك الفتح ، نأتى بفذلكة عن تاريخ الدولة العثمانية إلى سنة الفتح فنقول :

الدولة العثمانية

هى دولة تركية لكنها تختلف عن دولة المماليك التركية (الأولى) المتقدم ذكرها أن أصحابها لم يكونوا من المماليك بل هم قوم أحرار أهل سيادة ، جاءوا فاتحين - وقد نشأت فى الإسلام عدة دول تركية منها أربع دول نشأت وانقرضت فى أيام العباسيين قبل سقوط بغداد ، وكان مؤسسوها فى الغالب عمالاً للعباسيين فى بعض الولايات ثم استقلوا وهى : الدولة الطولونية والايلكية والإخشيدية والغزنوية . وليس فى الدول التركية دولة كان أصحابها أهل سـيادة فى بلادهم وجـاءوا المملكـة الإسـلامية فاتحين إلا السلاجقة والعثمانيين .

أما دولة السلاجقة فمؤسسها أمير تركى كان فى خدمة بعض خانات تركستان فعلم باختلال المملكة العباسية ، فطمع بها وعلم أنه لا يبلغ ذلك وهو على غير دين الإسلام ، فأسلم هو وقبيلته وسائر جنده ورجال عصبيته دفعة واحدة [1] . ونهض بجميع هؤلاء من تركستان وساروا غرباً فقطعوا نهر جيحون وتدرجوا فى الفتح ونشر السيادة حتى اكتسحوا المملكة العباسية ، وامتد سلطانهم من افغانستان إلى البحر الأبيض وكانت لهم بعد ذلك دولة عريضة تفرعت إلى خمسة فروع لا محل لذكرها هنا . ولما شاخت دولتهم ، أفضت المملكة إلى مماليكهم ، ويسمونهم الأتابكة ، واحدهم «أتابك» فتفرعت المملكة السلجوقية بهم عشر ممالك ، وبقى من السلاجقة فرع عُرِف بسلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ، تفرع إلى ثمانى إمارات أخذها منهم العثمانيون ، وأقاموا دولتهم على أنقاضها كما سيجىء .

والعثمانيون شأنهم فى تأسيس دولتهم مثل شأن

---

(١) يقصد جرجى زيدان هنا ، سلجوق بن دقاق وهو مؤسس دولة السلاجقة . وكان إسلامه نتيجة التقائه بالاتراك المسلمين فى جند وليس طمعا فى دولة . انظر إبراهيم قفص أوغلو ، مادة السلاجقة ، دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة التركية جـ ١٠ ، استانبول ١٩٦٧ .

السلاجقة، فإنهم جاءوا من تركستان وهم أهل دولة وأصلهم من التتر الذين يقطنون ما يجاور جبال التاى عند حدود الصين الشمالية ، ويغلب على الظن أنهم الإسكتيون المعروفون قديما بالشجاعة وشدة البأس ، ويقال إن جماعة منهم ينتسبون إلى جد يقال له «ترك» نزحوا غربا فى القرن الأول للميلاد ، وأقاموا فيما هو الآن تركستان ، وهى مشهورة بجودة الإقليم وخصب المرعى وجمال المكان وقوة الأبدان (١) .

وما اســـتتب لهم المقام هناك حتى أخذوا يمـدون سـلطتهم وهم لا يزالون فى حال الجاهلية ، ولم يعتنقوا الإسلام إلا فى أواســط القرن الرابع للهجرة وأشهرهم طائفتان ، إحداهما السلاجقة المتقدم ذكرهم . وقلنا إن منهم فرعاً ظل سائدا فى آسيا الصغرى إلى أواخر القرن السابع للهجرة ، وسلطانه يومئذ عــلاء الدين كيقباد الثانى ، تولى الملك سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦) م .

أما الأغوزية فما زالوا مقيمين فى تركستان حتى ظهر

(١) لم يذكر المؤلف مصدره فى أن للأتراك جدا يسمى ترك . انظر معانى كلمة ترك ، چاغاتاى اولوچاى ، دائرة معارف التاريخ (بالتركية) مادة ترك ، دار باتش ، استانبول ١٩٦٩ .

جنكيزخان القائد المغولي وغزا قبائل تلك البلاد ، فأذعنوا له إلا الأوغوزية فإنهم هاجروا بقيادة أمير يدعى سليمان يطلبون مقاما ومرعى لماشيتها ، وما زالو يسيرون غربا حتى حدث وهم يعبرون الفرات أن أميرهم سقط بجواده في النهر ومات ، فدفنوه هناك وهو جد السلطان عثمان مؤسس هذه الدولة فاصبحوا بعده جماعات متفرقة ، فاتخذ ابنه ارطغرل قيادة جماعة منهم وسار بهم يخترق آسيا الصغرى ، وهو في بعض السهول شاهد أرطغرل عن بعد غباراً متصاعدا وحربا قائمة ، فتقدم على نية الانتصار لأضعف الفئتين المتحاربتين ، ففعل وهو لا يدرى لمن ينتصر ، فقيض الله النصر له ، وتقهقرت الفئة الأخرى ثم علم أنه انتصر للسلجوقيين وقهر المغوليين ، فشكر الله على ذلك .

فنال منزلة رفيعة لدى علاء الدين السلجوقي[1]، فاقطعه بقعة كبيرة يقيم فيها برجاله على حدود فريجيا وبيثينا فكانت أرضا خصيبة ذات مرعى حسن – وفي تلك البقعة نشأ ابنه عثمان،

وشبّ وترعرع ومازال أرطغل تحت رعاية علاء الدين حتى توفي فخلفه ابنه عثمان . (٢)

---

(١) علاء الدين السلجوقي أو علاء الدين كيقباد ١٢١٩ – ١٢٣٧ .

(٢) في المخطوطة صورة السلطان عثمان الغازي .

ثم توفى علاء الدين فاقتسم امراؤه مملكته ، فاستقل عثمان بما لديه سنة ١٣٠٠ م وهو أول أمراء آل عثمان .

ومن التقاليد المأثورة بين العثمانيين ، أن عثمان هذا عشق وهو شاب فتاة تُدعى «مال خاتون» وكان والدها شيخاً تقياً ورعاً طاعناً فى السن اسمه أَدَبَالى ، فلما شعر بمحبة عثمان لإبنته ، خاف العاقبة وصار يحاول إبعادهما الواحد عن الآخر ، وبالغ فى حجاب ابنته لأنه لم يكن يطمع بمصاهرة ابن حاكمه (١) .

فجاء عثمان ذات ليلة ليبيت فى منزل أَدَبَالى وقضى معظم الليل هاجاً بحبيبته (٢) حتى غلب عليه النعاس ، فرأى فى الحلم كأن القمــر خارج من صدر أدبالى ، ثم رآه يتسع بســرعة حتى غطى كل ما كان واقعا تحت نظره من الأرض . ثم أخذ فى التقلص حتى عاد إلى حجمه الأول ، وارتد إلى صدر أدبالى كما

---

(١) هذه الفقرة روائية أدبية تختلط فيها الرواية بالتاريخ .

(٢) يذكر محمد فريد الواقعة كالآتى : (أنه رأى القمر صعد من صدر هذا الشيخ وبعد أن صار بدراً نزل فى صدره – أى فى صدر عثمان ـ ثم خرجت من صلبه شجرة نمت فى الحال حتى غطت الاكوان بظلها ، ونظر اكبر الجبال تحتها ، وخرج النيل والدجلة والفرات والطونة من جذعها ورأى ورق هذه الشجرة كالسيوف يحولها الريح نحو مدينة القسطنطينية . تاريخ الدولة العلية العثمانية . محمد فريد ص ١١٦ ط ٢ ١٩٨٢ م .

كان ، ثم رأى شجرة عظيمة خارجة من صلب أدبالى ، وأخذ ظلها يمتد حتى غطى البر والبحر وتراءى له أن أنهر دجلة والفرات والطونة والنيل خارجة من أصل تلك الشجرة . وجبال قوقاس [1] وأطلس وطوروس وهيموس تستظل بأغصانها . ورأى أوراقها تستطيل وتسترق حتى صارت كالسيوف ورؤوسها مصوبة إلى أشهر عواصم العالم ، خصوصاً القسطنطينية الواقعة فى ملتقى القارتين ومجمع البحرين . وخيل له أنها جوهرة بين زمردتين وياقوتتين مصطنعة فى فص خاتم وأنه أهم أن يجعل ذلك الخاتم فى أصبعه . فاستيقظ مبغوتاً ، فأخبر أدبالى فى الصباح بما كان، فاستبشر بما سيكون من مستقبل ذلك الشاب ، وأنه سيمتلك القسطنطينية .

وما انفك خلفاء عثمان كلما اتسع سلطانهم يزدادون ثقة بمآل ذلك الحلم ، وقد حاول بعضهم فتح القسطنطينية ، فرجع ولم ينل وطراً [2] ، حتى ظهر محمد الفاتح [3] السابع من سلاطين آل عثمان ، وبينه وبين صاحب الحلم نحو ١٦٠ سنة ، ففتحها بعد أن يئس المسلمون من فتحها .

---

(١) المؤلف يقصد القوقاز وتكتب على وجهين : «القوقاز» و «قفقاسيا» .

(٢) المؤلف يقصد هنا سلطان بايازيد الثانى : ١٤٤٧ - ١٥١٢ م .

(٣) فى المخطوط صورة للسلطان محمد الفاتح .

وحارب العثمانيون أعظم ملوك أوربا ، وطاردوهم إلى بلاد المجر ، وحاصروا فيينا عاصمة النمسا ، وأخذوا الجزية من الارشيدوق فردينان ، واكتسحوا البحر الأبيض إلى شواطىء آسيا، ووجهوا مطامعهم من الجهة الأخرى نحو الشرق ففتحوا العراق والشام ومصر على يد السلطان سليم الفاتح الذى نحن فى صدده .

الإنكشـاريــة

وقد تمكن العثمانيون من هذه الفتوح العظيمة بواسطة الإنكشارية وهم جند أنشأه العثمانيون على شكل خاص لم يسبق له مثيل ؛ لخلوه من عصبية تبعثه على التمرد ، لأنه مؤلف من الغلمان الذين كان العثمانيون يأسرونهم فى الحرب وأكثرهم من أصل مسيحى . فكان العثمانيون فى أول دولتهم إذا فتحوا بلداً دخل فى حوزتهم من أهله المأسورين جماعة من غلمان النصارى الذين قتل آباؤهم واصبحوا لا نصير لهم ، ولا مرجع لمآلهم . فارتأى قرة خليل وزير السلطان أورخان ثانى سلاطين آل عثمان (سنة ٧٢٦ - ٧٦١ هـ) أن يربى أولئك الغلمان تربية إسلامية ويدربهم على الفنون الحربية ، ويجعلهم جنداً دائما لا يخشى منه التمرد ، لأنه لا يعرف عصبية غير الدولة ، ولا عملا غير الجندية ،

ولا دينا غير الإسلام ، فجندهم وسار بهم إلى الحاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية بأماسيا ، ليدعو لهم فدعا لهم وسماهم «يكى جرى» أى الجند الجديد .

ولم يكن قره خليل هذا أول من فكر فى تجنيد غلمان النصارى كما يظن أكثر مؤرخى الأتراك ، فإن الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر الذى تقدم ذكره ، فعل ذلك قبل تأسيس الدولة العثمانية وهو متوجه إلى دمشق سنة ٦٦٥ هـ لملاقاة عساكره العائدة من غزوة بلاد سيس ، فنزل بلدا اسمه قارا بين دمشق وحمص ، فأمر بنهب أهلها النصارى وقتل كبارهم لأنهم كانوا يسرقون المسلمين ويبيعونهم سراً للصليبيين وأخذ صبيانهم مماليك رباهم بين الأتراك فى الديار المصرية ، فنشأوا على الإسلام وتجندوا فى الجيش التركى .

على أن قره خليل جعل للإنكشارية شروطا لم يسبق لها مثيل ، فقسّمهم إلى وجاقات واحدها وجاق ، والوجاق يقسم إلى أورط إحداها أورطة ، ولكل أورطة عدد تعرف به ، ولبعضها أسماء خاصة . ويختلف عدد الجند فى كل أورطة حسب الأعصر من ١٠٠ إلى ٥٠٠ ، ويختلف عدد الأورط فى الوجاقات بمقتضى ذلك ، كبر ضباط الوجاق أو قائدها الاكبر يُسمّى «أغا» تحته سكبان ـى ، تحته غيره فغيره على هذه الصورة .

الأغا : قائد الوجاق ويقابل اللواء فى هذه الأيام (١) .

سكبان باشى : ينوب عن الأغا فى الأستانة ويقابل القائمقام اليوم .

قول كخيا أو كخيابك : نائب الأغا أو السكبان باشى .

سمسونجى باشى : قائد أورطة نمرو ٧١ .

زغرجى باشى : قائد الأورطة نمرو ٦٤ .

محضر أغا : ينوب عن الإنكشارية عند الصدر الأعظم .

خصكى : ينوب عن الأغا فى القيادة على الحدود .

باشجاويش : قائد الأورطة الخامسة .

كخيابرى : ينوب عن الوجاق لدى الأغا .

الأفنـدى : الكـــاتب .

ولكل أورطة ضباط يقتسمون قيادتها وإدارة شئونها عل هذه الصورة :

١ - الجوربجى : رئيس الأورطة يشبه الكولونيل .

٢ - أوده باشى : نائب الجوربجى فى المناورات العسكرية.

٣ - وكيل الخرج : يتولى أمر الطعام والشراب .

٤ - بيّراقـــدار : يتولى الأعلام والبيارق .

---

(١) يقصد المؤلف العهد الذى عاشه .

٥ - باش اسكى : يتولى قياده القراقولات .
٦ - اشـجــى : الطاهـر [١] .

قوانين الإنكشارية

قد رأيت أن جند الإنكشارية تجند فى زمن السلطان أورخان ولكن الفضل الأكبر فى تنظيمه وترتيبه يرجع إلى السلطان مراد الأول (تولى سنة ٧٦١ هـ) وهذه خلاصة قوانينهم :

١ - الطاعة العمياء لقوادهم وضباطهم أو من ينوب عنهم.

٢ - تبادل الاتحاد بين الفرق كأنها فرقة واحدة وتكون مساكنها متقاربة .

٣ - التجافى عن كل مالا يليق بالجندى الباسل من الإسراف أو لانغماس ويكون سؤلهم [٢] على البساطة فى كل شىء

٤ - الإخلاص فى الانتماء إلى الحاج بكطاش من حيث الطريقة مع القيام بفروض الإسلام .

٥ - لا يقبل فى سلك الإنكشارية إلا الذين يشبون من غلمان الأسر على التربية الخاصة بين غلمان الأعاجم .

---

(١) فى المخطوط صورة توزيع الشرباء على الإنكشارية .

(٢) هكذا فى الأصل . والمفترض ان الكلمة التى تستقيم مع المعنى هى : ويكون م على البساطة ...

٦ – إن الحكم عليهم بالإعدام ينفذ بشكل خاص .

٧ – يكون الترقى فى المراتب حسب الأقدمية .

٨ – لا يجوز أن يوبخ الإنكشارية ولا يعاقبهم غير ضباطهم.

٩ – إذا عجز احدهم عن العمل يحال على المعاش .

١٠– لا يجوز لهم إرسال لحاهم .

١١– لا يجوز لهم أن يتزوجوا .

١٢– لا يجوز لهم الابتعاد عن ثكناتهم .

١٣– لايجوز لهم أن يتعاطوا عملا غير الجندية .

١٤– يقضون أوقاتهم بالرياضة البدنية والتمرين على الحركات العسكرية .

فإذا تدبرت هذه القوانين هان عليك تصور الأعمال العظيمة التى أتاها هذا الجند فى مصلحة الدولة العثمانية من الفتوح العظام .

وقد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ترفع الناس عن الانتظام فى هذا الجند لأنه مجموع من لقطاء لا يعرف لأحد منهم أب ولا أم، ولكنك تفهم من البند الخامس من قوانينهم أنهم كانوا يحظرون على غير اللقيط أو المملوك الانتظام فى جندهم . وكان السلاطين يشددون فى تعظيم هذا الأمر فى عيونهم .

رواتب الإنكشارية (العلوفة)

الأصل فى ترتيب العلوفة أن تدفع يومياً ، لكنها لم تكن تدفع إلا مرة كل ثلاثة أشهر ، تخفيفاً للثقلة ، فكانوا يؤدونها أربع مرات فى السنة ، وتعرف كل مرة باسم مؤلف فى ثلاثة أحرف مقتطعة من أسماء أوائل شهورها ، فالربع الأول من السنة مؤلف من ثلاثة أشهر محرم وصفر وربيع ، فالأحرف الأولى من هذه الأشهر إذا جمعت من هذا الترتيب كانت «مصر» وعلى هذا النسق كانوا يسمون الربع الثانى رجج ، وقد يقطعون من إسم الشهر غير حرفه الأول مراعاة للفظ ، فالربع الثالث (رجب ، شعبان ، رمضان) يسمونه رشن باقطاع النون من رمضان بدل الراء ، وقس على ذلك . وكانت لهم رسوم فى تفريق العلوفة لا محل لها .

أما مقدار العلوفة فقد كان فى أول إنشاء هذا الجند درهما واحدا عن كل انكشارى فى اليوم ثم ارتفعت إلى ثلاثة دراهم ، وفى ختام سنة ١٠٠٠ صارت العلوفة خمسة دراهم ، وكان للإنكشارية هدايا ينالونها فى الأعياد ، وعند تولية بسلاطين بسمى خشش الجلوس وكان هذا البخشش يعطى لسائر الجند ولكبار لوظفين ، وله مقادير معينة .

ملابس الإنكشارية

وكان المعوّل عند العثمانين فى التفريق بين الرتب وتمييز أصحابها بعضهم عن بعض بأشكال القلانس (القاووق) ، أو الأقبية (القفطان) ، أو الأحزمة (الكمر) أو ألوانها فكان لكل طائفة من رجال الدولة قلنسوة شكلها خاص بهم وكذلك الأقبية والأحزمة وغيرها على اختلاف فى ألوانها وأشكال أزرارها فضلاً عن الأعلام. واختلف المؤرخون فى وصف هذه الألبسة ، واختلفوا فى أسمائها وأشكالها باختلاف العصور ، وفى الرسوم المنشورة هنا مثال منها (١) .

السلطان سليم الفاتح

ولد سنة ٨٥٩ هـ وتولى ٩١٨ هـ وفتح مصر سنة ٩٢٣ هـ وتوفى سنة ٩٢٦ هـ .

هو السلطان التاسع من سلاطين آل [عثمان] (٢) وهو أول خليفة منهم لأن السلاطين قبله لم يكونوا خلفاء وهو أول من بويع بالخلافة كما سيجىء وأصبح السلاطين بعده خلفاء أيضا أى أن كلاً منهم سلطان وخليفة أى له السلطتان السياسية والدينية . وبما أنه هو فاتح مصر حق علينا أن نذكر ترجمته .

---

(١) انظر الصور بملحق الكتاب .

(٢) سقطت كلمة «عثمان» من المؤلف فوضعناها بالشكل المذكور .

هو ابن السلطان بايزيد الثانى وقد تقدم فى ترجمة قنصو الغورى أنه تخاصم مع أخيه كركود وفر هذا إلى مصر واحتمى بسلطانها قنصو . وسبب هذا الخصام أنه كان لبايازيد الثانى (سنة ٨٨٦ هـ - ٩١٨ هـ) ثمانية أولاد ذكور ، توفى منهم خمسة وبقى ثلاثة وهم كركود وأحمد وسليم . وكان كركود يحب العلم ومجالس العلماء ، فمقته الإنكشارية لأنهم أهل حرب لا رزق لهم إلا بها ، وكان أحمد محبوبا لدى أعيان الدولة والأمراء . أما سليم فكان رجل حرب وبطش فأحبه الإنكشارية ونصروه .

ولحظ والدهم اختلافهم فى المشارب والمناقب فخاف تنازعهم ففرق بينهم فعين كركود واليا على إحدى الولايات البعيدة، وولى أحمد على أماسيا وتسليماً على طرابزون وكان لسليم ولد اسمه سليمان (صار بعد ذلك سليمان القانونى) فعينه جده بايازيد واليا على «كافا» (١) من بلاد القرم ، فلم يرض سليم بمنصبه فى طرابزون فتركه وسافر إلى كافا ، وبعث إليه أبيه يطلب إليه أن يعينه على ولاية فى أوربا . فلم يقبل السلطان بايازيد، وأصر على بقائه فى طرابزون ، فجاهر سليم بالعصيان على والده، وزحف بجيش جمعه من قبائل التتر إلى بلاد الروملى ، فبعث والده جيشاً

---

(١) وصحة كتابتها فى لغتها كَفّه . المحقق .

لإرهابه ، فلم يتهيب . فلم ير بايازيد بُداً من مراضاته حقناً للدماء، فعينه والياً على مدينتى سمندريه وودين فى بلاد البلغار سنة ١٥١١ .

فلما علم كركود بنجاح أخيه أحب أن يقتدى به ، فانتقل إلى ولاية صاروخان ، وتولاها بدون أمر أبيه ، ليكون قريبا من القسطنطينية عند الحاجة . وخرج سليم على أدرنة وأعلن نفسه سلطانا عليها ، فجرد والده عليه جنداً لمحاربته ، وجنداً لمحاربة أخيه كركود فى آسيا . ففر سليم إلى بلاد القرم ، وفر كركود أيضا . فأخذ الإنكشارية يناصرون سليماً ، وألجأوا السلطان إلى العفو عنه ، وإعادته إلى ولايته في سمندرية ، فلاقاه الإنكشارية فى أثناء الطريق وحملوه إلى القسطنطينية ، وأدخلوه سراى السلطان باحتفال وطلبوا إلى بايازيد أن يتنازل عن الملك لابنه هذا فأطاع وترك القسطنطينية ليقضى باقى حياته فى ديموتيقا ، فتوفى فى الطريق، ويظن أن ابنه سليمان دس له السم خوفاً منه .

تولى السلطان سليم العرش العثمانى سنة ٩١٨هـ بقوة الإنكشارية فوزع فيهم الجوائز ، وعين ابنه سليمان حاكماً على القسطنطينية وخرج بجيوشه على أخويه وأولاده حتى يهدأ باله ويستقر له الملك بلا منازع . فاقتفى أثر أخيه أحمد إلى أنقرة ، فلم

يقدر عليه هناك ، فذهب إلى «بورصة» فقبض فيها على خمسة من أولاد إخوته ، وأمر بقتلهم . ثم شخص إلى «صاروخان» مقر أخيه «كركود» ففر «كركود» إلى الجبال . وما زال يطارده حتى قبض عليه وقتله وعاد إلى أحمد ، فحاربه ، فانهزم فطارده حتى قتل سنة ٩١٩ هـ .

فاطمأن بال سليم من جهته الداخلية ، إذ استقر له الملك بذهاب منازعيه ، ومال إلى المهادنة . فعد إلى أدرنة وكان فى انتظاره هناك ، سفراء البندقية والمجر وموسكو ومصر . فأبرم معهم عهداً على المهادنة لمدة طويلة ، لأن مطامعه كانت متجهة إلى بلاد الفرس ، لمحاربة الشيعة . وكان الفرس فى عهد الدولة الصفوية . وقد أسسها شاه إسماعيل سنة ٩٠٧ هـ . وفتح شروان واستقر فى تبريز ، فجعلها عاصمة مملكته . ثم فتح العراق وخراسان وما وراءها إلى هراة . فغلب على حكامها التيموريين التتر . فامتدت سلطته من نهر الاكسوس إلى خارج فارس ، أى من افغانستان إلى الفرات ، فخافه العثمانيون ، وهاجت فتوحه مطامعهم وتنبهت الضغائن بين السنة والشيعة . والعثمانيون حماة السنة كما كان الصفويون حماة الشيعة .

وكان إسماعيل شاه ، لما تمرد سليم وأخوه أحمد ، على أبيهما ، أخذ يناصر أحمد فى عصيانه على أبيه ، ثم على أخيه سليم . وكتب من الجهة الأخرى إلى مصر يطلب محالفتها على العثمانيين عند الحاجة . فبلغ ذلك إلى السلطان سليم ، وهو رجل حرب وبطش . فهاجت مطامعه ، ولم يعد يقنع بغير الفتح والتغلب على الدولتين جميعاً . وأمر بالقبض على من كان فى شيعته فى حدود مملكته ، وعددهم نحو ٤٠,٠٠٠ وقتلهم . وأعلن شاه إسماعيل بالحرب وخرج بجيوشه من أدرنة فى ٢٢ محرم سنة ٩٢٠ (١٩ مارس ١٥١٤م) وعددهم ٤٠,٠٠٠ ماش و ٨٠,٠٠٠ راكب . وجرت بينه وبين الشاه إسماعيل فى أثناء مسيره مكاتبات محشوة بالتهديد والوعيد . وجعل السلطان سليم وجهته مدينة تبريز عاصمة الشاه المذكور .

وكانت الجنود الفارسية فى أثناء الطريق تتقهقر أمام العثمانيين خداعاً حتى يتبعوهم ، ثم ينقضون عليهم . حتى إذا وصلوا إلى أرباض تبريز ؛ جرت واقعة انتصرت فيها الجنود العثمانية بقيادة «سنان باشا» . وفر الشاه بمن بقى من جنده وخلف وراءه كثيرين من قواده وأهله فى الأسر وكان من جملة الأسرى إحدى زوجاته ، فزوّجها السلطان سليم من بعض كتابه .

إنتقاما من الشاه ، وفتحت تبريز أبوابها ، فدخلها الفاتح العثمانى ظافرا واستولى على خزائنها وذخائرها وأرسلها إلى القسطنطينية. وفى جملتها عرش مرصع بالماس والياقوت ومطرز باللؤلؤ هو الآن فى جملة ذخائر آل عثمان فى سراى طوب قبو بالآستانة . وقد شاهدتُه ووضعتُه فى مجلة الهلال السنة ١٨ .

وبعد ثمانية أيام اضطر لإخلاء تبريز لقلة المئونة اللازمة لجنده أخذ فى مطاردة الشاة ، ففتح ديار بكر وغيرها . وأراد الإيغال فى بلاد الفرس ، فتوقف الإنكشارية عن ذلك . وقد ملّوا الحرب ، وتعبوا من الأسفار . فعاد إلى أماسيا للاستراحة فى أثناء الشتاء والاستعداد للحرب فى أوائل الربيع .

فلما كان الربيع ، استأنف الحملة ، ففتح بعض البلاد ورجع إلى القسطنطينية ، وخلف بعض قواده ، لإتمام الفتح . وحال وصوله إلى القسطنطينية ؛ حاسب قواد الإنكشارية على توقفهم عن السير فى حملته المشار إليها ، وقتل عددا كبيرا منهم ، وقتل قاضى العسكر جعفر جلبى ، لأنه كان من أكبر المسببين لذلك التمرد . وخاف تمردهم ثانية ، فغير نظام تعيين الرئيس . وكانوا يعينونه من أكبر قوادهم ، فجعل لنفسه الحق فى تعيين ذلك الرئيس .

وأما جنوده فإنها واصلت الحرب ، ففتحت ماردين وأورفه والرقة والموصل ، فتم بذلك فتح ولاية دياربكر ، وخضعت قبائل الأكراد له . ولما تأتّى له ذلك ، فكر فى فتح مصر انتقاما من قنسو الغورى على تحالفه مع الشاه إسماعيل وجرت معركة مرج دابق ، وقتل قنسو الغورى ، كما تقدم ، فحمل على مصر .

كيف كانت مصر
لما جاءها السلطان سليم؟

كانت مصر يومئذ في غاية الإضطراب والتضعضع ، وقد ... ... واستفحل الظلم من عهد الغورى ، لأن هذا ... يتكب مظالم عديدة ، غير قلوب الناس عليه ، وهذه شهادة مؤرخ معاصر له نفس ابن اياس صاحب كتاب بدائع الزهور فقد قال في مساوىء قنصو الغورى ما نصه :

« ... (قنصو) أحدث في أيام دولته من أنواع المظالم ما لم يحدث في ... الملوك من قبله ومنها أن معاملته في الذهب والفضة والفلوس ... أنحس المعاملات جميعها زغل ونحاس ... لا يحل بها بيع ولا معاملة في ملة من الملل . ومنها ما قرره ... في كل شهر ، وهو مبلغ ٢٧٠٠ دينار ، وكانت السوقة ... يختارونه من الأثمان ، ولا يقدر أحد أن يكلمهم. ... كلمهم أحد يقولون علينا مال السلطان فكانت سائر البضائع ... بسبب ذلك وقرر على دار الضرب مالاً له صورة

فى كل شهر فكانوا يضيفون فى الذهب والفضة النحاس والرصاص جهاراً فكان الأشرفى الذهبى إذا صفى يظهر فيه ذهب يساوى إثنى عشر نصفاً . وقد سلم السلطان دار الضرب إلى شخص يسمى جمال الدين ، فلعب بأموال المسلمين وأتلف المعاملة وسبك ذهب السلاطين المتقدمة حتى صار لا يلوح لأحد من الناس منها دينار ولا درهم ، فلما شُنِق جمال الدين قرر فى دار الضرب المعلم «يعقوب اليهودى» فمشى فى طريقة جمال الدين ، وقد استباح أموال المسلمين ، فكان النصف الفضة ينكشف فى ليلته ويصير فى جملة الفلوس الحمر ، فاستمر الغش فى معاملته فى مدد دولته إلى أن مات .

ومنها أنه كان يولى الكشاف ومشائخ العربان على بلاد المقطعين والأوقاف فيأخذ منهم المِثل أمثالاً . فضعف أمر الجند يومئذ وتلاشى حال البلاد الشامية والحلبية . وكان يفرض عليهم الأموال الجزيلة فى كل سنة ، فيأخذونها من الرعية . وزيادة الظلم والعسف فكان كل واحد من الرعية أصحاب الاقطاع والاوقاف يتمنى الرحيل من بلاده إلى غيرها . من عظم الظلم الذى يصيبهم من النواب ، ولا سيما ما حصل لعربان جبل نابلس بسبب المال الذى قرره عليهم لأجل المشاة عند خروج التجريدة فما حصل لأهل

البلاد الشامية بسبب ذلك خير ، وكان حسين نائب جده يأخذ العشر من تجار الهند ، المثل عشرة أمثال . فامتنعت التجار من دخول بندر جده ، وترك أمره إلى الخراب ، وعز وجود الشاشات بمصر . وعز وجود الأصناف التى كانت تجلب من بلاد الإفرنج والارز والأنطاع وخرب البندر ، وكذلك بندر الإسكندرية، وبندر دمياط . فامتنعت تجار الإفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم وكان كل أحد من أراذل الناس ، يتقرب إلى خاطر السلطان بنوع من أنواع المظالم . فقرر على بيع الغلال قدراً معلوما يؤخذ على كل أردب ، ثلاثة أنصاف من البائع ومن المشترى . وكذلك على البطيخ والرمان حتى حرّج على بيع الملح .

وجدد فى أيامه عدة مكوس من هذا النمط .. ولم يفته من أعيان التجار أحد لم يصادره . وصادر أمير المؤمنين المستمسك ـالله يعقوب ، وأخذ منه مالاً له صورة ، ودخل فى جملة ديون ، ـتى أورد ما قرره عليه .

وأما من مات تحت عقوبته بسبب المال ، فمنهم : «القاضى بدر الدين بن مزهر» كاتب السر . ومنهم : «شمس الدين ابن عوض» ، و «معين الدين بن شمس الدين» ، و «علم الدين» كاتب

الخزانة ، وغير ذلك ، جماعة كثيرة من المباشرين والعمال ، ماتوا في سجنه بسبب المال والصادرات .

ومن أفعاله الشنيعة ، ما فعل مع أولاد الناس من خروج أقاطيعهم ، ورزقهم من غير سبب . وإعطاء ذلك إلى مماليكه الجُلبان . ومنها قطع جوامك الضعفاء والأيتام من الرجال والنساء والصغار . وحصل لهم الضرر الشامل ، بسبب ذلك .

ومنها أنه أرسل فكّ الرخام الذى بقاعة ناظر الخاص يوسف ، التى تسمى نصف الدنيا ، ووضع ذلك الرخام فى قاعة البيسرية التى فى القلعة .

ومنها أنه قطع معتاد الناس فى الديوان المقرر من قديم الزمان ، وجدد أخذ الحمايات من المقطعين من قبل أن يزيد النيل وتزرع الأراضى .

ثم تزايد حرصه على جمع الدنيا حتى صار يحاسب السواقين ، الذين فى سواقى القلعة والخولة الذين فى سواقى الميدان فى الجلّة وروث الأبقار ، وما يتحصل كل يوم مما يبيعونه وقرر عليهم مبلغا يؤدونه للذخيرة الشريفة .

وكانت أرباب الوظائف من المباشرين والعمّال منه فى غاية الضيق ، لا يغفل عنهم من المصادرات يوماً واحداً . وكان من حين

توفى الأمير خـاير بك الخازندار يباشر ضـبط الخزانة بنفسه . ما يدخل إليها ، وما يخرج منها ، وما يعرضون عليه من الأمور فى ذلك جميعه ، من الوصـولات ، وما يصرف من الخزائن فى كل يوم .

وكانت هذه الأموال العظيمة ، التى تدخل له ، يصرفها فى عمائر ليس بها نفع للمسلمين ، ويزخرف الحيطان والسقوف بالذهب . وهذا عين الإسراف لبيت مال المسلمين .

وكان يهرب من المحاكمات ، كما يهرب الصغير من الكتب. وما كانت له محاكمة تخرج على وجه مرضٍ ، بل على أمور مستقبحة ، وكان يتغافل عن أمر القتلى ، ويدفعهم إلى الشرع ، ويضيع حقوق الناس عليها .

وكان يكسل عن علامة المراسيم ، فلا يعلّم على المراسيم الا قليلا . فتتعطل أشغال الناس بسبب ذلك . حتى كانت تشترى لعلامة العتيقة بأشرفى حتى تُلصق على المرسوم ، لأجل قضاء الحوائج ، ولو شرحنا مساوئه كلها ، لطال الشرح (١) . انتهى .

---

(١) رجع المؤلف إلى ابن اياس . انظر الطبعة المحققة : ابن إياس «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» تحقيق محمد مصطفى . القاهرة ١٩٨٤م الطبعة الثالثة صفحات ٨٩-٩٢ جـ ٥ .

سلطنة الأشرف طومان باى

تلك حال مصر فى زمن «قنسو الغورى» ثم أفضى عرشها إلى الأشرف طومان باى سنة ٩٢٢ هـ . وكانت سيادة المماليك منتشرة يومئذ على مصر ، وسوريا إلى حدود العراق .

وكانت الخلافة العباسية . قد أفضت إلى المتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب . وكانت مناصب الدولة الكبرى ، التى تقدم ذكرها يشغله الأمراء الآتية اسماؤهم :

الاتابكى سودوه العجمى : أمير السلاح

الأمير أركماس بن طراباى : أمير المجلس

المقر الناصر بن محمد : أمير ياخور (١)

الأمير سودون الدوادار : رأس النوبة

الأمير انسباى بن مصطفى : حاجب الحُجَّاب

فضلاً عن بضعة عشر أميراً من القواد ، وناهيك بالأمراء النواب فى البلاد الشامية والحلبية وهم عديدون .

وقد تقدم أن جند مصر معظمه من المماليك المبتاعين بالمال،

(١) الأصل فيها أمير آخور وهو أمير المزارد الموكل بعلف الدواب . تاريخ الجبرتى جـ٤ ص ١٠٦١ .

فهم إنما يعملون طمعاً بالكسب الشخصى ، وليس لأحد منهم عائلة أو أسرة ، يغار على وطنه من أجلها إلا نادراً (١) .

فلما قتل الغورى فى معركة «مرج دابق» التف أكبر رجاله حول السلطان سليم ، وصاروا من اتباعه ، واخذوا يتقربون إليه بذكر مساوىء مولاهم وأمرائه ويظهرون له معائبهم وقبائحهم ، ولم يذكروا شيئا من إحسان الغورى إليهم . وبعضهم خانه فى حياته، فإن نائب قلعة حلب سلم القلعة للعثمانيين من غير حرب .

أما سائر الجند والأمراء فهربوا إلى مصر . وحال وصولهم طلبوا تعيين «طومان باى» سلطاناً محل عمه «الغورى» ، فامتنع لأنه كان لا يعجبه تصرفهم فى الرعايا على نحو ما تقدم عن أعمال الغورى ، ولم يكن «طومان باى» ممن يرضى بذلك ، فألحوا عليه أن يقبل ذلك المنصب ، فاصطحبهم إلى الشيخ أبى السعود ، وهو من أهل الكرامة ، فأحضر لهم مصحفاً ، وحلف الأمراء الذين حضروا بصحبة طومان باى ، بأنهم إذا سلطنوه ، لا يخونونه ، ولا يغدرون به ، ولا يخامرون عليه . وأنهم يرضون بقوله وفعله . فحلف للجميع على ذلك ثم أن الشيخ حلفهم أن لا يعودوا إلى

(١) مع أن من المعروف أن المماليك أبلوا بلاء حسنا فى الدفاع عن مصر والوقائع التاريخية كثيرة ولم يقصروا فى ذلك .

ما كانوا عليه من ظلم الرعايا ، وأن لا يشوشوا على أحد بغير طريق شرعى ، ولا يجددوا مظلمة ، وأن يبطلوا جميع ما أحدثه الغورى من المظالم ، ويبطلوا ما كانت على الدكاكين من المشاهدة والمجامعة ، وأن يجروا الأمور كما كانت فى أيام الأشرف قايدباى، فحلفوا له وانفض المجلس (١) .

فتولى «طومان باى» سلطنة مصر رغم إرادته وهو يرى ما كانت عليه من الفساد والخلل ، وما استولى على الرعايا من اليأس على أثر مظالم عمه الغورى التى ذكرناها . وكان من بين ما احتج عليهم به ، أن بيت المال ليس فيه درهم ولا دينار . قال : «فإذا تسلطنت من أين أنفق على الجند» وهو يخاف أن لا يطيعه الأمراء فى محاربة العثمانيين ، لكنهم ما زالوا عليه حتى بايعوه كما تقدم ودفعوا له بخلعة السلطنة ، وهى يومئذ الجبة السوداء والعمامة السوداء والسيف البداوى (٢) . ثم قدموا له فرس النوبة بغير كنبوش ولا سرج ذهب ، ولا وجدوا آله فى الزَّرْدخانات. لاقيمة (٣) ولا طيراً ، ولا الغواشى الذهب . ولكنهم أتموا الاحتفال بالبيعة تلك

---

(١) ينقل المؤلف هنا من ابن اياس ص ١٠٣ ، ١٠٤ جـ ٥ .

(٢) يمكن قراءتها أيضا على شكل «بهاوى» .

(٣) يمكن قراءتها فى النص على شكل «قبه» لكنها فى الأصل قبه . انظر رد طومان باى، فى ابن اياس جـ ٥ ص ١٠٥ .

كانت حال المصريين لما جاءهم السلطان سليم لفتح بلادهم .

ولكن «طومان باى» كان حازما عاقلاً ، فلما حكم عليه أن يكون سلطاناً لم ير بداً من الثبات والصبر وأخذ فى رد المظالم وإصلاح الأحوال ، ولكن بعد فوات الفرصة ، على أنه أخذ فى إعداد حملة أخرى لمحاربة العثمانيين .

فتح العثمانيين مصر سنة ٩٢٢ هـ

المعركة الفاصلة بين الجيشين

كان العثمانيون فى سوريا قد توقفوا للاستراحة ، فظن «طومان باى» أن الرمال المتراكمة بين سوريا ومصر ، تحول بين العثمانيين وما يريدون . إلا أن الأمر لم يكن كما ظن ، لأنه لم يكد تم إعداداته حتى أتاه كتاب السلطان سليم إلى القاهرة ، وهذا نصه :

«من السلطان سليم خان بن السلطان بايزيرخان سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان إلخ . إلى طومان باى الشركسى: «الحمد لله . أما بعد .. فقد تمت إرادتنا الشاهانية ، باد إسماعيل شاه الخارجى ، أما قنسو الكافر . الذى حملته تحه على مناوأة الحجاج ، فقد نال جزاءه منا . ولم يبق لدينا إلا نتخلص منك فإنك جار «عدو» ولله سبحانه وتعالى يساعدنا على

معاقبتك ، فإذا أردت اكتساب رحمتنا الشاهانية اخطب لنا، واضرب النقود باسمنا . وتعال إلى أعتابنا واقسم على طاعتنا والإخلاص لنا وإلا ....» .

فلما قرأ طومان باى الكتاب ، وما فى ذيله من التهديد المستتر ، استشاط غيظا . وأصر على المقاومة . وكان عالماً بعجزه، لكنه فضل الموت فى ساحة الحرب على التسليم ، فزاد فى حصون دمياط وغيرها من الحدود السورية ، وجمع ما أمكنه جمعه من الرجال ، وسار لملاقاة العثمانيين حتى أتى الصالحية فعسكر هناك.

أما السلطان سليم ، فسار إلى مرج دابق و وافتتح غزة والعريش والقطيعة ، ثم علم مقر الجيوش المصرية فى الصالحية ، وما هم فيه من العزم على المدافعة بشدة بأس ، فعرج بجيشه تاركاً الصالحية عن يمينه . وسار حتى أتى الخانكاه على بضع ساعات من القاهرة .

فلما بلغ «طومان باى» تقدم العثمانيين إلى هذا القدر ، عاد بجيشه لمهاجمتهم من الوراء . فالتقى الجيشان فى سهل قرب «بركة الحج» يوم الجمعة فى ٢٩ ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ . واقتتلا طويلا ، والمصريون يحاربون ببسالة شديدة . لكنهم لم يكونوا

يعرفون البارود ولا المدافع كما قدمنا ، ولا يعرفون استخدامها ، فكانت الغلبة للعثمانيين . ففر المصريون إلى القاهرة ، وعسكر العثمانيون في الروضة . فجمع إليه «طومان باى» عددا كبيرا من العربان ، بعد أن أرضاهم بالمال ، وهجم على معسكر السلطان هجمة اليأس فلم ينل منهم وطراً . فعاد إلى القاهرة على نية مواجهة الحصار ، فزاد فى حصونها واستحكامها . وحصن القلعة تحصيناً عظيما ، وأقام فى كل شارع وفى كل بيت طابية للدفاع، وحمل السلاح كل من يستطيع حمله للدفاع عن الوطن ولكن رغم هذه الإعدادات ، وما أظهره «طومان» من البسالة والإقدام . وما سعى فيه أمراؤه ، لم تنج القاهرة من أيدى العثمانيين ، فإنهم دخلوها عنوة وأمعنوا فيها قتلاً ونهباً وحرقاً .

لا غرو إذا غلبت المماليك على أمرهم بعد ما علمت من ضطراب أحوالهم وتغير قلوبهم ، وخلو خزائنهم من المال . فالعسكر كيف يحارب بلا مال ؟ فقد كانوا فى الحرب يأتون إلى القلعة للاستيلاء على جامكيتهم فيجيبهم ولاة الأمر «ليس فى هذا اليوم جامكية لأن البلاد خراب والعرب مشتتة فى الطرقات» (١) .

---

(١) ينقل المؤلف هذه العبارة من ابن اياس ص ١٤٦ جـ ٥ ؛ واصلها فى ابن اياس يا أغوات ما فيها اليوم جامكية، البلاد خراب والعرب مفتتة فى الطرقات . نفس المصدر والصفحة .

وكان لهم ستة أشهر لم يقبضوا ، رواتبهم من اللحم ونحوه ، ومن أسباب الكسرة ، أن جند المغاربة الذين كانوا فى مصر ، توقفوا عن المحـــاربة ، وقالوا نحن لا نحـــارب المســلمين ، لا نحـارب إلا الإفرنج .

ومع ذلك فإن «طومان باى» لم يأل جهدا فى ترغيب الجند فى الاتحاد والدفاع عن الوطن وشدد عزيمتهم وسبك مناصل ، وعمل بندق الرصاص ، وأكثر من الرماة .

ولكن الرعب كان سائدا على أهل القاهرة ، وعلى الجند وهؤلاء إنما خرجوا للحرب لأن السلطان كان يجاهد بنفسه ، حتى فى بناء الاستحكامات ، وكان يحمل حجارة بيده لبناء خطوط النار أو حفر الخنادق .

على أن جماعة من رجاله ، انحازوا سراً إلى العثمانيين وأهمهم خايربك صاحب حلب الذى تقدم أنه تآمر على الغورى فكان عونا للعثمانيين ، ودسيسة لهم عند المصريين [1] . وزد على ذلك أن المماليك كانوا فى عصر الانحلال ، والعثمانيون فى أوائل دولتهم ، وقد جاءوا بالمدافع والبارود [2] ، «فطومان باى» جاء

(١) يقصد المماليك .

(٢) كان لدى المماليك مدافع وبارود أيضا فى ذلك الوقت لكن التقدم العلمى العسكرى لدى العثمانيين كان أكثر. انظر : الدكتور محمد حرب ، العثمانيون فى التاريخ والحضارة ص ٤١٩ دمشق ١٩٨٩ م .

متأخرا ، وقد فسدت الأمور ، فلم يستطع اصلاح شيء ، رغم ميـ
الشديد إلى ذلك . وشدة إخلاصه في الدفاع عن الدولة والوطن
وشأنه في ذلك شأن «مروان بن محمد» آخر خلفاء بني أمية فإ
كان حازماً ، شجاعاً ، حسن النية . لكنه جاء متأخرا فلم يمن
سقوط دولة بني أمية ولا منع طومان باى سقوط دولة المماليك .

فلما انهزم المماليك ، وقد غُلبوا على أمرهم ، وتعقبهـ
العثمانيون إلى القاهرة . أخذوا في نهبها .. وقد تعود أهلها ذلا
في زمن المماليك ، إذا اختلفوا بينهم ، فالعثمانيون أخذوا في نهـ
بيوت الكبراء ، ودخلوا الطواحين ، وأخذوا ما فيها من البغا
الاكاديش ، وأخذوا جمال السقايين ، وصاروا ينهبون ما يلو
ـهم من القماش إلى القروب وتوجهوا إلى شون القمح بمصر
وبولاق ، ونهبوا ما فيها من الغلال وقد قال بعض الشعرا
المعاصرين في ذلك :

نبكى على مصر وسكانها ... قد خربت أركانها العامرة
وأصبحت بالذل مقهـورة ... بعد ما كانت هى القاهـرة

وفي سلخ سنة ٩٢٢ هـ ، دخل الخليفة المتوكل القاهرة ،
ـه وزراء السلطان سليم والجم الغفير من العساكر العثمانية (١).

---

(١) انظر هذا النص في ابن اياس ص ١٤٨ جـ ٥ .

ودخل معهم الأمراء خايربك ، وقاضى القضاة الشافعية وغيره ممن كان فى أسر السلطان سليم فى حين مات السلطان الغورى . دخل الخليفة المذكور من باب النصر وقدامة المشاعلية تنادى الناس بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، والأخذ والعطاء . وأن العساكر العثمانية لا يشوشون على أحد من الرعية . وأنه قد أغلق باب الظلم وفتح باب العدل . وأن كل من عنده مملوك شركسى ، ولا يدل عليه ، ثم ظهر عنده يشنق ، وادعوا للملك المظفر سليم شاه بالنصر . فضج الناس بالدعاء ، ولكن لم يلتفت أحد من العثمانية لهذه المناداة . وأخذوا ينهبون بيوت أولاد الناس بحجة أنهم يفتشون عن المماليك الشراكسة . فاستمر النهب فى بيوت الأمراء، وأهل البلدة ثلاثة أيام متوالية ، لا يتركون جمالاً ولا بغالاً ولا قماشاً .

وفى يوم الجمعة ، خطب باسم السلطان سليم على منابر القاهرة ، ومصر القديمة ، وهذا نص الخطبة :

«وانصر اللهم السلطان بن السلطان ، ملك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين ، وسلطان العراقيين ، وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه . اللهم انصره . نصراً عزيزاً ،

وافتح له فتحاً مبينا ، يا مالك الدنيا والآخرة ، يارب العالمين» .(١)

وبالغ العثمانيون فى مطاردة الشراكسة ، حتى كانوا يدورون فى الحارات والأزقة والأسواق . وكل من رأوه من أولاد الناس لابساً زنطاً أحمر وتخفيفه . وهو لباس المماليك . قالوا له أنت شركسى ، وقطعوا رأسه . فلبس الناس العمائم ، حتى أولاد الأمراء والسلاطين ، وابطلوا لبس الزنط والتخافيف فى مصر . على أن ذلك لم يمنع تعديهم ، فكانوا يتهمون الناس أنهم من الشراكسة . ثم يقولون لهم : افتدوا انفسكم بالمال . فيفعلون .

وفى يوم الأثنين ، ثالث المحرم سنة ٩٢٣هـ دخل السلطان سليم القاهرة . وبين يديه الخليفة المتوكل ، والقضاة ، وشق المدينة فى موكب حافل ، وقدامه الجنائب المسومة الكثيرة ، وحوله العساكر المتزاحمة بين مشاة وفرسان ، حتى ضاقت بهم شوارع. وما زال سائرا فى المدينة حتى دخل من باب زويلة . ثم م من تحت الربع ، وتوجه من هناك إلى بولاق ، ونزل فى كر الذى نصبه تحت الرصيف . فلما شق المدينة ، ارتفعت ات بالدعاء فى الناس قاطبة ، وقد وصفه أحد المعاصرين شاهدوه فى ذلك اليوم ، فقال : إنه درى اللون ، حليق

انظر هذا النص فى ابن اياس ص ١٤٨ جـ ٥ .

الذقن، وافر الأنف ، واسع العينين ، قصير القامة ، وعلى رأسه عمامة صغيرة ، وفيه خفة وهرج ، كثيـر التفـت إذا ركب [1] .

أما «طومان باى» ، فإنه ثبت فى تلك الحروب ، ثبات الأبطال ، لكنه اضطر أخيرا للفرار فى ٨ محرم ، فذهب إلى الصعيد ، واتفق مع بعض قبائل العرب هناك ، على الدفاع عن الوطن ، ومصادرة ما يحمل إلى العثمانيين من الغلال ونحوها . فالتف حوله جماعة كبيرة ممن خافه السلطان سليم ، ثم جرت المخابرة بشأن الصلح والأمان ولم يتم شىء .

وأتى «طومان باى» برجاله إلى الجيزة ، فخرج إليهم السلطان سليم ، فحدثت معركة كالتى حدثت ببركة الحاج . وكان الفوز أولاً «لطومان باى» ورجاله .

ثم تكاثر العثمانيون وأكثروا من رمى الرصاص فانكسر المماليك وانهزم «طومان باى» فأمعن السلطان سليم فتكاً فيمن وقع فى أيديه منهم . ذكر «بن أياس» أن العثمانيين ، قطعوا رؤوس المماليك الشراكسة وجماعة من العربان الذين كانوا مع «طومان باى» . فلما تكامل قطع الرؤوس ، أحضروا مراكب نصبوا فيها

(١) يبدو أن هذه الصفات نقلها جرجى زيدان عن ابن اياس الذى سجّل سماها دون رؤية فصفات سليم ليست هكذا .

مدارى من خشب ، وعلقوا عليها تلك الرؤوس وحملتها النواتية على أكتافهم ولاقتهم الطبول والزمور ، وزينوا القاهرة لذلك (١) .

وبعث السلطان سليم يتعقب «طومان باى» حتى تمكن منه بالحية ، فأتوا به مغلولاً إلى ما بين يدى السلطان ، فنظر إليه ، فإذا هو فى حالة الغضب ، وقد علا وجهه القنوط لما حل ببلاده من الذل فتحركت عواطف السلطان سليم ، فأمر أن تحل قيوده ، وبأن يؤذن له بالحضور فى مجتمعات كان يعقدها السلطان سليم للمداولة فى أمر البلاد . فكان يسأله مسائل كثيرة ، تتعلق بأحوال البلاد الاقتصادية والسياسية والإدارية ظلوا على ذلك عشرة أيام . وفى اليوم العاشر ، رأى السلطان سليم أنه لم يعد فى حاجة إلى مشورة «طومان باى» فأمر بشنقه فى ١٩ ربيع أول سنة ٩٢٣ فعلقوه تحت رواق باب زويلة بكلاب من حديد ، كان باقيا هناك إلى عهد غير بعيد (٢) .

وبقتل «طومان باى» انتهت دولة المماليك الشراكسة ، أو البرجية . بعد أن تسلطنوا نحو ١٣٩ سنة وأصبحت مصر ايالة

---

(١) انظر السبب فى قتل طومان باى فى شهاب الدين تكين صاغ، طومان باى ، مادة كتبها لدائرة المعارف الإسلامية التركية، الترجمة التركية الجزء ١٢/٢ ص ٥٤ - ٥٧.

(٢) نقل المؤلف هذا عن ابن اياس فى ص ١٧٢ جـ ٥ .

عثمانية . والسلطان سليم أول من خطب على منابرها من العثمانيين ، ولا تزال عثمانية إلى الآن (١) .

ولكن المراد فى هذا الكتاب التكلم عن تاريخ سيادتها الفعلية عليها سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) إلى الحملة الفرنساوية سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) وهى نحو ٢٩٠ سنة ، كانت الحكومة على ترتيب وضعه السلطان سليم سيأتى ذكره . فأصابها فى أثناء ذلك تعديل اقتضته طبيعة ذلك الحكم ، بحيث يمكننا أن نقسم تلك المدة إلى أربعة أدوار على هذه الصورة :

عدد السنين

الدور الأول : من الفتح العثمانى سنة ٩٢٣ هـ إلى سلطنة أحمد بن محمد ١١١٥ هـ ، وكانت الكفة الراجحة فيه للباشوات الذين كانت ترسلهم الدولة العثمانية من الأستانة لحكومة مصر ، ثم للجند وطول هذه المدة ١٩٢ سنة .

الدور الثانى : من سلطنة أحمد بن محمد إلى سلطنة عبد الحميد الأول سنة ١١٧٧ . وكانت الكفة الراجحة فيه للمماليك .

الدور الثالث : وهو المدة التى استقل بها على بك الكبير

---

(١) سنة تاليف المخطوط سنة ١٩١١ أى قبل فرض الحماية البريطانية على مصر عام ١٩١٤ .

بحكومة مصر ، حتى قُتل وعادت مصر إلى كنف الدولة سنة ١١٨٧ .

الدور الرابع : من رجوع مصر إلى حوزة الدولة العثمانية إلى الحملة الفرنساوية سنة ١٢١٩ .

فلنذكر تاريخ كل دور من هذه الأدوار فنبدأ بالتاريخ السياسى ونلحقه بفذلكة من تاريخ العلم والأدب . وخلاصة تراجم العلماء فى كل دور ، وما خلفوه من الآثار الأدبية فنقول :

الدور الأول من تاريخ مصر العثمانية

من سنة ٩٢٣ - ١١١٥ هـ أو ١٥١٧ - ١٧٠٣ م

١ - سلطنة سليم الأول

من سنة ٩٢٣ - ٩٢٦ هـ أو ١٥١٧ - ١٥٢٠ م

أقام السلطان سليم بمصر بضعة أشهر ، وهو ينظم أحوالها لكن همه كان منصرفاً إلى حمل ما فيها من التحف إلى الأستانة .

ذكروا أنه أمر بفك الرخام الذى كان فى القلعة والعواميد السماقية التى كانت فى الديوان الكبير ، لأنه أراد أن ينشىء مدرسة فى الأستانة ، مثل مدرسة الغورى (١) .

---

(١) هذا قول ابن اياس .

قال ابن اياس «وصار يحيى بن فكار يركب ويأخذ معه جماعة من المرخمين فيهجمون على قاعات الناس ، ويأخذون ما فيها من الرخام السماقى والزرزورى الملون ، فأخربوا عدة قاعات من أوقاف المسلمين ، وبيوت الأمراء . حتى القاعات التى فى بولاق، وقاعات الشهابى أحمد ناظر الجيش بن ناظر الخاص التى على بركة الرطلى وغير ذلك من قاعات المباشرين والتجار ، وأبناء الناس والمدارس التى فيها الكتب النفيسة فنقلوها عندهم ، ووضعوا أيديهم عليها» (١) .

غير ما نهبوه من الأمراء وتحفهم . وبالجملة فقد خرج السلطان سليم من مصر فى شعبان من تلك السنة ، ومعه أحمال من التحف والهدايا . وقد نال أمراً لم يجسر عليه أحد قبله من السلاطين الأتراك ولا غيرهم . نعنى نيل الخلافة الدينية ، فضلا عن السلطة السياسية .

الخلافة والسلطة فى الإسلام

لما كانت الخلافة أهم ما اكتسبه العثمانيون فى مصر ، رأينا أن نأتى على تاريخ هذا المنصب فى التمدن الإسلامى ،

(١) ابن اياس حـ ٥ ص ١٧٩ .

ونسبته إلى السلطة ، يتبين للقارىء أن السلطان سليماً أقدم على أمر لم يقم عليه سواه من السلاطين فنقول :

لا بد للناظر فى أحكام التاريخ على العموم ، وتاريخ الإسلام على الخصوص من أن يرى السلطة المطلقة لا تتأيد بمثل الدين ، فإن الصبغة الدينية تحميها من طمع الطامعين بأن تجعل لملوكها مزية على سائر الناس .

وإذا أريد فصل الدين عن السياسة فلا بد من تقييد الحكومة بالشورى . وهى أفضل الحكومات وأطولها عمراً ، وإلا فإنها تنحل سريعا . ويكفى لانحلالها أن يتولى شئونها ملك قليل التدبير ناقص الاختيار ، فيغتصب ملكه بعض وزرائه أو قواده .

وإذا تدبرت تاريخ الدول الإسلامية ، رأيت للسلطة الدينية تأثيرا كبيرا فى طول بقائها واتساع نطاقها - اعتبر ذلك فى الدول التى نشأت فى أثناء التمدن الإسلامى من الفرس ، والترك ، والكرد ، والشركس ، كالبويهيين والسلاجقة والأيوبيين ، وغيرهم من الدول الفخمة . فإن بين ملوكها جماعة من دهاة الرجال وقهارمة (١) السياسة . ولم تطل أعمارها رغم استقوائها بالخلافة العباسية .

(١) قهارمة هنا جمع قهرمان ، وهى كلمة تركية تعنى : بطل شجاع انظر البدارى اللامعات ص ٤٤٣ .

وانظر إلى الدول العربية التى جمعت بين الخلافة والسلطة كالعباسيين والفاطميين والأمويين فى الأندلس مع ما طرأ عليها من أسباب السقوط ، فقد صبرت وطال جهادها .

وإذا نظرت إلى الدول الأعجمية رأيت أطولها عمراً وأوسعها ملكاً الدولة التى جمعت بين السلطتين . وهى الدولة العثمانية ، وبنو أمية فى الشام . لو لم يتخذوا لقب الخلافة ويقبضوا على أزمة الرئاسة الدينية ما استطاعوا إلى الحكم سبيلاً. فإنهم إنما حكموا الناس وأيدوا سلطتهم بما فى الخلافة من الصبغة الدينية ، ووفقوا إلى أعوان علموا أن العامة لا تحكم بمثل الدين فجعلوا همهم تعظيم الخلافة حتى جعلوها فوق النبوة ، وسموا الخليفة خليفة الله . وقالوا : «خليفة الرجل فى أهله أفضل من رسوله فى حاجته» . والعلماء ينكرون ذلك ، ولا يصدقونه . وأما العامة فكانوا يساقون به إلى الطاعة بالإرهاب رغم ما كان يعتور صحة خلافة بنى أمية من شكوك .

فلما أفضت الخلافة إلى بنى العباس ، وهم من عائلة لنبى، ومن أولى الناس بخلافته . كان المسلمون أطوع لهم مما لبنى أمية، واعتقدوا أن خلافتهم تبقى أبد الدهر حتى يأتى السيد المسيح ، وغرس فى أذهان الناس بتوالى الأجيال أن الخليفة العباسى إذا

قتل اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر وجف النبات .

وكان الخلفاء لا يانفون من ذلك التفخيم مع تعقله وانتشار العلم فى عصره . فقد ذكروا أنه كان يحتمل أن يمدح بما يمدح به الأنبياء ، ولا ينكر ذلك ولا يرده حتى قال فيه بعض الشعراء : «فكأنه بعد الرسول رسول» . فكيف يكون حال الخلفاء فى عصر الانحطاط . إذ يقوم الوهم مقام الحقيقة ، ويكثر المتزلقون والمتملقون ، ويكتفى أولو الأمر بالكلام دون الأعمال وتمسك أهلها بالعَرَض ، وتركوا الجوهر .فلا غرو إذا سموا الخليفة فى أيام المتوكل : ظل الله الممدود بينه وبين خلقه . أو قالوا قول ابن هانى للمعز الفاطمى :

مـا شئـت ولا ما شـاءت الأقـدار

فاحكـم فأنـت الواحـد القهـار .

فلهذا السبب كان الأمراء الذين يستقلون عن الدولة العباسية بالإدارة والسياسة لضعف الخليفة عن حربهم ، لا يستطيعون الاستقلال عنه بالدين ، إذ لا يستغنون عن بيعته لتثبيت سلطانهم . فإذا أراد أحدهم الاستقلال بولاية أو فتح بلد أو إنشاء

إمارة لنفسه ، بعث إلى الخليفة فى بغداد يبايعه ، ويطلب منه أن يعطيه تقليدا أو عهدا بولاية ذلك البلد . أو أن يلقبه ويخلع عليه . وإذا أبى الخليفة أن يجيبه غضب ، وعد ذلك تحقيراً له . وقد يجرد عليه الجند ليكرهه على تثبيته .

فالإمارات أو الممالك التى استقلت عن الدولة العباسية فى فارس وخراســان وتركستان ، وما بين النهرين والشام ومصر وبلاد المغرب وغيرها قبل قيام الدولة الفاطمية كانوا أصــحابها يخطبون لخليفة بغداد ويبعــثون إليه بمال معين فى العام مع أنهم فى أمن من سطوته ، وإنما يريدون أن يرضى العامة عن سلطانهم .

وكذلك كان شـــأن الأجنـاد الأتراك وأمرائهم فقــد كانوا مع اســتبدادهم بخلفاء بغداد قتلا وخلعا لا يجســرون على اســتبقاء منصب الخلافة خالياً يوماً واحـــداً لاعتقادهم أنه بدون الخليفة لا تصـــطلح العامة ، حتى الملوك أو السلاطين الذين تســـلطنوا على بغداد وقبضوا على كل شىء فيها . وأصـــبح الخليفة آلة فى أيديهم مثل آل بويه ، وآل ســلجوق . فقــد كانوا يحاربون الخليـفة ويجــردون عليه الجيوش ، حتى

إذا ظفـــروا به ، وغلبوه ، بايعوه ، وأكرموه ورفعوا مقـــامه وتبركوا به .

فعضد الدولة البويهى ملّك بغداد واستبد بها وهو شيعى على غير مذهب الخليفة ، وكان يغالى فى التشييع ويعتقد أن العباسيين غصبوا الخلافة من مستحقيها . فلم يكن ثمة باعث دينى يدعوه إلى طاعة خليفة بغداد . ومع ذلك فإنه بايعه ، وعظم شأنه ، وأعاد من أمر الخلافة ما قد نُسى ، وأمر بعمارة دار الخلافة ، والإكثار من الآلات ، وعمارة ما يتعلق بالخليفة وبطانته ، وأكرمه غاية الإكرام .

وكان الخلفاء من الجهة الأخرى يعرفون حاجة الأمراء المسلمين إلى رضاهم . فإذا ساءهم أحد منهم ، هددوه بالخروج ن بغداد. فيضطر إلى استرضائهم ؛ لأن خروجهم بغضب العامة، يجرئهم على خلع الطاعة لتقديسهم شخص الخليفة وتنزيهه عن الخطأ .

ولذلك فلم يكن من سبيل إلى نزع سلطته أو الاعتراض عليها إلا من وجه دينى . فكان الذين يقومون على الخلفاء ، يجعلون سلاحهم الدين ، فيلبسون الصوف ، ويدعون إلى المعروف أو يعلقون فى أعناقهم المصاحف أو نحو ذلك مما يحـرك عواطـف

العامة وإذا اراد أحد الخلفاء أن يصلح ما بينه وبين العامة أصلحه بالتقوى . فلما ضمن «الفضل بن سهل» الخلافة للمأمون أوصاه بإظهار الورع والدين ليستميل القواد .

ولما رأى «أبو مسلم الخرسانى» أهل اليمن فى مكة قال : «أى جند هؤلاء لو لقيهم رجل ظريف اللسان ، غزير الدمعة» يريد تحريك عواطفهم الدينية بالوعظ والبكاء . فلم يكن للمماليك الإسلامية بدٌ من خليفة تبايعه ليثبت ملكها .

وقد يستاء بعض الأمراء المستقلين من خليفة بغداد فيكظم ولا يخلع بيعته ، إلا إذا رأى خليفة آخر يبايعه . فلما قامت الدولة الفاطمية بالمغرب ومصر ، خلعت كثير من البلاد بيعة خليفة بغداد، وبايعت للفاطميين فى القاهرة . ولما تغلب صلاح الدين الأيوبى على مصر ، وذهبت الدولة الفاطمية منها . فأول شىء فعله أنه خطب بجامع القاهرة للخليفة العباسى فى بغداد . وطلب المنشور منه والخلع عليه .

وكانت الخلافة العباسية بغاية الانحطاط والضعف وهو فى غنى عن بيعتها . ولكنه علم أنه إذا لم يبايع الخليفة فلا يرضى الناس .

وكذلك فعل السلاطين المماليك ، الذين ملكوا مصر بعد الدولة الأيوبية ، فإنهم بايعوا للعباسيين . وكانت الخلع تأتيهم من بغداد إلى القاهرة بتثبيت سلطتهم . فلما سطا التتر على بغداد وفتحوها سنة ٦٥٦ هـ ، وقتلوا الخليفة العباسى المستعصم بالله ، توقف شـأن الخلافة ، فاضطربت أحوال مصر . وبذل سلاطينها جهدهم فى إيجاد خليفة يبايعونه ولو أعوز خليفـة ولم يجدوه ربما اختلقوا واحداً ليحكموا العامة به ، على أنهم ما زالوا يبحثون عن بقية الخلفاء العباسيين الذين كانوا فى بغداد حتى ظفروا بالهاربين منهم فاستقدموهم إلى القاهرة ، واحتفلوا بهم احتفالاً عظيماً ، وفرضوا لهم الرواتب كما تقدم ، وبالغوا فى احترامهم وإكرامهم مع علمهم أن أولئك الخلفاء لا يغنون عنهم شيئاً .

ولكنهم خافوا اختلال دولتهم بدونهم . وظل ملوك الهند وغيرهم من ملوك الإسلام بالأطراف البعيدة ، يبايعون للخليفة العباسى فى القاهرة . ويطلبون التقليد [1] منه أو المنشور لإثبات سلطتهم على يد السلاطين المماليك ، فما الذى بعث لأولئك الملوك

---

(١) التقليد معناه : تقليد الولاة الأعمال . انظر القاموس المحيط جـ ٢ سنة ١٩٨٧ بيروت ص ٢٩٩ / ١ .

على طلب التقليد ، من خليفة طريد شريد لا ينفع ولا يشفع لولا ما يتوقعونه من أثر ذلك في أذهان العامة .

ولا ننكر أن بعضهم كان يطلب بيعة الخليفة تديناً ولكن الأكثرين كانوا يطلبونها لاستصلاح العامة بها .

الخلافة في غير قريش

مما يستحق النظر والاعتبار فيما نحن فيه ، أن ملوك المسلمين غير العرب على اختلاف مواطنهم وأجناسهم ولغاتهم ودولهم من الفرس ، والأتراك ، والأكراد ، والبربر ، والشركس وغيرهم ، مع ما بلغوا إليه من سعة الملك وعز السلطان ومع حاجاتهم إلى السيادة الدينية لتستقيم دولتهم ، وتجتمع الرعية على طاعتهم ، ولم يخطر لأحد منهم أن يطلب الخلافة لنفسه ، قبل انتقال الإسلام إلى طوره الثاني بعد تضعضعه بفتوح المغول . ولا ادعاها أحد من العرب غير قريش . وأول سلطان غير عربي بويع بالخلافة ، السلطان سليم الذي نحن في صدده ولا تزال الخلافة في دولته إلى الآن (١) .

على أن الذين قويت شوكتهم في عهد ذلك التمدن من الأمراء المسلمين أو القواد غير العرب ، كانوا إذا طمعوا بالسيادة

(١) ألف جرجي زيدان مصنفه هذا عام ١٩١١ م .

الدينية أو الخلافة ، انتحلوا لأنفسهم نسباً فى قريش (١) كما فعل «أبو مسلم الخرسانى» لما رأى من نفسه القوة على إنشاء الدولة . وربما طمع بالخلافة ، وانتحل لنفسه نسباً فى بنى العباس فقال : انه ابن سليط بن عبد الله بن عباس .

وأما الملوك أو السلاطين الأعاجم ، فلما ضخمت دولتهم فى أواخر العصر العباسى ، ورأوا انحطاط الخلافة وتقهقرها تمنوا الاستغناء عنها ، ولكنهم لم يروا سبيلا إلى ذلك ، إلا أن يستبدلوها بخلافة أخرى . على أن بعضهم طمع بالنفوذ الدينى عن طريق الانتساب إلى الخليفة بالمصاهرة .

وأول من فعل ذلك ، عضد الدولة «بن بويه» المتوفى سنة ٣٧٢ هـ . فإنه حمل الطائع بالله الخليفة العباسى فى أيامه أن

---

(١) حدد الفقهاء شروط الخلافة وتنصيب الإمام بأربعة شروط هى : العدل والكفاية لعلم وسلامة الحواس واختلفوا على شرط خامس وهو النسب القرشى . إلا ان ابن لدون يقرر ان الهدف والمقصود من هذا الشرط ليس النسب القرشى فى حد ذاته ، بل ان ابن خلدون يرشدنا إلى فائدة هذا الشرط والمقصود منه إنما هو العصبية فيقول «... إذ الفائدة فى النسب إنما هى العصبية ... وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية هى وجود العصبية فاشترطنا فى القائم بامور المسلمين ان يكون من قوم أولى عصبية غالبة على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية» مقدمة ابن خلدون : المطبعة البهية ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

يتزوج بابنته ، وغرضه من ذلك ، أن تلد له ابنه ولداً ذكراً فيجعله ولى عهده . فتكون الخلافة فى ولد لهم فيه نسب ولم يوفق إلى مراده .

ولما أفضت السلطة إلى السلاجقة ، تقدموا فى هذا الطريق خطوة أخرى ، فعمدوا إلى التقرب بالمصاهرة أيضا . ولكن على أن يتزوج السلطان «طغرلبك السلجوقى» ابنه الخليفة ، وهو يومئذ القائم بأمر الله فخطبها إليه ، ووسّط قاضى الرى فى ذلك ، فانزعج الخليفة لهذا الطلب أيّما انزعاج . إذ لم يسبق أن يتزوج بنات الخلفاء إلاّ اكفاءهم بالنسب . وكانت يد السلطان قوية والخليفة لا شىء فى يده ، فأخذ الخليفة فى استعطافه ليعفيه من الإجابة على طلبه ، فأبى السلطان إلا أن يجاب .

وحدثت أمور يطول شرحها خيف منها على الدولة فاضطر الخليفة إلى القبول . فعقد له عليها سنة ٤٥٤ هـ . وهذا ما لم يجر مثله قبله ، لأن آل بويه لم يطمعوا بذلك ولا تجاسروا على طلبه مع مخالفتهم للخليفة فى المذهب ، إذ يكفى الخليفة تنازلاً أن يتزوج بنات الملوك ، لا أن يزوجهم بناته ، ولم ينل هذا الشرف أحد قبل طغرلبك . ومع ذلك فإنه لما دخل إلى عروسه فى السنة التالية ، قبّل

الأرض بين يديها وهى جالسة على سرير ملبس بالذهب . فلم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له وظل أياماً يحضر على هذا الصورة وينصرف ، على أنه لم يوفق لإتمام ما أراده لأنه توفى فى تلك السنة .

أما المبايعة بالخلافة لغير العرب فلم تنلها دولة إسلامية قبل العثمانيين ، وذلك أن الخليفة العباسى كان عند الفتح العثمانى لمصر ، الإمام محمد المتوكل على الله الثالث ، وقد تقدم ذكره مراراً ، وهو الخليفة الثامن عشر من الدولة العباسية بمصر . فلما تم فتح مصر للسلطان سليم ، على أن الأمر لا يستتب له ، إلا إذا اضاف السلطة الدينية إلى السلطة الزمنية ، فاغتنم فوزه وطلب إلى المتوكل على الله ، أن يبايعه فبايعه بالخلافة الإسلامية وسلمه الآثار النبوية ، وهى : العلم والسيف والبردة . وسلم إليه أيضا مفاتيح الحرمين ، فصار خليفة وسلطانا . وتوارث ذلك السلاطين بعده ، ولا يزالون على ذلك إلى الآن .

أما الخليفة العباسى ، فإنه نُقل إلى الأستانة وخُصص له راتب لنفقاته . وقبل وفاة السلطان سليم عاد المتوكل إلى مصر وعاش فيها منفرداً إلى أن توفاه الله سنة ٩٤٥ هـ وهو آخر الخلفاء العباسيين وقد دولتهم الدينية ، نيفا وثمانية قرون

نظام الحكومة المصرية

فى الدولة العثمانية

قد رأيت من إجراءات العثمانيين بمصر عند الفتح أنهم لم ينظروا إليها نظرهم إلى بلد سيقيمون فيه وإنما أرادوا إخضاعه وإذلاله واستغلاله (١) . فلما رجع السلطان سليم إلى عاصمته القسطنطينية ، فكر فى أمر مصر فارتأى أن يضع لها نظاماً يأمن معه تمردها عليه ، لبعدها عن مركز الخلافة ، وصعوبة المواصلات فى ذلك العصر .

وكان قد ولى عليها والياً برتبة باشا يرجع إليه الحل والعقد وأول من نال هذا المنصب أمر أهله من كبار رجال قنسو الغورى إسمه خايربك «أو خيربك» قد تقدم ذكره ، وحارب معه فى حلب ثم خانه وسلم البلد إلى العثمانيين . فلما فتح الله على هؤلاء مصر ، ولاه السلطان سليم ولايتها ، وسماه باشا .

على أنه تذكر أن هذا الرجل خان سلطانه من قبل فخاف أن يفعل ذلك معه ، إذا بعد عنه ، ويستقل بمصر فاعمل فكرته فيما يكفيه مئونة هذا الخطر ، فاهتدى إلى طريقة تضمن له ذلك

(١) هذه نظرة المؤلف إلى مفهوم الحكم العثمانى .

وهى ، أن يجعل فى مصر ثلاث إدارات أو قوات ، كل منها تراقب أعمال الآخرين فلا يخشى اتحادها وتمردها .

فالقوة الأولى :«الباشا» وأهم واجباته إبلاغ الأوامر السلطانية لرجال الحكومة وللشعب ، ومراقبة تنفيذها .

والقوة الثانية : «الواجاقات» فإنه أقام فى القاهرة ، وفى المراكز الرئيسية فى القطر ستة آلاف فارس ، وستة آلاف ماش بالبنادق ، جعلها ستة وجاقات (فرق) تحت قيادة وأوامر خير الدين أحد قواد العثمانيين العظماء وأمره أن يقيم فى القلعة ولا يخرج منها لأى سبب كان .

وواجبات هذه الوجاقات حفظ النظام فى القطر المصرى الدفاع عنه ، وجباية الخراج . وقد رتبها على الوجه التالى :

١ – وجاق المتفرقة : وهو مؤلف من نخبة الحرس سلطانى .

٢ – وجاق الجاويشية : وهو مؤلف فى الأصل من صف ضابطان (١) جيش السلطان سليم ، فعهد إليهم جباية الخراج .

٣ – وجاق الهجانة .

) ضابطان هنا جمع كلمة ضابط وتعنى ضباط ، وهى صيغة جمع تركية على يقة الفارسية .

٤ – وجاق التفقجية ، وهم ناقلو البنادق .

٥ – وجاق الإنكشارية ، وقد تقدم تاريخهم ووصفهم .

٦ – وجاق العزب .

وكان كل من هذه الوجاقات مؤلفاً من أفراد يقال لهم وجاقلية وأحدهم وجاقلى . على كل وجاق ضابط يلقب بلآى يصحبه الكخيا والباشى اختيار ، والدفتردار ، والخزنة دار . والروزنامجى . ومن اجتماع هؤلاء الضباط فى سائر الوجاقات يتألف مجلس شورى الباشا فلا يقضى أمراً إلا بمصادقتهم .

أما هم فلهم أن يوقفوه عن الإجراء أو يستأنفوا إلي ديوان الأستانة عند الاقتضاء . ولهم أيضا أن يطلبوا عزله حالما يشتبهون بمقاصده (١) .

أما القوة الثالثة : فهى الأمراء المماليك ، وهم بقايا الدولتين السالفتين ، والفائدة منهم حفظ الموازنة بين الباشا والوجاقات

(١) تألفت الحماية العثمانية فى مصر من سبعة أوجاقات ، بعد أن أضيف إليها اوجاق المتفرقة الذى لم يتكون إلا بعد حوالى ثلاثين عاماً من إصدار قانون نامة وبقية الاوجاقات الستة هى : الإنكشارية – العزبان – التفنكجان – الكوكليان – الجراكسة – الجاويشية إضافة المتفرقة .. انظر إلى الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى د . ليلى عبد اللطيف .

لأنهم فى الأصل أعداء لكلا الفريقين . ومن غرضهم الانتصار للفريق الأضعف ليمنعوا القوىّ من الاستبداد .

وقد كان القطر المصرى منقسماً إلى ١٢ سنجقية (مديرية) يحكم كل منها حاكم يقال له : سنجق أو بك يعينه الديوان وهو مجلس شورى الباشا من أمراء المماليك .

فلا غرو أن تقاطع المصالح على هذه الصورة واختلاطها مع تعدد الأمرين ، ما يقود إلى القلاقل والمتاعب . أما الدولة العثمانية فقد جبت راحة من هذا التعب لأنها كانت على ثقة من استبقاء الديار المصرية فى حوزتها .

ولم تطل حياة السلطان «سليم» بعد فتح مصر ، فتوفى سنة ٩٢٦ هـ (١٥٢٠ م) ، وخلفه ابنه السلطان «سليمان القانونى» لشهير .

٢ - سلطنة «سليمان القانونى»

من سنة ٩٢٦ - ٩٧٢ هـ أو من ١٥٢٠ - ١٥٦٦ م

لهذا السلطان شأن خاص دون سائر سلاطين آل عثمان ، لأن المملكة العثمانية بلغت فى أيامه أرقى ماوصلت إليه من النفوذ ، سياسى وسعة الفتح .

فقد فتح «بلغراد» و «رودس» ، وحاصر «فيينا» حتى كاد يفتحها . وكانت له علاقات عظيمة مع ملك «فرنسا» .

وفى أيامه ، دخل العثمانيون «تبريز» غير مرة وقد طالت سلطة هذا السلطان أكثر من سائر السلاطين العثمانيين وبلغت الدولة العثمانية فى أيامه ، أوج مجدها (١) .

وقد عرف «بالقانونى» لأنه سن قانونا لا يزال أساساً للقوانين العثمانية إلى الآن (٢) . واهتم على الخصوص بشئون مصر . وكان أبوه قبيل وفاته قد رسم الخطة التى يجب أن تسير عليها مصر فى حكومتها وإدارتها ، ولكنه توفى قبل أن يبرزها إلى حيزّ الفعل . فلما توفى السلطان ، جعل اهتمامه إتمام مشروع أبيه (٣) .

---

(١) عرف السلطان سليمان بالقانونى ، لازدياد حركة الفتوح الإسلامية فى عهده وبالتالى ازدياد حركة التقنين .

(٢) الصحيح ان إدارة مصر قد رسمت بمقتضى قانون نامة مصر . وتم العمل به . إلا ان ثورة أحمد باشا الخائن فى مصر ، جعلت الدولة العثمانية تعيد النظر فى قانون نامة مصر ، وتعدله وترجع به إلى قانون قايتباى لاتخاذه أساساً للتعديل المحقق .

(٣) فى المخطوط صورة للسلطان سليمان القانونى ش (٦) انظر آخر الكتاب .

نظام الحكومة المصرية أيضا

وكان من رأى السلطان «سليم» أن ينشىء ديواناً تحت رئاسة الباشا ، حفظاً للموازنة . أما السلطان «سليمان» فأتمّ الموازنة بإنشاء ديوانين ، عرفا «بالديوان الكبير» و «الديوان الصغير» أو «الديوان» فقط . وأناط رئاستهما بالباشا وعليه أن يجلس عند انعقاد الجلسة وراء ستار المنبر وعلى الكخيا ، والدفتردار استئذانه قبل المفاوضة ومتى أقر الديوان على أمر ، أبلغاه ذلك القرار وليس له إلا المصادقة والأمر والتنفيذ . وجعل إقامة هذا الباشا في القلعة تحت ملاحظة الأغا الذى هو قومندانها ، ويجدد تعيين الباشا كل سنة .

أما واجبات الديوان الكبير فهى المفاوضة والإقرار على ما لق بالأشغال العمومية التى لا تتعلق إدارتها بالباب العالى سه .

أما أعضاء هذا الديوان ، فهم أغوات الوجاقات الستة دفترداريها ، وروزنامجيوها ، ونواب من جميع فرق الجيوش ، ير الحج ، وقاضى وأعيان المشايخ ، والأشراف ، والمفتون عة والأئمة الأربعة والعلماء .

أما المخاطبات التى ترد إلى هذا الديوان فتُعَنْوَن باسم

ان الكبير» ، لكنها تسلم إلى الباشا ، وله وحده الحق أن
بعقد جلساته ، ولم تكن كثيرة .

أما جلسات الديوان الأصغر ، فكانت تنعقد يومياً فى
ه . وأعضاء هذا الديوان ، هم كخيا الباشا ، ورفتردارة
نامجيه ، ونائب من كل الوجاقات والأغا وكبار ضباط وجاق
قة .

ومن واجبات هذا الديوان ، النظر فى الحوادث اليومية ومن
صاصاته البحث فى الإدارات الثانوية .

وانشأ السلطان «سليمان» فضلاً عن الستة الواجاقات
انشأها أبوه ، وجاقاً سابعاً دعاه وجاق الشراكسة وهم بقية
. المماليك . ومن هذه الوجاقات السبعة تتألف حكومة مصر
اميتها .

أما نفقاتها ، فمن مخصصات يتولى ضبطها وتفرية
ندى» من كل وجاق . وجعل لكل وجاق مجلساً مؤلفاً من ضب
ى الوجاق ، وبعض صف ضابطانه لمحاسبة الأفندى ، والنظ
الدعاوى بخصوصية ، وعرض الترقيات للباشا للمصادقة عليها
قامهم فى القاهرة ، ولكل منهم لباس خاص برتبته وعليه
لاماته. ومجموع عدد رجال الوجاقات معاً عشرون ألفاً وقد يزيد

أو ينقص حسب الاقتضاء . وكان لوجاق الإنكشارية إمتيازات على سائر الوجاقات ، وقائده (الأغا) مفضل على سائر القواد وله نفوذ عليهم .

وجعل السلطان «سليمان» للبكوات المماليك الذين أقامهم السلطان «سليم» إمتيازات خصوصية ، وحقاً بالارتقاء إلى رتبة الباشوية وأضاف إليهم ١٢ بيكاً (١) آخرين لمهمات فوق العادة ، وهاك أسماء الموظفين الذين ينتخبون من البكوات وهم : الكخيا أو نائب الباشا والقبابطين الثلاثة ، وهم قومندانات ثغور السويس ودمياط ، والإسكندرية ، ويسمى واحدهم قبطان بك ، وبدفتردار ، وأمير الحج ، وأمير الخزانة ، وحكمداريو أو مديريو المديريات الخمس ، الآتى ذكرها : جرجا ، والبحيرة ، والمنوفية ، والغربية ، شرقية . ولم يكن لغير الكخيا والدفتردار ، وأمير الحج ، الحق دخول الديوان ، فالدفتردار كان عليه ضبط الحسابات ، وحفظ دفاتر والسجلات ، ولا ينفذ إلاّ ببيع عقار إلا بعد توقيعه عليه إشارة إلى تسجيله فى دفاتره . وأمير الحج يحمل الهدايا الصدقات التى كان يرسلها السلطان سنوياً إلى مكة أو المدينة ، ليه حماية قافلة الحج ذهاباً وإياباً .

---

(١) بيكا أو بيك هى بك بمعنى الأمير . المحقق .

وأما أمير الخزانة ، فيحمل القسم المختص بالقسطنطينية من حاصلات مصر براً وعليه حمايته . وينتخب من البكوات أيضاً «شيخ البلد» وسنعود إليه ويكون له شأن عظيم .

وكانت مديريات القليوبية ، والمنصورة ، والجيزة ، والفيوم في عهدة كُشاف لا فرق بينهم وبين البكوات في النفوذ ، ولا يعمل بإقرار أحدهم إلا بعد مصادقة الشوربجية وغيرهم من الوجاقيين الذين يتألف منهم ديوان خاص في كل مديرية . ثم أن تعيين كخيا الباشا وقباطين السويس ودمياط والإسكندرية متعلق رأساً بجلالة السلطان ، فيرسلونهم من الأستانة ويستدعونهم إليها في آخر كل سنة .

أما البكوات الآخرون ، فيعينهم الديوان ، ويوليهم الباشا ، ويثبتهم الباب العالي ، ومراكزهم ثابتة إلا أن واجباتهم تتغير ، إلا الدفتردار ، وقد ينتخب البكوات من وجاق المتفرقة ومتى انتخبوا لا يعودون تابعين لذلك الوجاق .

وكان هم الباب العالي الانتباه إلى السويس ودمياط والإسكندرية على الخصوص ، لأنها الأبواب التي يدخل منها إلى مصر . فكان يرسل حاميتها رأساً من الأستانة تحت قيادة القباطين ، ويجددها كل سنة . وهؤلاء القباطين لم يكونوا يحسبون

من جند مصر إلا باعتبار إقامتهم فيها وبما ينالونه من الإمدادات المالية لنفقاتهم .

أما ما خلا ذلك ، فكانوا يحسبون أجانب فى اعتبار الباشا وديوان مصر ، ولم يكونوا تحت أوامر حكومة البلاد فى شىء ، فأوامرهم كانت ترد إليهم من ديوان الأستانة رأساً .

حاصلات البلاد

هذا من قبيل الإدارة ، أما من قبيل حاصلات البلاد ، فإن السلطان «سليمان» انه المالك الحر لأرض مصر ، فكانت له ملكاً ، وكان يفرقها إقطاعات على مزارعين ان يدعوهم الملتزمين ، على أنه لم يكن أن يمنع اقطاعها أو يوقفه . فلم يكن بالحقيقة فرق بين ذه الإقطاعات والملك الحقيقى والفلاحون الذين كانوا يحرثون لأرض كانوا يتمتعون بنصيبهم منها ويورثونها لأعقابهم ، ولكنهم مجبورين على العمل فيها بدون حق التصرف بها ، وعليهم خراج لا مناص من دفعه للملتزمين متى توفى فلاح بلا وريث ، تعطى نسه للملتزم ، وهو يتعهد بحراثتها من يشاء ، وإذا مات الملتـزم وريث تعود الأرض إلى السلطان ، وكان على كل من الملتزمين

والفلاحين خراج يدفعونه إما نقداً أو عيناً ، فإذا تأخر الملزم ، تؤخذ الأرض منه .

ونظرا لاتساع أرض مصر لم يكن حصر أملاك كل من الملتزمين . فلم يكن ممكنا تعيين مقدار خراجها ، فأرسل السلطان «سليمان» مساحين مسحوا الأرضين المصريين . فقسموا المديريات إلى أقسام دعوها بالقراريط ومسحوا كلاً منها على حدِه، وحدّدوه.

ولاة مصر فى زمن السلطان «سليمان»

قلنا إن السلطان «سليم» ولى حكومة مصر «خيربك» الذى كان «الغورى» و «طومان باى» فى تسليم حلب . فتوفى «خيربك» سنة ٩٢٨ هـ ، ودفن فى جامعه المعروف باسمه فى شارع «درب الوزير» وبعد وفاته ، لهجت الألسنة بذمة لعظم استبداده .

وولى السلطان «سليمان مكانه» مصطفى باشا وبعد تسعة أشهر و٢٥ يوماً أبدل «بأحمد باشا» ، وكان عدواً للصدر الأعظم «إبراهيم باشا» فدس الصدر سنة ٩٣٠ هـ إلى أمراء المماليك فى القاهرة أن يقتلوه ، فعلم بالدسيسة ، فقبض على الكتب الواردة بذلك قبل أن تصل إلى أصحابها ، ثم استدعاهم وأعلنهم انها

أوامر جلالة السلطان بقتلهم ، ولم يطلعهم عليها ، فأبوا الإذعان ، إلا أن إباءهم لم يمنع قتلهم .

ولما تأكد «أحمد باشا» أنه صار فى مأمن من المقاومين ، صرح باستقلاله ، وأمر أن يُخطب له ، وأن تضرب النقود باسمه ، وهو أول من طمع باستقلال من ولاة مصر فى عهد الدولة العثمانية، ولكنه بالغ بالعسف ، فاختلس ممتلكات البعض وحبس البعض ، فثارت الأفكار عليه حتى أصبحت حياته فى خطر .

وبينما هو ذات يوم فى الحمام ، فاجاه أميران من أمرائه كان قد أمر بسجنهما وهم ، «جهم الحمزاوى» و «محمد بك» فكسرا باب السجن وخرجا رافعين العلم الشاهانى ، يستنصران الناس حتى أتيا الحمام ، فعلم الباشا بذلك ، ففر من السطح ، لتجأ إلى أحد مشائخ عربان الشرقية وإسمه «ابن بقر»، فتعقبه داؤه حتى أدركوه وقطعوا رأسه على باب زويلة ثم نقل إلى الأستانة سنة ٩٣١ هـ .

فأرسل السلطان عوضا عنه «قاسم باشا» ، وفى نيته تقصير مدة هؤلاء الولاة لئلا يثور فى خواطرهم حب الاستقلال . بعد تسعة أشهر و١٤ يوماً استبدله بإبراهيم باشاً وكان نشيطا ،

محبا للإصلاح والنظام إلا أن قصر مدته لم تمكنه من إتمام ما كان شارعا فيه . فعُزل وأُقيم بدلاً منه «سليمان باشا» سنة ٩٣٣ ، وكان السلطان راضياً عن سُمُنّيَه هذا ، فأبقاه فى الولاية تسع سنوات و ١١ شهرا .

وفى سنة ٩٤١ هـ ، استقدمه إلى الأستانة ، ليسلمه قيادة حملة أعدها لمحاربة الفرس والهند . وقد أقام فى أثناء حكمه بنايات كثيرة من جملتها جامع سارية فى القلعة . وناب عنه فى غيابه «خسرو باشا» نحو سنة وعشرة أشهر فعاد «سليمان باشا» إلى مصر ، وبقى عليها بعد ذلك نحو سنة وخمسة أشهر .

وفى سنة ٩٤٥ هـ ، عهدت باشوية مصر إلى «داود باشا» فبقى عليها ١١ سنة و ٨ أشهر . وكان رجلا مستقيما ، كريم الخلق ، محباً للعلماء ، آخذاً بناصرهم ، كلفاً بالمطالعة ، وعلى نوع خاص ، مطالعة الكتب العربية ، فجمع منها عدداً وافراً واستنسخ كل ما ظفر به من الكتب غير المطبوعة ، فجمع مكتبة جميلة جداً .

وكان الأهلون فى مدة حكمه فى بحبوحة السعادة والأمن . وتوفى فى القاهرة سنة ٩٥٦ هـ ، فتولى مكانه «على باشا» وهذا

رمّم وبنى عدة بنايات عمومية فى «القاهرة» وفى «فوة» و «رشيد» واقتدى به غيره من بكوات «مصر» ، فجعلوا يشيدون الجوامع ، منها الجامع الذى ابتناه «عيسى بك» فى «ديروط» . وكان على باشا محبوباً ، مكرماً عند المصريين بمنزلة الأب . لكنه على ذلك لم يحكم إلا أربع سنوات وستة أشهر .

ففى سنة ٩٦١ هـ ، تولى باشوية «مصر» «محمد باشا» وكان الناس يبغضونه ، فلم يحكم إلا ثلاث سنوات . ولما زاد التشكى منه ، عزل واستقدم إلى الأستانة للمحاكمة فحكم عليه بالقتل سنة ٩٦٣ هـ .

وبعد «محمد باشا» تولى «إسكندر باشا» فحكم ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ونصف .

وفى سنة ٩٦٨ هـ ، تولى «على باشا» الخادم ، وبعد ١٧ راً خلفه «مصطفى باشا» (الثانى) فى سنة ٩٦٩ هـ .

ثم فى سنة ٩٧١ هـ ، تولى «على باشا» الصوفى سنتين وثلاثة أشهر . وكان «على الصوفى» قبلا حاكما فى «بغداد» ، مشهوراً فيها باعوجاج الأحكام والخيانة .

فلما تولى «مصر» ، كثرت فيها السرقات والتعديات ، حتى

غصت القاهرة باللصوص ، واخترقت طائفة منهم المدينة حتى الجامع الأبيض . فاضطرت الحكومة أن تقيم سورا من قنطرة الحاجب إلى هذا الجامع منعا لمثل ذلك .

وفى شوال سنة ٩٧٣ هـ ، أبدل «على باشا الصوفى» «بمحمود باشا» ، وهو آخر من تولى مصر فى أيام السلطان «سليمان» فجاء الأستانة بموكب عظيم ، فأهدى إليه فى أثناء مروره من الإسكندرية إلى القاهرة ، هدايا عظيمة . فلما وصل القاهرة ، لاقاه الأمير «محمد بن عمر» متولى الصعيد على قارب فيه جميع أنواع الهدايا وخمسون ألف دينار . فأخذ الباشا الهدايا منه بخنقه حال خروجه من مجلسه ، وأمر أيضا بخنق القاضى «يوسف العبادى» ، لأنه لم يأت لملاقاته ، ولم يهده شيئا . واستمر على هذه المظالم حتى قتل معظم أعيان القاهرة . فكان لا يمر إلا ومعه الشوباصى «رئيس الجلادين» فإذا مر بأحد ، وأراد قتله ، أشار بيده إلى الشوباصى (١) ، فيعمد حالاً إلى ذلك التعس ويقتله بأسرع من لمح البصر .

وفى ٣ رجب سنة ٩٧٤ هـ ، توفى الأمير «إبراهيم»

(١) صحة الكلمة صوباشى ، ومعناها هو منبع . شحْنة من فيه الكفاية لضبط البلد من جهه السلطان . وكيل المزرعة . الدرارى ٣٣٩ / ٢ .

الدفتردار ، وكان أميراً للحج . فاستولى «محمود باشا» على ما ترك من المال ، والمماليك ، والجوارى وحمله ذلك مئة ألف دينار ضمها إلى المال الذى يرسل إلى الأستانة سنوياً ، ويعين منها هدايا ثمينة للسلطان ووزرائه ، استجلاباً لخواطرهم . لكنه لم ينتفع من ذلك قبل أن قتل [1] في يوم الأربعاء غاية جمادى الأولى سنة ٩٧٥ هـ وهو مار فى موكبه الاعتيادى بين البساتين ، ولم تقف الحكومة على القاتل ، فاتهمت اثنين من الفلاحين وقتلتهما ظلماً لأنهما وجدا بقرب مكان القتل .

وكان السلطان «سليمان» قد توفى قبل ذلك بسنة (٩٧٤) وسنّه ٧٤ سنة ، ومدة حكمه ٤٨ سنة فتولى بعده ابنه «سليم شاه» (الثانى) . وهذه صورة نقوده مؤرخة ٩٢٦ هـ [2] .

٣ - سلطنة «سليم بن سليمان»

في سنة ٩٧٤ - ٩٨٢ هـ أو في ١٥٦٦ - ١٥٧٤ م

هو «سليم الثانى» ولد سنة ٩٣٠ . فلما تولى الملك كان فى السابعة والأربعين من عمره . وكانت أمه روسية (صقلبية) . ولم يكن أهلا للاحتفاظ بما خلفه أبوه من الفتوح ولا القيام بما أسسه

(١) هكذا فى الأصل .

(٢) ش ٧ فى آخر الكتاب .

من المشاريع ، ولكن وزيره «محمد باشا صقللى» كان حكيماً ، محنكاً فى السياسة والحرب ، فمنع الدولة من الفشل – ذلك شأن الدولة الاستبدادية – إنما تقدم بشخص ملكها وتكون كما تكون ، فإذا كان حازماً ، عاقلاً سعدت وأفلحت ، فإذا خلفه ملك ضعيف ، ضعفت وتقهقرت .

وفى أيامه ، عقد الصلح بين «الدولة العلية» و «النمسا» ١٧ فبراير سنة ١٥٦٨ م . ومن شروطه حفظ النمسا أملاكها فى المجر ، وأن تدفع جزية سنوية ، وتعترف بتبعية «الفلاخ» و «البغدان[١]» و «ترانسلفانية» للدولة العثمانية .

وفى أيامه أيضا فتحت «قبرس» ، وكانت تابعة «للبندقية» ، ففتحها «بيالى باشا» سنة ١٥٧١ م وجرت فى أيامه واقعة ليبانت البحرية ، غلب فيها العثمانيون ، وكانت خسائرهم فاحشة .

أما من جهة مصر ، فإن السلطان «سليما» المذكور حالما بلغه موت «محمود باشا» أمر بنقل «سنان باشا» من باشوية حلب إلى باشوية مصر، وبعد وصوله إليها بتسعه أشهر ، أمره بالزحف على اليمن فبرح مصر فى ٤ شوال سنة ٩٧٦ هـ ومعه «حمزه بك» و «ماماى بك» وغيرهما من أمراء مصر ، واستخلف على مصر

(١) هى الافلاق والبغدان فى رومانيا حالياً . المحقق .

«إسكندر باشا الشركسي» ومكث «سنان باشا» فى تلك الحملة سنتين و ٤ أشهر ، فتح اليمن وعاد ظافرا إلى مصر ، فرأى الأحوال هادئة ، والنظام مستتباً بدراية «اسكندر باشا» المذكور ، لأنه كان حكيما ، محباً للرعية ، فرفع الضرائب عن الفقراء والعاجزين ، والقسم الأعظم من طلبة العلم . وكان شديد التعلق بالعلم وذويه .

فلما عاد «سنان باشا» إلى مصر (أول صفر سنة ٩٧٩ هـ) عادت أحكامها إلى يده ، فاهتم بتأييد النظام ، حفظ رونق البلاد ، فأعاد حفر ترعة الإسكندرية ، ورمم وبنى فيها جامعاً وشارعاً وعدة حمامات ، وبنى فى «بولاق» «بمصر» شارعاً كالات ، وجامعاً لا يزال معروفا باسمه . وما زال على مصر إلى ى الحجة سنة ٩٨٠ هـ ، فخلفه «حسين باشا» وكان على جانب من اللطف والدعة وحب العلم الأدب ، ولا يعاب إلا لكثرة حلمه ، الأمر الذى أدى إلى تكاثر اللصوص فى ولايته ، ولم يحكم إلا سنة وتسعة أشهر .

وفى أيامه ، توفى السلطان «سليم الثانى» فى ٢٨ شعبان سنة ٩٨٢ هـ بعد أن حكم ثمانى سنين وخمسة أشهر و١٩ يوما .(١)

(١) فى المخطوط صورة نقود السلطان سليم الثانى انظر ش (٨) بآخر الكتاب .

٤ - سلطنة «مراد بن سليم»

من سنة ٩٨٢- ١٠٠٣ هـ أو من ١٥٧٤ - ١٥٩٤ م

هو «مراد الثالث» ولد سنة ٩٥٣ هـ . فلما تولى الملك لم يكن سنه يتجاوز الحادية والثلاثين من عمره . وكان عاقلاً ورعاً ، وكانت الخمر قد شاع شربها فى المملكة العثمانية ، وأفرط الجنود فيها ، وخصوصا الإنكشارية ، فأمر بإبطال شربها ، فثاروا وأجبروه أن يبيح لهم الشرب بما لا يسكرهم . وكان لهذا السلطان خمسة إخوة . فلما تولى الملك ، أمر بقتلهم ليأمن منازعتهم إياه على الملك .

قتل الإخوة فى الدولة العثمانية

وقتل الأخوة لهذا الغرض كان متبعا فى الدولة العثمانية إلى ذلك الحين . وأول من فعل ذلك منهم رابع سلاطينهم «بايازيد بن السلطان مراد» ، (تولى الملك سنة ١٣١٩ م) كان بكر إخوته وله أخ أصغر منه معروف بالشجاعة ، والنجدة وعلى الهمة ، فخاف منه على سلطته ، فأجمع الأمراء على قتله ، خوف الفتنة ، وانقسام المملكة ، ويقال إنهم فعلوا ذلك بفتوى شرعية أفتى بها علماء ذلك العهد بناءً على الآية «والفتنة أشد من القتل» . وأصبح قتل الإخوة قاعدة يرجع إليهاالعثمانيون عند الحاجة . فكان

السلطان حالما تفضى إليه السلطنة بعد موت أبيه ، يعمد إلى قتل إخوته ولو كان بعضهم رضيعا كما فعل السلطان «محمد الفاتح» وكان له أخ رضيع إسمه «أحمد» فلما مات أبوهما وأفضت السلطة إلى «محمد» فأول شيء باشره نقل جثة أبيه لتدفن فى بورصة ، ثم أمر بقتل أخيه .

ولما صارت السلطنة إلى السلطان «سليم الفاتح» عين ابنه «سليمان» حاكما على القسطنطينية ، وحمل بجيوشه إلى آسيا لمحاربة إخوته ، حتى يتفرغ لأعماله بعد قتلهم ، ولا يبقى من ينازعه .

وكان من جملة أعماله فى هذا السبيل ، أنه عثر على خمسة من أولاد إخوته فى بورصة ، فأمر بقتلهم ثم طارد أخاه «كركود[1]» حتى قتله كما تقدم . وكذلك فعل السلطان «مراد» بقتل خمسة إخوة حالما تولى الملك كما رأيت .

وأفظع من ذلك كله ما فعله السلطان «محمد الثالث» الآتى ذكره . فقد آلت السلطة إليه سنة ١٥٩٥ م وله تسعة عشر أخاً غير الأخوات ، فأمر بخنقهم قبل دفن أبيه ، فخنقوهم ودفنوهم من تجاه جامع أيا صوفيا فى الآستانة .

(١) صحة الاسم قورقود .

وكأن هذه المبالغة فى الفتك أفضت إلى رد الفعل بإبطال هذه العادة الوحشية . فلما انتقلت السلطنة بعد «محمد» المذكور إلى ابنه «أحمد الأول» سنة ١٦٠٣ ، ولم يكن سنه يتجاوز الرابعة عشرة ، ولكنه كان عاقلاً ، وله أخ صغير اسمه «مصطفى» فلم يقتله ، بل اكتفى بالحجر عليه فى أثناء سلطنته ، فأصبح السلاطين بعده يعولون فى الاحتفاظ بسلامة سلطتهم على الحجر بدلا من القتل ، والفضل في ذلك يرجع إلى السلطان «أحمد» المذكور .

وله بدعة أخرى أدخلها فى توارث الملك ، لم تكن من قبل ، وذلك أوصى بالملك بعده لأخيه «مصطفى» المشار إليه بدلا من أن يوصى به لأحد أولاده . كما كان أسلافه يفعلون . فبعد أن كان الملك ينتقل إلى الأبناء بالتسلسل فى الأعقاب ، صار ينتقل إلى الإخوة أيضا ، الأرشد فالأرشد ، إلا ما قد يعترض ذلك من نفوذ الإنكشارية ، أو دسائس الوزراء ، أو غير ذلك ، فالعرش العثمانى ما زال ميراثه محصورا فى الأبناء من السلطان عثمان الأول إلى أحمد الأول ، ثم صار ينتقل إلى الإخوة أيضا ولايزال ، فلنرجع إلى ترجمة السلطان «مراد» .

وفى أيام السلطان «مراد» دخلت بولونيا [1] فى حماية الدولة العثمانية ، وجرت حرب مع دولة الفرس ، ودخل العثمانيون «تبريز» ، وهى المرة الرابعة لدخولهم فيها .

وفى أيامه ، توفى الصدر الأعظم «محمد باشا صُقُلِّى» وكان قد حافظ على سيادة الدولة ، وتمكن بسياسته من إبرام الصلح مع دول أوربا ، وانشاء عمارة بحرية بعد واقعة ليبانت ، فكوفىء على خدماته بالقتل ، بسبب دسائس حاشية السلطان فكن موته ضربة على الدولة ، وتكاثر تبديل الصدور بعده .

أحوال مصر فى أيامه

أما مصر ، فولى عليها بدلاً من «حسين باشا» «مسيح باشا» وكان خزنداراً عند السلطان «سليم الثانى» ، فحكم فى مصر خمس سنوات وخمسة أشهر ونصف ، ووجه اهتمامه خصوصاً إلى إبطال السرقات والتعديات، فكان يقبض على اللصوص ويقتلهم بدون شفقة حتى بلغ عدد من قتل من اللصوص عشرة آلاف ، فارتاحت البلاد من شرورهم ، ثم عكف على إصلاح شئون الرعية ، وكان نزيهاً لا يقبل الرشوة ولا الهدية .

ومن آثاره مسجد عظيم فى ضواحى القرافة لا يزال يعرف

(١) هى بولندا .

باسمه ، وقد بناه على اسم الشيخ «نور الدين القرافى» وجعله له ولنسله ملكاً حراً ، وخصص دخلاً معيناً للنفقة عليه . وأمر «مسيح باشا» أن تستهل الأوامر والكتابات الرسمية والأحكام بهذه العبارة «الحمد لله ، والصلاة والسلام على نبينا وآله وصحبه ، إن المؤمنين إخوة ، فاحفظوا السلام بين إخوتكم واتقوا الله» .

وفى سنة ٩٨٨ هـ ، ولى مصر « حسن باشا » الخادم خزندار السلطان « مراد الثالث » فلم يكن همه إلا جمع الأموال بأية وسيلة كانت ، وإعادة ما كان حظره سابقه من الرشوة والهدايا . فبقى على ولاية مصر سنتين وعشرة أشهر . ولما عزل عنها سار من القاهرة خفية ، وطلع من باب المقابر ، لئلا ينتقم منه أهلها .

وفى سنة ٩٩١ هـ ، خلفه «إبراهيم باشا» فأخذ يستطلع ويتحرى ما أتاه سابقُهُ من الاختلاس ، فجعل فى جامع السلطان «فرج بن برقوق» موظفاً خصوصياً لاستماع تشكيات المتظلمين على الوالى السابق من ١٠ رجب من تلك السنة إلى غاية رمضان. فاطلع على مظالم لا تحصى ، من جملتها ١٠٠٤ أردب قمح من الشون العمومية ، باعها «حسن باشا» واستولى على قيمتها ، فرفع إبراهيم باشا تقريرا مدققا بشأن ذلك إلى السلطان ، فأمر بقتله شنقاً .

ثم طاف «إبراهيم باشا» بنفسه يتفقد أحوال المديريات ويتحقق حالتها وزار أيضاً آبار «امرود» فى الصحراء .

وتولى مكانه «سنان باشا الثانى» وكان دفتردارا . وبعد ستة أشهر وعشرين يوما ، برح مصر هاربا ، وسبب ذلك أنه ساء التصرف ، فاشتكاه الناس إلى الأستانة ، فجاء «أُوَيْس باشا» إلى مصر ليتحرى لتلك التشكيات ، فحالما علم «سنان» بمجيئه ، فر هارباً .

فتولى «أويس» حكومة مصر سنة ٩٩٤ هـ ، وكان صارماً فى الأحكام ، وكان فى أول أمره قاضياً ، ثم صار دفتردارا فى الروملى ، ثم نقل إلى باشوية مصر . وبقى عليها خمس سنوات ستة أشهر وعشرة أيام ، وأراد أن يدرب الجنود ، فعصوه ، هجموا عليه فى الديوان فى ٢٨ شوال سنة ٩٩٧ هـ ، ونهبوا بيته، وفى جملة ما نهبوا منه ساعة كبيرة ، تعرف منها الأيام . ثم ذبحوا الأمير «عثمان» قائد وجاق الجاوشية ، وأخربوا بيت قاضى العسكر ، وقتلوا قاضيين من قضاة مصر . ثم عمدوا إلى الحوانيت ، فنهبوها ، كل ذلك والأمراء لا يستطيعون منعهم ، والاضطراب يزداد ، والثائرون يتمردون . وقد حاول الدفتردار إيقافهم عند حدهم ، فذهب سعيه باطلاً .

ثم ظن «أويس باشا» أنه إذا جاءهم بالحسنى ربما يلينون، فبعث إلى القضاة أن لا يخالفوا لهم أمراً ، فلم يزدهم ذلك إلا عناداً وفجوراً حتى قبضوا على أولاد الباشا رهن [1] لما يريدون ، فاضطر الباشا إلى الاذعان لما أرادوه وأعطاهم ما طلبوه ، واستقال من تلك الولاية بعد أن مل من خيبة مساعيه الحميدة فيها.

فتولى مكانه «حافظ أحمد باشا» سنة ٩٩٩ هـ وكان حاكما في قبرص ، وعلى جانب عظيم من حب العلم وطالبيه حاذقاً ، مدرباً في أمور الأحكام . وكان رفيقا بالأهلين ، ففرق الحَسَنات على الحجاج الفقراء ، وبنى في بولاق وكالتين وعدة بيوت ، وخصص ربع دخلها لعمل الخير . وبقى حاكماً أربع سنوات وفي سنة ١٠٠٣ ، توفى السلطان «مراد»[2] .

٥ - سلطنة «محمد بن مراد»

من سنة ١٠٠٣ - ١٠١٢ أو من ١٥٩٤ - ١٦٠٢ م

ولد هذا السلطان سنة ٩٧٤ هـ ، فتولى الملك وهو فى الرابعة والأربعين من عمره . وكان له ١٩ أخاً أمر بخنقهم كما

(١) الصحيح : رهناً .

(٢) في المخطوط صورة نقود السلطان مراد بن سليم انظر ش (٩) بآخر الكتاب .

تقدم . ومما يذكر له أن السلاطين تقدموه (مراد وسليم الثانى) كانوا قد تقاعدا عن قيادة الجند فى ساحة الوغى ، فرأى ذلك قد أضر بسطوة الدولة ، فعاد هو إلى تولى تلك القيادة بنفسه ، وكان لذلك تأثير كبير فى سياسة الجنود وثباتهم ، ففتح قلعة «أولو» الحصينة ، وكان السلطان «سليمان» قد عجز عن فتحها (١) .

أعمــالــه فــى مصــر

أما مصر ، فولى عليها «قورط باشا» ، فلم يبق فيها إلا سنة وثمانية أيام ، وكان الناس يحبونه للطفه ودعته وتنشيطه لطالبى الأدب ، ومساعدته للفقراء ولكل من يلتجىء إليه .

وفى شوال سنة ١٠٠٤ هـ ، خلفه السيد «محمد باشا» وبقى على الحكومة سنتين ، اتبع فى اثنائهما خطة أسلافه فى تنشيط العلم والأدب ، فأعاد بناء الجامع الأزهر ، وجعل فيه وظائف يومية من العدس المطبوخ ، تُفَرَّقُ فى الطلبة الفقراء ، ورمّم المشهد الحسينى ، ومع كل ما كان يتوخاه فى السعى فى حفظ النظام مع الأهلين ، لم يمكنه إنقاذهم من ثورة عسكرية ، انتشبت فى غرة رجب سنة ١٠٠٦ هـ فى سائر أنحاء القطر المصرى .

ثم أجتمع العصاة فى القاهرة ، وكان السيد «محمد باشا» : ذاك فى منزله فى بريــة الجيــزة ، فعاد إلى القاهرة تحفّ بــه

١)فى المخطوط صورة نقود السلطان مراد بن سليم .

السناجق وزمرة من الخفراء ، فلم يبال العصاة بذلك ، بل أطلقوا عليه النار ، ولم يتخلص من أيديهم إلا بعد شق الأنفس فسار إلى أحد منازله ، فتبعوه وحاصروه هناك ليلاً ونهاراً ، وألحوا عليه أن يسلمهم بعضاً إلى ضباطه ، وفى جملتهم «دالى (١) محمد» أحد كبار الأمراء ، والأمير الجلاد «الشوباصى»(٢) والأمير «خضر» كاشف المنصورة ، فطلب إليهم أن يمهلوه ثلاثة أيام .

فلما جاء رسوله ، قالوا له «سيحكم الله بيننا وبين ملاك» . وتفرقوا فى المدينة ، فظفروا بقاضى العسكر «عبد الرءوف» فأجبروه على القيام بمطالبهم . أما الباشا فاغتنم اشتغالهم بذلك الشأن ، وفر إلى منزله ودخل القلعة وأقفل أبوابها وراءه ، والت إلى «حسين باشا السكرانى» قائد عموم الجيش و «بيرى بك» أ الحج ، فحاولا تسكين الثورة ، فذهب سعيهما عبثاً علماً العصاة قتلوا «محمد بك» و «الدالى محمد» وعلقوا رأسيهما على باب زويلة ، ونهبوا بيتهما ، وأثخنوا فى الناس قتلاً ونهباً (٣) .

(١) أصلها دلى : ومعناها : مجنون، معتوه، مجذوب، أهوج، أرعن. الدراى ١/٢٥٥ .

(٢) الأصل : صوباشى .

(٣) فى المخطوط صورة والى مصر فى موكبه بالقرن العاشر للهجرة انظر ش(١٠ بآخر الكتاب .

وفى ١٧ ذى الحجة سنة ١٠٠٦ هـ ، أبدل السيد «محمد باشا» «بخضر باشا» فحكم ثلاث سنوات و١٢ يوماً ، وقد أغضب الأهلين منذ وصوله القاهرة ، لأنه أمر بقطع الأعطيات والجرايات التى كانت توزع على العلماء والفقراء من الحنطة ، ولم يقتصر على الإيقاع بهؤلاء الضعفاء ، بل تجاوزهم إلى الضابطة فأحرمهم زادهم ، فتجمهروا فى ٢٠ رمضان سنة ١٠٠٩ هـ ، وساروا إلى قاضى العسكر . ثم اتحدوا والقاضى فى مقدمتهم ، وتوجهوا إلى الديوان يريدون الانتقام ، فقتلوا «كخيا باشا» وأمراء آخرين ، فخاف الباشا فسلم لهم بما كانوا يطلبونه ، وأعاد الأعطيات كما شاءوا وخمدت الثورة وعادت الحياة إلى مجاريها ، إلا أن الباشا لم يلبث هنيهة حتى جاءه الأمر بالإقالة ، فاستقال . وولى مكانه الوزير «على باشا السلحدار» وكان محبا للحرب ولذلك كان يكرم الجند على الخصوص ، ولكنه كان سفاكاً للدماء ، فتظلم الناس من قسوته ، ولم يكن يخرج فى موكبه إلى المدينة أو ضواحيها إلا ويميت على الأقل عشرة أشخاص تحت حوافر جواده ، فكان الناس يرتعدون خوفا من ذكر اسمه . ورافق ذلك جوع عظيم ، فكثرت الوفيات وعم الخراب ، فازداد الرعب حتى أمر الباشا أن تدفن الموتى سراً .

أما هو ، فترك القاهرة فراراً من تلك الغائلة واستخلف عليها «بيرى بك» وبعد يسير توفى هذا فانتخب السناجق الأمير «عثمان بك» ليقوم مقامه ، ويقى هذا حتى عين الباب العالى من يخلف «على باشا» وكان ذلك التغيير بسبب وفاة السلطان «محمد الثالث» فى ١٦ رجب سنة ١٠١٢ هـ (١) .

٦ – سلطنة «أحمد بن محمد»

من سنة ١٠١٢– ١٠٢٦ هـ أو من ١٦٠٣– ١٦١٧ م

ولد هذا السلطان فى سنة ٩٩٨ هـ ، فتولى الملك وهو فى الرابعة عشرة من عمره عندما نفى ، وقد خالف من تقدمه من السلاطين بقتل إخوتهم كما تقدم .

وولى على مصر «إبراهيم باشا» فحكم فيها مدة قصيرة ، انتهت بخطب جسيم ، وذلك أنه منذ وصوله إليها ، عزم على أبطال طلبات الجند ، ولما أراد إنفاذ ما نواه ، زادت الجنود تمرداً .

وفى ربيع آخر سنة ١٠١٣ هـ ، علموا أن الباشا خرج من القاهرة فى زمرة من رجاله ، وركب النيل إلى بولاق قاصداً شبرا قرب جسر أبى المنجا . فاجتمعوا فى ضواحى القرافة ، وتعاقدوا بالأيمان المغلظة على قتله .

(١) فى المخطوط صورة السلطان محمد بن مراد انظر ش ١١ بآخر الكتاب .

وفى الصباح التالى ، جاءوا وعسكروا فى بولاق ينتظرون عوده ، ثم قاموا من هناك يريدون مهاجمته فى قلعة الدولاب ، وكانوا قد علموا بالتجائه إليها . فلما علم هو ومن معه من السناجقة بقدوم تلك العصابة تشاوروا فيما بينهم . فنصح له السناجق أن يسافر بحراً قبل أن يصل إليه ضيم ، فلم يصغ لهم وتشدد .

ثم جاءت الجنود الثائرة وأحاطوا بالقلعة وبعثوا من بينهم ١٥ رجلا ليأتوا برأس الباشا . فدخل هؤلاء القلعة والسيوف مشرعة فى أيديهم حتى جاءوا مجلسه ، فانتهرهم قائلاً : «ماذا تريدون ؟ ، ألم تستولوا على مرتباتكم والأنعام الذى يعطى اعتيادياً عند تولية الحكام عليكم ؟ فماذا تطلبون ؟» فأجابوه: «لا نطلب شيئا إلا رأسك» قالوا هذا وصفعه أحدهم على وجهه ، وأدركه الباقون بالطعن مراراً . ثم عمد أحدهم إلى رأسه ، فقطعه، فانتهرهم «محمد بن خسرو [1]» ووبخهم على ما جاءوا به من القحة فلم يجيبوه إلا بما أجابوا ذاك ، وأخذوا رأسى الاثنين ، عادوا بهما إلى رفاقهم حول القلعة . ثم حملوهما ، وداروا بهما

[1] خسرو : بضم الخاء وسكون السين وفتح الراء وسكون الواو ، وهى كلمة فارسية الأصل واستخدمها الأتراك ، وهى اسم علم ، ولها معان . المحقق .

شوارع المدينة إلى أن علقوها على باب زويلة (معرض الرؤوس !) وكان قد تعود مثل هذا الأكاليل [١] .

وفى ذلك اليوم ، أقاموا عليهم «عثمان بك» فلم يقبل ، فولوا قاضى العسكر «مصطفى أفندى» فلما علم ديوان الأستانة بقتل «إبراهيم باشا» ، أرسل عوضاً عنه الوزير «محمد باشا الكورجى» الملقب «بالخادم» . وحال وصوله القلعة . وردت الأوامر الصارمة من الباب العالى إلى جميع السناجق أن يستطلعوا أصل الثورة وأسبابها ، يقبضوا على زعمائها . فاجتمع السناجق والقسم الأعظم من الجيش فى قراميدان [٢] .

وكان الباشا فى القلعة ، فبعث يستقدم السانجق [٣] إليه ، ليبلغهم هذه الأوامر رسمياً ، فرفضوا المثول بين يديه، فتوسط الأمراء ، ووعدوا السناجق إنهم إذا سلموا القاتلين نجوا ونالوا العفو العام ، فقبلوا وسلموا القاتلين إلى الباشا ، فأمر بقطع أعناقهم بين يديه ، وأطلق السناجق ، فخاف الثائرون ، وضعف عزمهم ، ولا سيما لما رأوا من «محمد باشا» التيقظ لحفظ النظام

---

(١) هكذا فى الأصل .

(٢) فى المخطوط صورة لجامع السلطان أحمد بالأستانة ش (١٢) آخر الكتاب .

(٣) الصحيح : السناجق .

ومعاقبة المعتدين ، وقد قتل منهم نحواً من مائتى رجل فى مدة حكمه القصيرة التى لم تتجاوز سبعة أشهر وتسعة أيام .

فتولى بعده الوزير «حسن باشا» وهو أقل صرامة من سلفه، فكان يعامل الجند بالحسنى ، وكان ابنه فيهم برتبة بكلربكى، وكانت الأحوال هادئة جداً فى أثناء حكمه .

ثم تولى بعده الوزير «محمد باشا» فى ٧ صفر سنة ١٠١٦هـ ، وبقى على حكومة مصر أربع سنوات وأربعة أشهر و١٢ يوماً . وكان حكيماً حازماً ، أخذ منذ وصوله القاهرة فى المحافظة على السلام ، فنجى الأهلين مما كان يكدر راحتهم ، فاكتسب ثقتهم ومحبتهم ، إلا أنه لم ينج من الحساد وذوى الأغراض .

وفى أواخر شوال من السنة التالية ، ثارت عليه الجيوش ، واجتمعوا فى برج السيد «أحمد البدوى» تحالفوا أن لا يوافقوه على إلغاء الضرائب غير العادلة التى كانت مضروبة على القطر إلى ذلك العهد . ثم اختاروا من بينهم رئيسا ولوه عليهم سلطاناً ، وتقاسموا مصر إلى أقسام ، تولى كل واحد منهم إثارة الشغب والنهب فى قسم منها . فانتشرت تعدياتهم فى جميع الدلتا . فلما علم «محمد باشا» بذلك جمع السناجق «الجاوشية

المتفرقة (١)» ، وسار بهم تحت قيادته لردع العصاة فى ٩ ذى الحجة سنة ١٠١٧ هـ ، وأخذ معه ستة مدافع ، وانضم إليه كثير من مشائخ العرب . وفى الليلة التالية ، عسكر الجميع فى بركة الحج .

وفى الصباح ، هاجموا العصاة فى الخانقاه . فضيقوا عليهم بالنيران ، فاضطر أولئك إلى التسليم ، فأخذ الباشا عهوداً. أولها أن يسلموا إليه سلطانهم وكبار رؤسائهم ، ووعدهم بالتأمين على حياتهم ، فقبلوا وسلموا الرؤساء وعددهم نحو ٧٧ ، فأمر بقتلهم حالاً . ثم جرَّد الباقين من سلاحهم ، فتفرقوا ، فتعقبهم رجال الباشا ، وقتلوا من ظفروا به منهم .

فلما رأى قاضى العسكر «محمد أفندى» الملقب «ببختى زاده» ما كان يحصل من أمثال هذه المذابح يومياً ، نصح للباشا أن ينفى كل من يقبض عليه منهم إلى اليمن ، ففعل ، وكانت النتيجة حسنة ، وبطلت التعديات .

---

(١) المتفرقة هنا لقب ولا تعنى ما تعنيه فى العربية . وهى من كلمة فرّق العربية . والكلمة تعنى المنفصلين ، وهم حرس كانوا يستخدمون فى مهام «خاصة» أو مختلفة . وكان الكتاب الأجانب يشيرون إليهم على انهم «حرس الشرف» ... انظر هاملتون جب وهارولد بوون ، المجتمع الإسلامى والغرب ، ترجمة الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى ص ١٢٧ - ١٢٨ من الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧١ .

ولما ارتاح «محمد باشا» من تلك الثورات ، أخذ فى إصلاح الإدارة المالية ، فتفحص بنفسه النفقات التى كانت تدفع من الخزينة ، واقتصد منها كل مالم يكن ضرورياً . ثم نظر إلى الضرائب ، فأبطل طريقة المماليك الشراكسة فيها ، واتبع القوانين التى صدرت سنة ٩٣٢ هـ فى زمن السلطان «سليمان القانونى» . ثم نظم المكوس وعدّلها ، ولم يكن يكلف نفساً إلا وسعها ، فإذا رأى أرضا لا تقوى على القيام بما فرض عليها من المكوس ، تنازل لها عنه وساعدها فى إحياء مواتها .

ولما برح مصر ، نال من المكافآت والإنعامات ما لم ينله أحد من أسلافه فى مصر .

وتولى بعده «محمد باشا» الملقب «بالصوفى» وكان يحب العلماء ورجال الفضيلة . وكان ورعا ، حليماً ، عفيفاً ، لم يقبل رشوة ، ولم يأت ظلماً . إلاّ أنه كان ملوماً لزيادة ضعفه بما يتعلق بمحبوبه يوسف الذى كثيرا ما تعدى حده .

وفى سنة ١٠٢٢ هـ ، أرسل الصدد الأعظم عشرة آلاف جندى إلى اليمن ، لإخماد ما كان ثائراً من الشعب هناك ،

وأرسلت الفرقة المذكورة عن طريق مصر ومعها أمر سام إلى الباشا بدفع النقود اللازمة لها ، وتشييع الحملة إلى اليمن .

فلما وصلت الجيوش إلى مصر ، وعلموا بما ورد من الأوامر بشأنهم ، ادعوا انهم جاءوا ليقيموا فى مصر ، ولم يذعنوا لأوامر الباشا بالسفر ، فاتخذوا لهم منازل فى مخازن باب النصر، وطردوا بعض أصحابها منها ، فاجتهد الباشا أن يحملهم على التسليم بالأوامر الواردة إليه بشأنهم ، فذهب سعيه باطلا . وأقاموا المتاريس فى أبواب الحارة ، وأقفلوا باب النصر ، ونصبوا المدافع فى برجيه . فاضطر الباشا إلى محاصرتهم بكل ما لديه من الوجاقات والمدافع . فتمكن الأمير «عابدين بك» من الدخول إلى حصنهم من باب فى المدرسة المدعوة بالجنبلاطية ، فخاف العصاة وسلموا ، ففرق فيهم الباشا ثمانين كيساً وسافروا .

وبعد يسير أقيل «محمد باشا» الصوفى فاعتزل فى قبة العدلية ، ولم يبرحها إلا بعد أن علم بوصول خلفه «أحمد باشا» دفتردار مصر سابقاً إلى الإسكندرية ، ثم جاء القاهرة ودخلها بموكب حافل وبينما هو بموكبه فى المدينة ، رماه بعض الناس بحجر من سطح بعض البيوت ، فكسر الهلال الذى كان فوق

عمامته ، ولم يؤذه ، فأمسك الفاعل ، فاعترف بذنبه ، فقتل فى ذلك المكان [1] .

وفى محرم سنة ١٠٢٥ ، ورد إلى الباشا المذكور أمر من الأستانة أن يرسل ألفاً من جنود مصر لتنضم إلى الجيش العثمانى الذاهب لمحاربة الفرس . فأرسلهم تحت قيادة «صالح بك» أمير الحج ، فساروا على أتم نظام ، ومروا بالمديريات ، ولم يشعر الأهالى بمرورهم لما كان لهذا الباشا من النفوذ ، وما أقامهم فى مصر من النظام مع إعطائه الجيوش حقهم من المرتبات. ولم يكن يتيسر قبل ذلك مرور مائة رجل بمقاطعة واحدة، ما لم ينهبوها . فالتقت هذه الفرقة بالجيش العثمانى فى الخانقاه، نضمت إليه ، ولما ودع الباشا عساكره ، فرق فيهم المال ، صاب الواحد ٢٠ ديناراً على الأقل .

وكانت مدة حكم «أحمد باشا» سنتين وعشرة أشهر واثنى عشر يوماً ، ولم يقتل فى أثنائها أكثر من عشرة أشخاص ارتكبوا أموراً ، استوجبوا من أجلها القتل ولم يكن يحكم على أحد إلا بعد البحث الدقيق واستماع تقارير الدعوى من الطرفين .

---

(١) فى المخطوط توجد صورة لسبيل السلطان أحمد بالأستانة ش (١٢) بآخر الكتاب.

٧ - سلطة «مصطفى بن محمد»

من سنة ١٠٢٦- ١٠٣٢ هـ أو من ١٦١٧- ١٦٢٣ م

تولى هذا السلطان كرسى السلطنة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، قضى معظمها فى دار الحريم ، ولم يمارس شيئا من أمور المملكة ، فاستضعفه رجال الدولة ، فتآمروا على خلعه ، فخلعوه . وولوا مكانه «عثمان الثانى بن السلطان أحمد» ثم تغير الإنكشارية على السلطان ، فخلعوا «عثمان» وأعادوا «مصطفى» وكان ذلك أول عهدهم فى التولية والعزل ، ثم صار ذلك عادة جروا عليها مع سائر السلاطين ، إذ صار الأمر لهم فى التولية والعزل .

أما مصر فى أثناء ذلك . فاستبدل واليها «أحمد باشا «بمصطفى لفغلى» ، ولم يبق على مصر بعد خلع السلطان الذ ولاه إلا بضعة أشهر ، لأنه سهل النفوذ لذويه فى الاحكام فنشأت ثورة عسكرية فى ٧ شوال سنة ١٠٢٧ هـ ، فقتل الثائرون عددا كبيرا من الأمراء الأغوات وغيرهم من الكبراء ، واضطر الباقون إلى الفرار ، ولم يسكن الاضطراب إلا بعزل «مصطفى باشا» بأمر السلطان «عثمان» .

فتولى مكانه الوزير «جعفر باشا» وهذا لم تطل حكومته أكثر من خمسة أشهر ونصف . وكان محبا للعلم والعلماء ، يجمع إليه رجال الأدب ، ويكرم مثواهم ، ولم يهتم كل تلك المدة إلا بما فيه منفعه البلاد وراحة العباد .

وظهر فى أيامه وباء انتشر فى مصر ، وفتك بأهلها فتكاً ، وأيضا من غاية ربيع الأول سنة ١٢٠٨ إلى غاية جمادى الثانية من السنة المذكورة . وقد لوحظ أن معظم الذين ماتوا بهذا الوباء شبان بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين من أعمارهم ، وبلغ عدد من توفى بسببه ٣٦٥,٠٠٠ نفس .

وتولى بعد «جعفر باشا» «مصطفى باشا» ، فقبض على «مصطفى بك » الملقب «بالبكلجى» زعيم الثورة التى نشأت فى أيام «مصطفى باشا لفغلى . وحكم عليه بالإعدام . فسر الثانى بذلك لأن «مصطفى» المذكور كان أصل متاعبهم . على أن سرورهم لم يلبث أن ظهر حتى أبدل بالكدر ، لأن «مصطفى باشا» حاكمهم الجديد ، اضطهد تجارهم وضيق عليهم مسالك رزقهم ، فرفعوا تظلماتهم إلى السلطان ، فنظر فى دعواهم ، وأنصفهم ، فعزل ذلك الباشا ، وولى «حسين باشا» . فبادر هذا إلى ابطال جميع الضرائب غير العادلة التى كان قد ضربها سلفه .

وفى أيامه ، ارتفع النيل ارتفاعاً فوق العادة فطاف على الأرض ، وأغرقها حتى يئس الناس من البقاء لنهاية ذلك الطوفان، وأصابهم ضيق شديد أعقبه طاعون فتاك .

ثم عزل «حسين باشا» واستقدم إلى الأستانة ، وقبل وصوله إليه خلع السلطان «عثمان الثانى» وأعيد «مصطفى الأول» سنة ١٠٣١ ، الذى كان قبله .

أما الباشا المعزول ، فوصل إلى الأستانة فى أسعد الأوقات له ، لأن أعراض السلطان السابق عنه ، كان داعياً لرغبة السلطان الجديد فى تقريبه منه ، فاتفقت الأحزاب هناك على توليته الصدارة العظمى .

وكان «عثمان الثانى» قبل وفاته ، قد بعث إلى مصر «محمد باشا» بدلاً من «حسين باشا» ، لكنه لم يصل مصر إلا بعد أن أنبىء أهلها بما كان يأتيه فى الروملى يوم كان والياً عليها، فنفروا منه وخافوا من تصرفه . ولحسن حظهم لم يبق بينهم إلا شهرين ونصف شهر .

فلما تولى «حسين باشا» الصدارة ، عزله بأمر السلطان

«مصطفى الأول» ، وولى «إبراهيم باشا» وبقى هذا على مصر سنة. وقد تمكن بحسن سياسته وتدبيره من اكتساب رضى الأهلين وثقتهم إلا أنه حصل فى أيامه ضيق عيش ، وغلت أسعار المأكولات جداً .

ولما عزل «إبراهيم باشا» ، سار إلى الإسكندرية بحراً خلافاً للعادة الجارية فى من سبقوه على حكومة مصر ، فإنهم كانوا إذا عزلوا من مناصبهم ، سافروا براً .

وتولى مكانه «مصطفى باشا» واستلم زمام الاحكام من ٢٢ رمضان سنة ١٠٣٢ هـ ، فأتاه كتبة الديوان يشتكون تصرف سلفه ، وقالوا إنه مدين للخزينة بمبلغ وافر ، فأرسل فى إثره بعض الجاوشيه . فالتقوا به ، فهددهم بالقتل إذا لم يعودوا عنه ، فخافوا وعادوا إلى القاهرة . فأرسل الأمير «صالح بك» فأدركه وقد نزل البحر فى الإسكندرية ، فأوعز إليه أن يقف ، فأجاب إنه متوجه إلى الأستانة ، فإذا كان عليه شىء يدفعه هناك إلى السلطان نفسه ، قال ذلك ونشر الشراع ، فمخرت السفينة به ، فأطلقوا عليه من طابية منارة الإسكندرية بعض الطلقات المدفعية فلم يبال بها .

٨ - سلطنة «مراد بن أحمد»

من سنة ١٠٣٢- ١٠٤٩ هـ أو من ١٦٣٣- ١٦٤٠ م

ولد هذا السلطان سنة ١٠١٨ هـ ، فتولى الملك وعمره دون الحادية عشرة سنة ، ولاه الإنكشارية ليكون طوع إرادتهم ، فاستأثروا بالدولة وعاثوا فيها فساداً . فانتهز الشاة «عباس» ملك الفرس اختلال أحوالهم لتوسيع املاكه ، فتمكن من فتح بغداد ، وازدادت الأحوال اضطراباً ، وثار الإنكشارية حتى قتلوا الصدر الأعظم «حافظ باشا» .

مضت عشر سنوات والدولة فى تقهقر وضعف ، حتى شب السلطان وقبض على مهام الحكومة ، فحمل على بلاد فارس بنفسه على جيشه ، واسترجع بغداد وفتح الديوان . وبلغه أن أخويه «بايزيد» و «سليمان» يدسان عليه . فأمر بقتلهما . ثم استرد الفرس أريوان (١) .

أما مصر ، فبعد تولية «مصطفى باشا» بثلاثة أشهر أى من ١٥ ذى الحجة ، ورد إلى القاهرة ، أمر بعزله ، وتولية «على باشا» مكانه . فاجتمعت الأجناد وساروا إلى القائمقام «عيسى بك» يطلبون الإعطاءات التى تفرق عند تولية كل وال جديد ،

(١) أريوان : عاصمة ارمينيا .

فانتهرهم «عيسى بك» قائلا : «أفى كل ثلاثة أشهر تجددون هذا الطلبات ؟» ، فأجابوه : «وما المانع؟ ، ألم يغير مولانا السلطان كل ثلاثة أشهر والياً علينا ؟ ألا يضر ذلك بمصلحة البلاد ؟ ، وإذا أراد أن يولى كل يوم والياً ، فنحن أيضا كل يوم نطلب الإعطاءات التي لنا .» ، فحاول القائمقام إقناعهم ، فلم ينجح ولم يزدهم ذلك إلا عناداً وتهديداً ، وصرخوا جميعهم بصوت واحد : «نحن لا نرضى حاكماً غير «مصطفى باشا» ، ويرجع هذا إلى حيث أتى .» ثم قرأوا الفاتحة ، وأقسموا أن يحافظوا على ما قالوه ، وأن لا يحنث أحد منهم بذلك ، وبناءً عليه أعيد «مصطفى باشا» إلى منصبه .

فلما رأى الحزب العسكرى معه ، كتب إلى السلطان يطلب تثبيته ، وأرفق الكتاب برسائل عديدة من علماء القاهرة ومشائخها قضاتها ، وجميعهم يطلبون تثبيته . ثم بلغهم وصول «على باشا» لى الإسكندرية فبعثوا إليه وفداً يبلغونه أن الجند والأهلين متفقين على رفضه ، فجمع الوفد إليهم ودفع إليهم كتباً كلها مدح وإطناب للأمراء والجيوش ، فعاد الوفد وقرأ تلك الكتب على الجند ، فلم يكن جوابهم إلا إعادة الوفد ليعيدوا مطالبهم الأولى .

فلما رأى إصرارهم ، استشاط غضبا ، وأمر بالقبض على ذلك الوفد ، وقُيدوا إلى قلعة الإسكندرية مغلولين ، وزجوا فى سجنها ، فتآمروا مع جند الإسكندرية وكانوا من حزبهم ، فحلوا وثاقهم وهجموا جميعا على «على باشا» وقوضوا خيمته وأجبروه على الخروج من الإسكندرية حالاً ، فأنزلوه فى قارب مخصوص ، وأخرجوه من الميناء ، وكانت الريح ضده ، فأعادته ثانية ، فأطلق عليه الأمير «مصطفى» من قلعة المنارة عدة طلقات ثقبت سفينه ثقوبا لم تغرقها ، لكنها أخرجتها من الميناء ولقب الأمير «مصطفى» من ذلك الحين «بالطبجى» (١) .

وفى يوم ٢٠ ربيع آخر سنة ١٠٣٣ هـ ، جاء القاهرة كتاب يحمله الحمام الزاجل – وهو بريد تلك الأيام – فحواه قرب وصول مندوب عثمانى ومعه الأوامر السلطانية .

وبعد أيام وصل ذلك المندوب ودخل القاهرة وجمع السناجق والأمراء وكبار الموظفين فى الديوان ، وألبس «مصطفى باشا» «الخلعة المرسلة إليه من السلطان ، ثم تلا عليهم الفرمان بتثبيته على مصر .

(١) وصحة كتابتها بلطجى وهى من التركية بلطة جى وتعنى : ناقل الفأس أو صاحبه. الدرارى ١/١٠٦ .

وفى السنة التالية ، زاد النيل زيادة فوق العادة ، فبلغ ٢٤ ذراعاً ، فخاف الناس أن لا ينحسر الماء عن أراضيهم فى زمن يمكنهم فيه زراعتها ، ولكنه أخذ فى الهبوط بسرعة ، فانكشفت الأرض وزاد خصبها .

الوباء وبيرام باشا

ولم تكد مصر تنجو من الجوع حتى داهمهما ما هو أصعب مراساً منه – يعنى الوباء ، فإنه ظهر بها بأوائل ربيع أول سنة ١٠٣٥ هـ ، وأخذ ينتشر فى جميع أنحائها بسرعة .

وفى شعبان من تلك السنة ، أخذ بالتناقص ولم ينقص إلا فى أوائل رمضان ، قال بعضهم : إن الذين ماتوا بسبب هذا الوباء ٣٠٠,٠٠٠ نفس ، فتذرع الباشا بهذه الضربات لاختلاس أموال الناس ، فجعل نفسه وريثاً لكل من مات بالوباء من الأغنياء . فاستولى على تركاتهم ، فتظلم الورثاء إلى الأستانة . ولا يخفى أن الباشا لم يتول مصر إلا رغم إرادة الباب العالى ، فاغتنم هذه الفرصة وعزله ، وولى «بيرام باشا» ، فجاء مصر وحاكم «مصطفى باشا» وحكم عليه بدفع الأموال التى اختلسها ، فباع كل ماله من المتاع والمقتنيات ، ودفع ما عليه .

ولما عاد إلى الأستانة (١٠٣٧ هـ) حكم عليه بالإعدام .

ولا يخفى أن محاولة الجيوش والأمراء عزل وتولية الباشوات ، بمجرد إرادتهم ؛ مخالف للنظام ومغاير لما وضعه السلطان «سليم الفاتح» لكل فئة من فئات مصر الحاكمة من الحدود . فكانت موافقة الباب العالى خرقاً للحدود السابقة وعليه فقد حصل بعض التعديل فى القواعد الأساسية التى سنها السلطان « سليم » منذ قرن .

وكان «بيرام باشا» محباً للعلم والعلماء ، لكنه كان أكثر حباً لجمع المال ، وإقامة المشاريع المفيدة ، وتنشيط التجارة على أنواعها ، وأكثر من الضرائب حتى على الصابون ، وكان حازماً ، لم يترك للجند فرصة للتمرد ، فهدأت مصر فى أيامه .

«محمد باشا» و «موسى باشا»

ثم استُدعى «بيرام» إلى الأستانة ، وعيِّن وزيراً فى ديوانها، وهذه هى المرة الثالثة لتعيينه فى ذلك المنصب . فتولى بعده الوزير «محمد باشا» ، فساس الأمور بحكمة ودراية . وكان محباً للعزلة ، فلم يخرج بموكبه فى أثناء حكمه التى هى نحو السنتين ، إلا ست مرات .

واتصل به ما أصاب اليمن من الشغب الناتج عن سوء السياسة مع القبائل البدوية ، فعرض على السلطان إخضاعها ، وتعهد بإرسال فرقة من رجاله بقيادة «قنسوبك» أمير الحج لهذه الغاية . فأجابه السلطان إلى ما طلب ، وولى «قنسوبك» على اليمن مع رتبة باشا وجعله بكلربكى (أمير الأمراء) على الجيش . فأنشأ «قنسو» جيشا من ثلاثين ألف مقاتل ، وقبض مبلغاً كبيراً ليدفع منه نفقات الحملة . وبعد أن قبضه ، توقف عن السفر وترك جيشه بمصر يسلبون وينهبون ويقتلون الأهلين ويتعرضون للمسافرين .

ولحسن الحظ ، كان بين تلك الجيوش ألف رجل من الروملى (١) جاءوا للاشتراك فى تلك الحملة تحت قيادة الأمير «جعفر أغا» ، فاخمدوا تلك الثورة وألزموا «قنسو بك» أن يسير بهم إلى اليمن فى محرم سنة ١٠٣٩ هـ . فسار وحارب وفاز .

وبعد سبعة أشهر من سفر تلك الحملة (فى ١٩ شعبان) ، طاف على مكة سيل من الماء ، أغرق القسم الأعظم من أراضيها حتى الكعبة . فهدم السلطان معظم بنائها ، ولم يبق من جدرانها إلا الأيمن .

(١) الروملى : أصلها روم ايلى وتعنى لغويا منطقة الروم . واصطلاحا : منطقة البلقان . المحقق .

فاتصل ذلك بوالى مصر ، فأوصله للسلطان «مراد الرابع»، فأنفذ السلطان إلى «محمد باشا» يعهد إليه ترميمها ففعل . فبلغت جميع النفقات نحو ستة ألف غرش (الغرش يومئذ يساوى أربعة فرنكات تقريباً) .

وفى سنة ١٠٤٠ هـ ، كان ارتفاع النيل قليلاً ، فجاء شهر توت ولم يبلغ ١٦ ذراعاً ، ومع ذلك ، فتح الخليج ، وسيقت المياه قليلة إلى الأرضين ، ولكن البلاد أمنت من الجوع بتدبير «محمد باشا» .

وفى هذه السنة ، استدعى «محمد باشا» إلى الأستانة ، وقلده السلطان منصب الوزارة مكافأة لحسن سياسته ودرايته . وتولى مكانه فى مصر «موسى باشا» وكان للأهلين فى بادىء الرأى ثقة به ، وكانوا يحبونه ويُجلُّون قدره ، فخرجوا لملاقاته فى شبرا ، لكنه لم يكد يمكن قدمه ، حتى استسلم لهواه ، فأخذ فى الاختلاس والاستبداد بأنفس العباد ، فأمر بقتل أكبر رجال مصر بغير وجه حق ، وجعل يراقب سير أغنيائها ويترصد خطواتهم ، لعله يجد سبيلاً للاستيلاء على ثرواتهم .

وفى شعبان من تلك السنة ، بعث السلطان يطلب إليه

أن يعدّ حملة من جنـده لمحـاربة الفـرس فجمعهـا تحت قيـادة « قيطاس بك » وضرب على البلاد ضرائب فاحشة باسم إعانة حربية .

ولما وصلت تلك المبالغ إليه ، زعم أن مصر لا يمكنها تجريد مثل هذه الحملة لأن ماليتها لا تسمح لها بدفع النفقات اللازمة . فنصح له «قيطاس» أن يتبع الاستقامة ، وهى أفضل له ، فذهبت أقواله عبثاً . ثم أوجس «موسى باشا» خيفة من «قيطاس بك» لأنه اطلع على فظائعه ، فاستدعاه إلى القلعة فى عيد الأضحى فى ٩ ذى الحجة ، وأمر أربعين من رجاله أن يقتلوه ، ففعلوا .

فلما رأى الأميران «كنعان بك» و «على بك» ذلك دفع وف فى قلبيهما ، وأسرعا إلى الجيوش ، فأعلماهم بما كان من ر «قيطاس بك» مع «موسى باشا» ، فاجتمعت العساكر حالاً فى رميلة .

وأما السناجق والأمراء والقضاة وكبار الموظفين ، فاجتمعوا فى جامع السلطان «حسن» ، وتفاوضوا فى الأمر ، فأقروا على عزل «موسى باشا» وتولية من يقوم مقامه مؤقتاً ريثما يأتى أمر الباب العالى بشأنه ، فخلعوه وأقاموا «حسن بك» مكانه ،

فكتب «موسى باشا» إلى السلطان يعلمه بخبر تلك الثورة . وكان رؤساؤها قد رفعوا إلى ديوان الأستانة كتابين ، الواحد بالتركية ، وقع عليه السناجق والأغوات وكبار ضباط العسكرية والآخر بالعربية من القضاة والمشائخ يطلبون بصوت واحد خلع موسى باشا ، فأجابهم السلطان إلى طلبهم ، فولى عليهم خليل باشا .

« خليل باشا »

وفى ربيع أول سنة ١٠٤١ هـ ، وصل «خليل باشا» إلى مصر ، استلم أزمتها ، وبلغه أن جماعة من اللصوص ثاروا تحت رئاسة أحد الشرفاء المدعو «نامى» ، ونهبوا مكة ، فجمع جند القاهرة وأرسلهم بقيادة الأمير «قاسم بك» لإخماد تلك الثورة فساروا وحاربوا اللصوص وقتلوا زعماءهم .

وفى صفر سنة ١٠٤٢ هـ ، عاد «قاسم بك» بجيشه إلى القاهرة ظافراً . وأقبلت غلة مصر تلك السنة ، وزاد خصبها ، وتضاعف ريعها ، ونزلت أسعار الحنطة من ثمانية غروش للأردب إلى غرشين .

وفى سنة ١٠٤٢ هـ استقال «خليل باشا» من ولاية مصر ، فخرج منها ، والناس يثنون عليه ثناءً جميلاً ، لأنه كان

عادلاً ، حليماً . فلم يكن يصدد أحكامه إلا بعد التروى بما يقول الخصمان .

ومما يحكى عنه إنه جيء إليه يوماً بثلاثة لصوص ، قبض عليهم متلبسين بالجناية ، فأمر أن يحاكموا ، فقال أحد رجال الديوان : «إن هذه الحادثة لا تحتاج إلى محاكمة لثبوت الجناية ، فيجب إصدار الحكم بالإعدام .» ، فلم يكن جواب الباشا إلا الأمر بهدم بيت ذلك الناصح ، فاستغرب الرجل ذلك ، وسأل عن السبب الموجب له ، فأجابه الباشا قائلاً : كيف يحق لك الاعتراض عليَّ إذا أمرت بهدم بيتك المبنى من حطام الدنيا ، ولا يحق لذلك البانى العظيم معارضتنا إذا هدمنا بنايته بغير وجه شرعى .» ثم أبطل الأمر بالهدم وأطلق اللصوص ، قال «ابن أبى المسرور» راوى هذه الحكاية ، إن اللصوص قلُّوا بعد تلك الحادثة احتراما للباشا .

وبعد استقاله «خليل باشا» من مصر «س عُيِّن على الروملى ، وتولى مصر الوزير «أحمد باشا» الملقب «بالكورجى» وكان قبلاً أمير ياخور .

وفى صفر سنة ١٠٤٣ هـ ، وردت له الأوامر الشاهانية ، أن يبعث ألفين من عساكر مصر إلى سوريا ، مدداً للحملة

العثمانية على دروز لبنان مع خمسة آلاف قنطار من البقسماط وأربعة آلاف قنطار من البارود . ثم جاءت أوامر أخرى بطلب ألفى رجل آخرين وثلاثة آلاف قنطار من البارود لمحاربة الفرس . فرأى «أحمد باشا» أن مصر لا تقوم بهذه الطلبات ، فاعتذر إلى السلطان ، فبعث إليه ١٢ ألف قنطار من النحاس ليسكبها نقوداً على أن يبعث عوضا عنها إلى الأستانة ثلاثمائة ألف زر محبوب (١) .

أصل النقود فى المصرية

للنقود فى مصر تاريخ لا بأس من ذكره . كانت المعاملة بمصر عند الفتح الإسلامى بالدرهم ، وهو وزن درهم من الفضة والدينار ، وهو مثقال من الذهب . وكان الدينار يبدل بعشر دراهم.

تكاثرت الفضة فصار الدينار يساوى ١٢ درهماً فى أيام بنى أمية و١٥ درهماً من أوائل بنى العباس ، ثم زادت قيمته إلى ٢٠ درهما أو ٢٥ أو ٣٠ باختلاف الأحوال .

فلما كانت الحروب الصليبية ، واختلط الإفرنج بالمسلمين ، دخل البلاد الإسلامية كثير من النقود الإفرنجية ، وحدثت نقود

(١) زر محبوب ، هو الدينار كما سيذكر المؤلف ذلك فيما بعد .

ذهبية جديدة كالبندقى والمجر والبنتو وزر محبوب (وهو الدينار) والجنيه العثمانى والإفرنجى والمصرى وغيرها ، وكلها من الذهب .

أما النقود الفضية ، فأبدلت دراهمها بالأنصاف وهى البارات (١) . وكانت المبيعات الصغرى تقدر بإنصاف والكبرى بالبندقى أو الزر محبوب أو غيرها من النقود الذهبية ، وسنعود إلى وصف نقود مصر فى آخر العصر العثمانى .

«فأحمد باشا» أخذ فى سكب النحاس ، وأعد لذلك عمالاً ومعامل . ثم رأى بعد حين أن جميع هذه الإجراءات ذاهبة عبثاً لأن الفعلة ملّوا العمل ، ومات أكثرهم من الحر والجهد ، فجمع إليه ذوى شواره من الأمراء ، والقضاة ، واستشارهم . وكان من رأيه أن يدفع مطاليب السلطان من ماله الخاص ، ثم يجعل النحاس سبائك صغيرة تباع فى بلاد السودان بين تكردر وبلاد الزنج ، فارتأى القضاة رأياً آخر ، وهو أن يجبر الأهالى على استلام هذا النحاس ودفع المبالغ المطلوبة ، وأن يفرق النحاس عليهم بمقادير متناسبة لما يدفعونه فوافق الجميع على ذلك وأخذوا فى تنفيذه فى ١٦ الحجة سنة ١٠٤٣ ، وتمموه فى آخر شعبان من السنة التالية .

---

(١) البارات جمع بارة وهى بالباء المثلثة ، نوع من السكة .

فكان ذلك ثقلاً كبيرا على كاهل المصريين إذ لم ينج من هذه الضريبة غنى ولا فقير ، فَقَلَّت النقود ، وغلت الحبوب وسائر المأكولات غلاءً فاحشاً ، وزاد فى الطنبور نغمة أن النيل فى السنة التالية لم يكن وفاؤه حسناً ، لكن الناس استنبتوا الأرض غلة متوسطة .

مظالم وتعديات

وبعد يسير دُعى أحمد باشا إلى الآستانة فسار ولم يدفع الأموال التى جمعت لخزينته ، فرفع المصريون شكواهم بشأن ذلك. فلما وصل الآستانة ، حُكم عليه بالإعدام ، وتولى مكانه الوزير «حسين باشا» فجاء مصر فى عصابة من الدروز التقطهم من كل ناد ، وكانوا من قاطعى السبل ، فساموا المصريين أنواع العذاب نهباً وقتلاً ، فاضطربت الأحوال ، وأقفلت الحوانيت ، ووقفت حركة الأعمال ، وهذا أصل استهجان المصريين لكلمة درزى على ما يظن .

وأبطل «حسين باشا» حقوق الوراثة ، فإن مات أحد الناس، استولى هو على تركته ، وأحرم منها ورثته الأيتام والأرامل أو الثكالى ، وإذا أراد أحد الانتقام من عدو ، يكفيه أن يشى به إلى «حسين باشا» بأنه غنى أو ابن غنى ، فيزجه الباشا فى

السجن ولا يخرج منه إلا بالبذل الكثير . ولم يكن يمر
ويطوف فيه «حسين باشا» المدينة فى موكبه ، ولا تغيب ا
قبل أن يقتل رجلاً أو رجلين أو أكثر .

وقد حُسب عدد الذين ذهبوا فريسة عتو هذا الغا
مدة حكمه وهى سنة و١١ شهرا ، فبلغوا نحوا من ألف ،
نفس غير الذين كان يقتلهم بيده . وكان له هيبة فى قلوب ر
فأراد يوماً أن لا يشركوه بالقتل والنهب ، فحظر عليهم ذلك
يعودوا يجسرون على المخالفة ولم يسمع بشىء من تعديات
ذلك الحين .

ثم أقيل وخلفه الوزير «محمد باشا بن أحمد باشا
بنة السلطان «سليم الثانى» .

وفى شوال من سنة ١٠٤٧ هـ ، وردت إليه الأوا
يرسل ألفا وخمسمائة مقاتل ، نجدة للحملة العثمانية إلى ب
فأرسل تلك الفرقة بقيادة أمير الحج «قنسو بك» فى محر
١٠٤٨ هـ ، فسارت ولم ترجع إلى مصر إلا بعد الاستيلاء عل
المدينة فى صفر سنة ١٠٤٩ هـ .

واتبع الباشا خطوات سلفه بالاختلاس والنهب ،

ثروة عظيمة من تركات الأمراء والعلماء ، فقام عليه الورثة ، وبعد الجهد ، تمكنوا من تحصيل نصف الأموال . وازداد ظلما وعتواً ، حتى منع الصدقات التى كانت تدفع للأرامل والأيتام ، وأخذها لنفسه ، فكثرت التظلمات وتعددت العائلات المعسرة .

وفى الخميس ١٦ شوال سنة ١٠٤٩ ، توفى السلطان «مراد»(١) .

٩ - سلطنة إبراهيم بن أحمد»

من سنة ١٠٤٩ - ١٠٥٨ هـ أو ١٦٤٠ - ١٦٤٨ م

ولد السلطان «إبراهيم سنة ١٠٢٤ ، فلما تولى المُلك كان فى الخامسة والعشرين من عمره .

وفى أيامه ، فتحت جزيرة كريد ، وصارت تابعة للمم العثمانية . وفيها أيضاً زاد تمرد الإنكشارية فمل من تمردهم وعزم على الفتك بهم فى ليلة زفاف إحدى بناته على ابن الصدر الأعظم ، فاطلعوا على الدسيسة ، وأجبروا المفتى أن يفتى بخلعه ، فخلعوه وولوا ابنه «محمد الرابع» وعمره سبع سنوات ، فلم يرض جند السياه (٢) بذلك ، فأرادوا إرجاع «إبراهيم» فخاف رؤساء

(١) فى المخطوط صورة نقود السلطان مراد الرابع بن أحمد ش (١٤) بآخر الكتاب.

(٢) السياه : سياه مسكر . جيش . جند ١/٢٩٠ الدرارى اللامعات .

العصابة الفشل ، فقتلوا «إبراهيم» كما قتلوا «عثمان الثانى» قبله.

وكان المصريون لما علموا بانتقال السلطنة إلى «إبراهيم» المذكور ، ظنوا ذلك التغيير يغير حالهم ، وينجيهم مما هم فيه وأول ما اجراه السلطان المذكور أنه استبدل «محمد باشا» وأحرمه من العطية التى تعطى لحاكم مصر عند استقالته ، ولكنه أمر بعد ذلك بإبقائه ، فعاد إلى أعماله ، وازداد ظلماً وصلفا ، ففتك بالناس فتكاً ذريعاً .

ثم استبدل «محمد باشا» «بمصطفى باشا» الملقب «بالبستانجى» وكان أبيّ النفس على نوع ما ، إلا أن كاتبه «أحمد أفندى» كان عابثاً غشوماً . وكانت أزمة الأمور فى يده ، فاستبد بها ، فكره المصريون الحياة من أجله .

واتفق فى أيامه تقصير النيل ، فازدادت الأثقال بغلاء الحبوب . ولم يكن الباشا يتعرض للأحكام مطلقاً ، فكثرت السرقات حتى لم ينج حى من أحياء القاهرة من النهب ، واضطر الناس إلى مهاجرة بيوتهم .

وكان رئيس الضابطة إذا جئ إليـــه ببعض اللصـــوص ، لا تغيب عليهم الشمس فى السجن . ومثل ذلك كان يفعل الكشاف

(حكام الأقاليم) ، فتواترت التشكيات إلى الباشا، فاضطر إلى عزل رئيس الضابطة وتولية «كنعان بك» مكانه ، فاهتم هذا بالقبض على اللصوص ، فسجن عدداً كبيراً منهم .

وفى شوال سنة ١٠٥١ ، ثارت الجهادية وتمرد الجاويشيون على رئيسهم الأمير «على» ، لأنه لا يفرق الأعطيات إلا على كتبته ، فلم ير الباشا بداً من عزله وتوليه «عابدين بك» فى مكانه .

فلما رأى الجيش ما كان من فوز الفئة الثائرة ثاروا جميعاً، وادعوا أن مخازن الحبوب فارغة ، وطلبوا معاشاتهم التأخرة منذ سنة . فعين «محمد افندى» قاضى العسكر لتحرّ دعواهم ، فتفقّد مخازن الحبوب ، فوجدها حقيقة فارغة ، وعلم أ ما كان فيها باعه وأخفى ثمنه . فاضطر الباشا مراعاة لطلب الجمهور ، أن يتخلى عن كاتبه مع شدة حبه له ، فاستنجد الجاويشية ، فانجدوه وأعادوه إلى منصبه ، فازداد تمرداً ، وبالغ فى الانتقام . ثم استقال «مصطفى باشا» وتولى الوزير «مقصود باشا» . وكان والياً على ديار بكر (١) قديماً .

فلما استلم مقاليد الأحكام بمصر ، بحث عن تصرفات

(١) وهى : آمد .

سلفه ، فاطلع على أعماله ، فقبض على كاتبه والكخيا ، وجلدهما ، وأجبرهما على إرجاع مائتى كيس من النقود إلى الخزينة .

أما «مصطفى باشا» فأُرسل إلى الآستانة ، وهناك أخذ منه مائتا كيس سلمت للخزينة الشاهانية وأصبح من صحبة الوزراء السبعة العظام .

الـوبــــاء

وفى أيام «مقصود باشا» ، قاست مصر أمرّ العذاب من وباء وفد عليها . وكان أصعب مراساً من الوباء الذى وفد فى أيام على باشا وجعفر باشا لأنه كان عاماً لم ينج من إصابته الشيوخ لا الشبان ، وقد أصاب من الشيوخ واحداً فى الثمانية .

ظهر هذا الوباء أولا فى بولاق أوائل شعبان سنة ١٠٥٢هـ، يعد شهرين ظهر فى القاهرة . وما زال على معظمه من أول ذى القعدة من تلك السنة إلى غاية صفر سنة ١٠٥٣ ، ثم أخذ بالتناقص شيئا فشيئا ولم ينقض حتى الشهر الثانى . ولم يكن يسمع إلا بالوفيات المتتابعة فى كل ساعة . وكانت الجثث تنقل بالعشرات دفعة واحدة ، فيمر فى الشارع الواحد أحيانا ثلاثون أو أربعون جنازة .

وقد روى «ابن أبى السرور» وهو من المعاصرين أن جملة من صلى عليهم من المتوفين فى الجوامع الخمسة الرئيسية فى القاهرة فى أثناء ثلاثة أشهر ٢٩٦٠ ، وصاروا فى آخر الأمر يدفنون موتاهم بلا صلاة ، وعدد هؤلاء لا يقل عن عدد الذين صلى عليهم .

أما خارج القاهرة ، فلم يكن الوباء أقل فتكاً ، ويقال إن ٣٣٠ قرية أصبحت خراباً لإصابة سكانها جميعاً بذلك الداء .

«مقصود باشا»

فلما رأى «مقصود باشا» ما ألم بمصر من الدمار ، سعى فى إصلاح الأحوال جهده ، فاستعمل الرفق وألغى الضرائب التى وضعها أسلافه بغير حق وجعل الوراثة إلى الأقربين الشرعيين ، مع دفع شىء من التركات إلى الحكومة ، وتحرى التعديات تحرياً شديداً وشدد فى القبض على اللصوص ، فقبض على كثيرين منهم ، فقتل بعضاً ، وسجن بعضاً ، وقاضى آخرين حسب ذنوبهم مع الغرامة ، فاستكنت [١] الناس ، وطابت قلوبهم .

---

(١) الكُنْكَة : نَوْرَدَجَة [معربه : نورده بفتح النون والواو وسكون الراء والمقصود منها : باقة الرياحين] تتخذ من آس وأغصان خلاف ، ينضد عليها الرياحين ثم تطوى. القاموس المحيط ٢٢٤ .

وبينما كان هذا الباشا ساعياً فى ما تقدم ، ظهرت فى الإسكندرية فى ٢٠ القعدة من تلك السنة ثورة كدرت الحالة . وذلك أن نحواً من ستمائة من المسيحيين كانوا تحت طائلة القصاص مغلولين فى سجون الإسكندرية .

ففى اليوم المذكور فتحوا السجون ، والمسلمون فى الجوامع يصلون ، وطفقوا ينهبون الحوانيت والمخازن والبيوت ، ولم يبقوا ولم يذروا . ولما ملأوا جعبة مطامعهم ، نزلوا إلى مركب كان بانتظارهم فى البحر ، فأقلعوا يطلبون الفرار .

ولم يكن ذلك كل ما هدد «مقصود باشا» وحال دون مشاريعه ، بل هناك ما هو أدهى وأمرّ – وذلك أن جماعة السناجق تآمروا على عزله فى الجمعة ١٢ رمضان سنة ١٠٤٥ باجتماع عقدوه فى بيت الأمير «رضوان بك» الملقب «بأبى الشوارب» .

وسبب ذلك أن «مقصود باشا» كان قد طلب إليهم حيناً بإيفاء رواتب الجيش عن شهر رمضان أن يدفعوا الثلث الأول من المال الذى يطلب من الخزينة من الإقطاعات العسكرية التى فى أيديهم ، فرفضوا بالإجماع وطلبوا عزل بعض الموظفين الذين

(١) الصحيح فيها نفسا ، لوقوعها غمييزا . المحقق .

يعدونهم من أنصار الباشا . فسلم الباشا لهم بما أرادوا ، فلم يقتنعوا بذلك . فكتبوا إلى الأستانة يشكون من سوء تصرفه ، ووافقهم كثيرون من الأعيان . فكتب إليه الباب العالى رأساً ما مفاده : «أن الحضرة السلطانية لم تعلم أسباب الثورة الجهادية التى انتشبت فى «مصر» وتتعجب كيف أن الباشا لم يبلغ الباب العالى خبرها» .

فأجاب الباشا أنه لم يحصل لديه ما يُدعى ثورة ، وإنما هناك بعض الاختلافات التى يرجوا إصلاحها بالتى هى أحسن ، ولذلك لم يكن ثمة حاجة إلى إطلاعها .

فطلب إليه الباب العالى أن يتحرى ، ويعاقب المعتدين ، ويصرّف الأمر بما يتراءى له .

ومع ذلك اضطر إلى الإذعان ، لكنه أراد الفتك بالأمير «على بك» والأمير «ماماى بك» والدفتردار «شعبان بك» لعلمه أنهم زعماء تلك الثورة ، فأعدّ لهم كمينا ليقتلوهم فى الديوان ، وعين لذلك الإثنين فى ٢٣ الحجة سنة ١٠٥٤ هـ . لكن الدفتردار نزل إلى الديوان وحده فى ذلك اليوم ، فشاور الباشا عقله بين أن يفتك به وحده أو يخفى ما فى ضميره ريثما يفتك بالثلاثة معاً ، فأقر أخيراً على إرجاء العمل إلى يوم آخر .

أيــوب بـاشــا وغـيــره

وفى اليوم التالى جاء الفرمان بعزله ، وتولية الد
«شعبان بك» قائمقاماً يتعاطى الأحكام وقتياً ، فشق ذا
الباشا ، لكنه أذعن وسلم مقاليد الأحكام «لشعبان بك» ؛
السناجق إلى الباب العالى يطلعونه على حقيقة ما حصل ف
الباشا السابق ، ويطلبون إليه الإسراع فى إرسال من ي
فأنفذ إليهم «أيوب باشا» . وكان قبلاً من رجال القصر الش
«المابين»(١) .

فلما عهدت إليه هذه الولاية تردد فى قبولها لما رأ
الأخطار المحدقة بها ، لكنه لم ير بدأ من قبولها .

وكان رجــلا حازماً مستقيمــا ، استعـــان برجــال
إدارة الأعمال ، فلم تمض سنتـــان على حــكمه حتى ا
النظام ، وسادت الراحة . ثم استقال من ذلك المنصب ب
صار وزيرا ، وعكف على العبادة واعتزل السياسة ، وزهـ
الدراويش ، فتنازل عن أملاكه فى الأستانة للدائرة ال
الهمايونية وانفرد فى أحد المعابد في الروملى . تولى مكانه

---

(١) المابين : كلمة عربية استخدمها العثمانيون للدلالة على البلاط السلطانى . ا

«محمد باشا حيدر» سنتين ونصف ، ولم يحسن الإدارة فارتبكت الأحوال .

وفى ١٠ رجب سنة ١٠٥٧ هـ ثارت فرقة من الإنكشارية فى مصر القديمة ، فهددهم والى الشرطة فازدادوا تمرداً ، فساروا إلى الباشا ، وطلبوا قتل ذلك الوالى (المحافظ) ولم يكن ذنبه إلا أنه قام بما عليه ، فوافقهم الباشا على ما أرادوا .

أما الوالى فكان من وجاق الجاويشية . فلما علم هؤلاء بعزم الباشا ، قاموا يشكون من سوء تصرفه بصوت واحد ، فخاف أن تبلغ هذه التشكيات مسامع الباب العالى ، فتعود العاقبة وبالاً عليه ، فاجتمع «بقنسو بك» واستشاره بما يفعل . وكان هذا لا يشير إلا بما يعود عليه بالمنفعة الشخصية ، فأشار على الباشا أن يرفع إلى الأستانة تقريراً سرياً يشرح فيه ما حصل من القلاقل ، وينسبها جميعها إلى الأميرين «رضوان بك» و «على بك» وينسب إليهما أيضا اختلاس الخزينة المصرية ، وأنهما سلباه منصب أمير الحج وحكومة «جرجا» - كل ذلك لكى يرجع «قنسو بك» . و «ماماى بك» إلى منصبهما .

رضــوان بـك وعلـى بـك

فباشر الباشا كتابة ذلك التقرير ، وطلب إلى بعض ا
أن يوقعوا عليه ، فبلغ ذلك مسامع «رضوان بك» ، فأسر
كتابة تقرير مناقض لتقرير الباشا ، وبعث به إلى الأس
فوصل قبل تقرير الباشا وفيه ما فيه من التشكيات ضد «
بك» و «ماماى بك» ، فورد الجواب من الأستانة مفوضد
«رضوان بك» و «على بك» أمر النظر فى تلك القضية .

وفى ٢١ جمادى الأولى سنة ١٠٥٧ هـ ، ورد الفرمان
إلى الباشا . وفى ٢٧ منه ، استدعاهما الباشا إلى الق
فاستدعيا «قنسو بك» و «ماماى بك» وأمرا بقتلهما ، وقتل
آخرين كانوا على دعوتهما .

ولم تكد تتخلص «مصر » من دسائس هؤلاء حتى ة
دسائس «مصطفى كخيا» الملقب «بالششنير» ، لأنه لم
سنجقاً عوضاً من «قنسو بك» .

وفى ٨ رمضان من تلك السنة ، وردت الأوامر إلى
بك» أن يترك القاهرة ويتوجه حالاً إلى حكومته فى جرجا ،
ثلاثة أيام استدعى الباشا «رضوان بك» إلى وليمة فى القل
فخاف من دسيسته ، فأبى الحضور ، فغضب عليه الباشا و

عن إمارة الحج ، فخرج «رضوان بك» من القاهرة فى ٢٠٠ من رجاله ، وفيهم عدة من الأمراء والكشاف ، واتحّد مع «على بك» ، فبعث الباشا على اثرهما ألفين من جنوده ، ونحو خمسمائه من الإنكشارية ، فاجتمع الجند فى «الرميلة» وأقروا على إغفال أوامر الباشا . ثم وردت الأوامر من الأستانة بتثبيت «رضوان بك» و «على بك» فى منصبيهما . فاضطر الباشا إلى استقدام الأميرين، فقدما إلى القاهرة فى ١٩ رمضان بما لهما من الرواتب والحقوق ، فسعى إلى مصلحتهما مع «مصطفى كخيا» .

وفى ٦ الحجة من تلك السنة ، شاع فى القاهرة أن الوزير «مصطفى باشا» سمِى على «مصر» عوضاً عن «محمد باشا حيدر» . وفى ٢٦ منه ، وردت الأوامر قاضية بإعادة «محمد باشا» إلى منصبه . وفى تلك السنة ، توفى السلطان إبراهيم .

١٠ - سلطنة محمد بن إبراهيم
من سنة ١٠٥٨ - ١٠٩٩ ، ومن ١٦٤٨ - ١٦٨٧ م

تولى هذا السلطان العرش العثمانى وهو طفل ، فوقعت الفوضى فى المملكة العثمانية ، وأصبحت الجنود لا ترحم كبيراً ولا صغيراً ، وصارت الحالة إلى أتعس مما كانت عليه قبل «مراد الرابع» حتى تزعزعت أركان الدولة وطمعت الدول الأوربية فيها . وتكاثرت الثورات الداخلية تارة من الإنكشارية ، وآونة من السياه، وأخرى من الولاة أو الأهالى ، ولكن الله قيّض لها وزيرا عاقلاً حكيماً هو «محمد باشا كوبريلى» فتولى الصدارة سنة ١٠٦٧ ، ففتك بالإنكشارية وأذلهم وأخضعهم ، ولهذا الرجل أياد بيضاء على الدولة ، فإنه حفظها من الانحلال فى تلك الأزمة . وانتهت سلطنة هذا السلطان بالخلع .

أما فى «مصر» لما تولى السلطان محمد المذكور ، عزل «محمد باشا» واليها ، وولى الوزير أحمد «باشا» فاستلم زمام الأحكام مدة سنتين كلهما اضطراب وقلاقل ، وأول تلك القلاقل كانت سنة ١٠٦٠ بسبب تقصير النيل ، فإنه لم يرتفع تلك السنة أكثر من ١٦ ذراعاً . فلم يرتو من أرض الصعيد إلا الثلث . أما

الوجه البحرى فلم يرتو منه شيء تقريباً ، فغلت الأسعار حتى خيف المجاعة .

أما الباشا فلم يكن يهمه غير تكثير الضرائب مع أنه لم يكن يرسل منها إلى الأستانة إلا الثلثين . وكان لسوء نيته يرسل تلك المبالغ فى عهده «رضوان بك» ليحمل الباب العالى على الشك بأمانته فيتغير خاطر السلطان عليه . وكان اتماماً لمكيدته يكتب إلى الباب العالى على التتابع يشكو من تصرف «رضوان بك» ويطلب خلعه عن إمارة الحج ، وتقليدها لعلى بك . وكان هذا على ما علمت من الصداقة مع «رضوان بك» لكنه لم يكن يعلم بدسائس الباشا .

أما الباشا فكان فى نيته أن يوقع الضغائن بين الأميرين ، فيحل عرى اتحادهما ، لكنه لم يتم مقصده حتى أتى الأمر العالى بعزله يوم السبت ٦ صفر سنة ١٠٦١ هـ و «رضوان بك» لم يرجع إلى القاهرة بعد . ولم تكن نتيجة مساعى « أحمد باشا » إلا زيادة تآلف قلبى ذينك الأميرين . وكان من كرم أخلاقهما أن كلاً منهما كان يتنازل للآخر عن إمارة الحج فأعجبت هذه الأريحية المصريين، فأحبوهما وبالغوا فى احترامهما حتى أقاموا لهما دعاءً عمومياً

فى «الرميلة» . والباشا إذ ذاك محبوس فى القلعة ولم يفرج عنه حتى دفع للخزينة مبالغ وافرة .

فتولى مكانه الوزير «عبد الرحمن باشا» ومازال إلى أول شوال سنة ١٠٦٢ هـ ، وقد قاسى ما قاساه سلفه من السجن والإهانة لأنه سار على خطواته فاختار الباب العالى الوزير «محمد باشا» ليقوم مقامه فى ٥ شوال من تلك السنة ، ولكنه لم يدخل القاهرة إلا فى ٨ محرم سنة ١٠٦٣ هـ .

وما زالت الولاة تتوالى على «مصر» ولا شىء من أعمالهم وأحوالهم يستحق الذكر . وفى آخر الأمر تحول النفوذ من أيديهم إلى أيدى البكوات المماليك وهم يعدون مصر وطنهم ، ويغارون عليها . أما الباشوات إذا أتوا «مصر» لا يكون ديدنهم إلا اكتساب الثروة بأية طريقة كانت لعلم كل منهم أنه لا يلبث أن يأتيه الأمر بالعزل ، وقلما عزل أحدهم ولم يكن السجن مأواه .

١١ -١٣ : سلطنـة ثلاثـة سلاطـين
«سليمـان بـن إبراهيـم» و «أحمـد بن إبراهيـم»
و «مصطفى بـن محمـد»
من سنة ١٠٩٩ - ١١١٥ هـ (ومن ١٦٨٧ - ١٧٠٣ م)

توالى على العرش العثمانى فى ست عشرة سنة ثلاثة سلاطين ، ويدل ذلك طبعاً على ارتباك أحوال الدولة . فلما خلع السلطان «محمد الرابع» أودع السجن حتى مات سنة ١١٠٥ هـ ، وبويع السلطان «سليمان الثانى» . وبعد ٣ سنوات توفى ، فبويع السلطان «أحمد بن إبراهيم» وتوفى سنة ١١٠٦ هـ ، فبويع السلطان «مصطفى الثانى بن محمد الرابع» وبعد تسع سنوات أقيل سنة ١١١٥ ، وتوفى سنة ١١١٩ هـ .

وتوالى على «مصر» فى أثناء هذه المدة نحو عشرين والياً أغضيتُ عن ذكرهم ، لعدم أهميتهم ، ولأن النفوذ انتقل منهم إلى الأمراء المماليك ، وصار هؤلاء أصحاب الحل والعقد ، وبهذه السلطة ينقضى الدور الأول من سيادة الدولة العثمانية على مصر، ويبدأ الدور الثانى .

العلــم والأدب
ومشاهيـر العلمـاء والأدبـاء فـي مصـر
الـدور الأول مـن : العصـر العثمانـي
مـن ٩٢٣ - ١١١٥هـ

يجدر بنا بعد الإتيان على تاريخ مصر السياسى فى الدول من سيادة الدولة العثمانية ، أن نأتى بفذلكة عن حالة مصر العلمية والأدبية فى ذلك الدور .

يعد هذا الدور فى تاريخ آداب اللغة العربية من عصر الانحطاط أو التقهقر ، لذهاب دولة العرب ، واستبداد سواهم فى السيادة (١) ، وانغماس القوم فى الجهل ، ولولا القرآن لذهبت اللغة العربية برمتها .

وكانت الدول الإسلامية غير العربية قبل الدولة العثمانية كالبويهيين ، والسلاجقة ، والطولونيين ، والأتابكة ، والأيوبيين يجعلون اللغة العربية لغتهم الرسمية للمخاطبات والمكاتبات ، فتبقى

(١) هذه نظرة المؤلف للتاريخ الإسلامى ، وهى خاصة به .

ببقاء السياسة . أما العثمانيون فأهملوا هذه اللغة [1] ، وجعلوا اللغة التركية لغتهم الرسمية .

وزد على ذلك ما رافق الفتح العثمانى أو حواليه من الأسباب التى بعثت على تقهقر هذا القطر على الخصوص ، وذلك أن أهل أوربا اكتشفوا فى أثناء ذلك طرقا تجارية بحرية مثل : رأس الرجاء وغيره أغنت التجار عن إرسال تجارتهم مع الشرق الأقصى ذهاباً وإياباً عن طريق مصر وانصرفت همم العالم المتمدن فى الجهة الأخرى إلى العالم الجديد وغيره بعد اكتشافها ، والمصريون يومئذ لا يعلمون شيئا عن تلك الاكتشافات ، فكان هذا كله باعثاً على إهمال مصر وانحطاطها سياسيا واجتماعياً واقتصاديا ، ويتبع ذلك طبعاً انحطاطها العلمى والأدبى [2] .

وناهيك بفساد الأحكام ، ومطامع الولاة وتسابقهم فى ظلم الرعية ، وسلب أموالهم ، مما يشغل الإنسان بنفسه عن طلب العلم أو التبحر فيه .

---

(١) لم يهمل العثمانيون اللغة العربية ، بل اكرموا هذه اللغة واعلوا قدرها ، انظر فى ذلك : اللغة العربية فى الدولة العثمانية ص ٤٢٧ فى كتابنا «العثمانيون فى التاريخ والحضارة» ، دمشق ١٩٨٩ م .

(٢) ناقش الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى هذه الفكرة فى كتابه حركات التجديد الإسلامى فى العالم العربى الحديث . القاهرة ١٩٧١ .

وعليه فكان ينتظر أن تموت اللغة العربية ، ونعنى بموتها ضعف شأنها بالآداب والعلوم ، وإنما استبقاها الإسلام لإضطرار أصحابه إلى تعلُّم هذه اللغة واختلاط الأمراء المماليك بالوطنيين وتعلم لسانهم .

وقد ساعد على إحياء آداب اللغة فى تلك الفترة المظلمة أن بعض ولاة ذلك الدور كان فيهم ميل العلم والعلماء . أشهرهم «إسكندر باشا الشركسى» تولى مصر سنة ٩٧٦ هـ – فقد تقدم أنه كان شديد الميل كثير التعلق بالعلم ونويه ، «وحسين باشا» – تولاها سنة ٩٨٠ هـ – ، وشيد «محمد باشا» – سنة ١٠٠٤ هـ فإنه كان ينشط العلم والأدب . وكذلك «محمد باشا الصوفى» وأهمهم وأقدمهم «داود باشا» – تولى مصر سنة ٩٤٥ ، ومازال عليها أكثر من ١١ سنة – وكان محبا للعلماء شديد الرغبة فى المطالعة واقتناء الكتب ، ينفق فى سبيل استنساخها أو ابتياعها الأموال الطائلة ، فجمع مكتبة نفيسة . ومنهم «جعفر باشا» . و«بيرام باشا» وقد ذكرناهم فى اماكنهم فى هذا الكتاب .

فبالنظر إلى ذلك ، ظلت آداب اللغة العربية حية لكنها انحصرت بالأكثر فى كتب الفقه ، والدين ، أو جمع الأدب والشعر حتى أشعارهم أكثرها فى مدح النبى وأكثر المؤلفات الفقهية

شروح وحواش . وراج من ضروب الفقه على الخصوص الفقه الحنفى ، لأنه مذهب الدولة العثمانية ، والفقه الشافعى لأنه مذهب المصريين .

وكان الأزهر فى تلك المدة مبعث نور العلم ، والمدرسة العامة للعلم الإسلامى ، وأكثر مشاهير العلماء كانوا من طلبته . وكان الطلاب يقصدونه من اقاصى العالم ، وله فضل كبير فى استيفاء أصول العلوم التى كانت رائجة فى ذلك العصر ، وأكثر نوابغ مصر فى الدور الذى نحن فى صدده من تلاميذه ، وسنأتى بشذرات من تراجم مشاهير ذلك الدور ، ونرتبهم حسب المواضيع مع مراعاة سنى الوفاة – ما بين سنة ٩٢٣ و ١١١٥ هـ – ولذلك كان بعض هؤلاء عاصر السلاطين المماليك ، وإنما توفى فى عهد الدولة العثمانية .

قبل التقدم إلى الكلام عن هؤلاء نذكر عالماً هو إمام العلماء فى القرن التاسع للهجرة نعنى «جلال الدين السيوطى» ، توفى قبل الفتح العثمانى بإثنتى عشرة سنة (٩١١ هـ) . وكان علماً كثير التأليف والتعليم ، ألف فى كل موضوع حتى زادت كتبه على بضع مئات ، وتخرج عليه كثيرون ومنهم جماعة سيأتى ذكرهم فى جملة نوابغ العصر العباسى [١] الذى نحن فيه .

(١) يقصد المؤلف هنا العصر العثمانى وليس العباسى كما كتب .

وبما أننا سنقتصر فى ما يلى على الذين اشتهروا من المصريين دون سواهم فيشق علينا تحديد المراد بالمصرى فى هذا الباب ، لأننا نعرف جماعة كبيرة ولدوا خارج مصر ثم جاءوها فتعلموا فى أزهرها ، وتوطنوها وألفوا الكتب فيها فهؤلاء نعدهم من النابغين فى مصر ، ونذكر أخبارهم ونشير إلى أهم مؤلفاتهم ، وهل طبعت ؟ وأين يوجد الخطية منها ؟

١ - الشعراء والأدباء

١ - «عائشة الباعونية»

عاشت بمصر نحو سنة ٩٢٩هـ ، لها أشعار فى مدح النبى سمتها : «الفتح المبين فى مدح الأمين» منها نسخ خطية فى مكاتب برلين والمتحف البريطانى .

٢ - «قنسو بن صادق»

من تلامذة «جلال الدين السيوطى» المتقدم ذكره ، نبغ فى أواسط القرن العاشر ، ومن مؤلفاته : «السحر الحلال من إبداع الجلال» فى شكل المقامات ، منه نسخة خطية المكتب الهندى بلندن .

وكتاب «مراتع الألباب فى مرابع الآداب» شعر . منه نسخة فى المتحف البريطانى .

٣ - «زين الدين الحميدى» :

كان طبيباً بمصر ، توفى سنة ١٠٠٥ هـ ، وله ديوان فى مدح النبى سماه «الدر المنظم فى مدح الحبيب الأعظم» طبع فى بولاق سنة ١٢١٣ . و «وتمليح البديع لمديح الشفيع» منه نسخ خطية فى مكاتب أوربا . ومنظومة فى الجناس ، منها نسخة فى مكتبة برلين .

٤ - عبد الباقى الاسحاقى المنوفى :

توفى سنة ١٠٦٠ هـ فى منوف ، وله ديوان «سُلاف الإنشاء فى الشعر والإنشاء» . منه نسخة خطية فى مكتبة فيينا .

٥ - «يوسف عبد الجواد الشربينى»

عاش نحو ١٠٩٨ هـ ، له كتاب :«هز القحوف» طبع بمصر والإسكندرية مراراً .

٢ - المؤرخون ونحوهم

١ - «أبو البركات ابن إياس العامرى الشركسى» .

هو من تلامذة السيوطى ، توفى سنة ٩٣٠ هـ ، من مؤلفاتـــه :

١ - كتاب «مرج الزهور فى وقائع الدهور» ، وهو تاريخ عام ، منه نسخ خطية فى فيينا وباريس وغوطا .

٢ - كتاب «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» وهو خاص بتاريخ مصر إلى سنة ٩٢٨ هـ مرتب على الأيام والسنين نحو كتاب «الجبرتى» ، وقد شهد فتح العثمانيين مصر بنفسه ، ووصفه. طبع فى القاهرة سنة ١٣٠١ وفى بولاق سنة ١٣١١ .

٣ - «مشق الأزهار فى عجائب الأقطار» وهو يتعلق بالنجوم - منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية وفى أكثر مكاتب أوربا .

٤ - «نزهة الأمم فى العجائب والحكم» ، منه نسخة خطية فى مكتبة ايا صوفيا بالأستانة (١) .

٢ - «أبو العباس بن عبد السلام شهاب الدين المنوفى الشافعى» ، توفى سنة ٩٣١ ، تعلم فى القاهرة ، وتولى القضاء فى بلده «منوف» وله كتاب : «الفيض المديد فى أخبار النيل السديد» ، منه نسخة خطية فى مكتبة مرسيليا . وكتاب «البدر الطالع فى الضوء اللامع» ، منه نسخة فى مكتبة ليدن .

٣ - «محمد بن على الداودى» : من تلامذة «السيوطى» ،

(١) لم يأت جرجى زيدان على ذكر كل أعمال ابن إياس ، لأن له سبعة كتب ، لم يذكر منها هنا إلا ثلاثة . انظر بيلوجرافيا بأعمال ابن إياس ومخطوطاته فى : محمد حرب ، حملة السلطان سليم الأول على مصر والشام (باللغة التركية) ص ٥٢ ، استانبول ١٩٨٦ م .

توفى سنة ٩٤٥ ، له كتاب طبقات المفسرين منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٤ – أحمد بن على بن نورالدين المحلى «المعروف» «بابن زنبل الرمّال» .

عاش نحو سنة ٩٦٠ هـ ، له كتاب فى تاريخ أخذ مصر من الشراكسة» أى فتح السلطان «سليم» مصر . منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية ، وفى مكاتب فيينا وباريس وليدن ومنشن [١] . وكتاب ، «تحفة الملوك والرغائب لما فى البر والبحر من العجائب والغرائب» هو كتاب جغرافى منه نسخة خطية فى مكتبة اكسفورد. وكتاب «المقالات فى حل المشكلات» . منه نسخة فى المكتبة الخديوية . وكتاب «القانون فى الدنيا» بالنجامة .

٥ – «بدر الدين المنهاجى» – خطيب مسجد السيدة نفيسة :

توفى سنة ٩٦٠ هـ ، له كتاب «البدور السافرة فى من ولى القاهرة» ، وهى أرجوزة تشتمل على ولاة مصر من الفتح إلى سنة ٩٥٦ هـ ، منها نسخة خطية فى مكتبة فيينا . وكتاب «النجوم الزاهرة» فى ولاة القاهرة إلى سنة ٩٦١ ، منه نسخة فى المكتبة الخديوية وأخرى فى مكتبة برلين .

---

(١) يقصد ميونخ .

٦ – «عبد الواحد البرجمى» :

توفى سنة ١٠١٧ ، له كتاب «الرياض الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة» ، منه نسخة فى مكتبة الجزائر .

٧ – «محمد بن عبد المعطى الإسحاقى المنوفى» :

كتب نحو سنة ١٠٣٢ هـ له :

١ – كتاب «الروض الباسم فى أخبار من مضى من العوالم» وهو مختصر تاريخ الإسلام من ظهوره إلى دولة الأمويين، فالعباسيين ، فالفاطميين ، فالأيوبيين ، وتاريخ مصر إلى سنة ١٠٣٢ ، منه نسخ خطية فى مكاتب باريس والمتحف البريطانى ، وأحسبه طبع .

٢ – كتاب «لطائف أخبار الأول فى من تصرف بمصر من الدول» طبع بمصر مراراً .

٨ – «عبد الكريم أفندى بن سنان» :

توفى سنة ١٠٤٥ ، كان قاضياً فى حلب وجاء مصر . له كتاب «تراجم كبار العلماء والوزراء» ، منه نسخة خطية فى مكتبة فيينا .

٩ – «سعد الدين الغمرى» :

كتب سنة ١٠٥٠ هـ ، له كتاب «ذخيرات الأعلام بتاريخ

أمراء مصر فى الإسلام» ، منه نسخة خطية فى برلين ، وغوطا ، وباريس .

١٠ - شمس الدين بن أبى السرور البكرى الصديقى المصرى» : توفى سنة ١٠٦٠ هـ ، لـه :

١ - كتاب «التحفة البهية فى تملك آل عثمان الديار المصرية» منه نسخة خطية فى فيينا وغيرها .

٢ - كتاب «الروضة الزهية فى ولاة مصر القاهرة المعزية» من أقدم الزمان إلى سنة ١٠٣٥ هـ ، منها نسخ خطية فى «غوطاً» و «أكسفورد» .

٣ - كتاب «الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة» إلى سنة ١٠٥٣ هـ منه نسخ خطية فى مكاتب منشن والمتحف البريطانى وباريس .

٤ - كتاب «نور المعالى الغالية» منه نسخة خطية فى مكتبة نور عثمانية بالأستانة .

١١ - «إبراهيم بن أبى بكر الصالحى العوفى» :

توفى سنة ١٠٧١ هـ ، له كتاب «تراجم الصواعق فى واقعات السناجق» وهو تراجم سناجق مصر - أى أغواتها وأمرائها . ومنه نسخة خطية فى مكاتب منشن وباريس .

١٢ – «عبد القادر الفيومى العوفى الحنفى»

ولد فى القاهرة ، وتعلم فيها وفى حلب ودمشق والأستانة . ثم تعين قاضياً على القاهرة . ثم عاد إلى الأستانة وغيرها ، وتوفى أخيرا فى الأستانة سنة ١٠٧١ . له كتاب «التذكرة» و «بلوغ الأرب» و «السؤول للتشوق بذكر نسب الرسول» ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية وغيرها ، وله كتاب «نفائس اللؤلؤ والمرجان فى إعراب محلات من سورة آل عمران» .

٣ – اللغويون

١ – «أبو بكر الشنوانى» :

تعلم فى القاهرة ، وتوفى فى سنة ١٠١٩ هـ ، وله كتاب «جلية أهل الكمال بأجوبة أسئلة الجلال» – يعنى «جلال الدين السيوطى» منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٢ – «شهاب الدين الخفاجى» :

توفى سنة ١٠٦٩ هـ ، ولد فى سرياقوس بضواحى القاهرة ، وتعلم على عمه «الشنوانى» – المتقدم ذكره – ثم جاء القاهرة ورحل إلى الأستانة وسلانيك ، وعينه السلطان «مراد» قاضياً للعسكر فى مصر فجاءها . ثم نقل منها إلى «دمشق»

وحلب فالأستانة حتى توفى . وقد ترجم نفسه فى ذيل كتابه «ريحانة الألباء» – الآتى ذكره – .

وأما كتبه فمنها :

١ – منظومات كثيرة متفرقة منها جانب فى نسخة خطية بالمكتبة الخديوية .

٢ – كتاب «هدايا الزوايا فى ما فى الرجال من البقايا» وهو تراجم العلماء من معاصريه وأساتذة أبيه فى الشام والحجاز ومصر والمغرب وبلاد الروم ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية، ومثلها فى برلين وغوطا وفيينا وبطرسبورج والأستانة وغيرها .

٣ – كتاب «ريحانة الألباء ونزهة الحياة الدنيا» وهو من كتب الأدب جمع فيه أشعاراً وأخباراً و انتقادات وملاحظات مفيدة وقد طبع بمصر مراراً .

٤ – كتاب «طراز المجالس» فى كتب الأدب ، طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٤ .

٥ – «شفاء الغليل فى ما فى كلام العرب من الدخيل» ، طبع بمصر سنة ١٢٨٢ وغيرها .

٦ – شرح درة الغواص ، منها نسخة فى مكتبة أكسفورد.

٧ - شرح كتاب الشفاء فيها .

٨ - حاشية على البيضاوى فيها أيضا .

٤ - المحدثون

١ - «شمس الدين الدمشقى الفالحى» :

توفى فى البرقوقية بالقاهرة سنة ٩٤٢ هـ ، له :

١ - كتاب «سبل الهدى والإرشاد فى سيرة خير العباد» وتعرف «بالسيرة الشامية» ، وهى مشهورة ، ومنها نسخة خطية فى المكتبة الخديوية ، وأحسبه طبع .

٢ - كتاب «الآيات العظيمة الباهرة فى معراج سيد أهل الدنيا والآخرة» منه نسخة خطية فى مكتبة ليدن .

٣ - «عقود الجمان فى مناقب الإمام أبى حنيفة النعمان» منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية وفى فيينا وآياصوفيا .

٤ - كتاب «مطلع النور فى فضل الطور وقمع المعتدى الكفور» ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٥ - كتاب «الفضل المبين فى الصبر عند فقد البنات والبنين» منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٢ - «عبد الرءوف المناوى الشافعى» :

توفى سنة ١٠٣١ هـ ، ولد فى القاهرة ، ونشأ فى حجر والده ،

ودرس العلوم الإسلامية ، خصوصاً التصوف ، والحديث ، وأخذ طريقة الخلوتية وطرقاً أخرى ، وتولى التدريس فى المدرسة الصالحية ، وكثر حساده ، والطاعنون عليه ، واعتل وقاسى آلاماً شديدة حتى مات . له مؤلفات كثيرة نذكر الباقى منها :

١ – «كنوز الحقيقة فى حديث خير الخليقة» مرتب على الأبجدية وفيه نحو ١٠,٠٠٠ حديث . طبع فى بولاق سنة ١٢٨٦ وفى القاهرة ١٣٠٥ ، وله مختصرات .

٢ – «الجامع الأزهر من حديث النبى الأنور» ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٣ – «الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية» ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٤ – النزهة الزاهية فى أحكام المحاكم الشرعية ، منه نسخة فى المكتبة الخديوية .

٥ – «تيسير الوقوف على غوامض الحكام والوقوف ، منه نسخة فى المكتبة الخديوية ، وله غير ذلك كتب كثيرة لا محل لذكرها آثارها موجودة فى المكتبة الخديوية .

٣ – «على بن إبراهيم نور الدين الحلبى القاهرى» صاحب

السيره الحلبية . ولد فى القاهرة وتوفى بالصالحية سنة ١٠٤٤ هـ أشهر مؤلفاته

١ - كتاب «إنسان العيون فى سيرة الأمين والمأمون» المشهور بالسيرة الحلبية ، وقد طبع فى ثلاثة مجلدات ضخمة .

٢ - «النصيحة العلوية فى بيان حسن طريقة السادة الأحمدية» (أحمد البدوى) ، منه نسخة خطية فى مكتبة باريس .

٣ - «عقد المرجان في ما يتعلق بالجان» ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٤ - «عبد السلام اللقانى» المتوفى سنة ١٠٧٨ هـ تثقف على أبيه وورثه فى التدريس بالأزهر ، ومن مؤلفاته «كتاب ترويح الفؤاد بمولد خير العباد» ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية . المحدثون كثيرون فى هذا الدور ، يضيق المقام عن ذكرهم فنتقدم إلى الفقهاء .

٥ - الفقهـــاء

الفقـــه الحنفـــى

١ - «زين العابدين بن نجيم المصرى» المتوفى سنة ٩٧٠هـ وله من المؤلفات :

١ - كتاب الأشباه والنظائر ، وهو موجود فى كل المكاتب بأوربا وغيرها ، وطبع فى الهند سنة ١٢٤١ .

٢ – الفتاوى الزينية فى فقه الحنفية ، منه نسخة فى المكتبة الخديوية .

٣ – الفوائد الزينية فى فقه الحنفية ، منه نسخة فى مكتبة آيا صوفيا .

٤ – الخير الباقى فى جواز الوضوء فى الفساقى ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية . وله كتب ورسائل أخرى فى المكتبة الخديوية وسائر المكاتب .

٢ – «شهاب الدين التمرتاشى الغُزى»

درس فى غزة ، ثم فى القاهرة حتى توفى سنة ١٠٠٤ هـ ، وله :

١ – «تنوير الأبصار وجامع البحار» منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية ، وفى أكثر مكاتب أوربا والهند والأستانة . وله شروح عديدة لا محل لذكرها .

٢ – «عمدة الحكام» منه نسخة فى برلين .

٣ – «الوافى فى الأصول» منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٤ – «تحفة الأقران» أرجوزة مشروحة ، منها نسخة فى المكتبة الخديوية .

٥ - «عقد الجواهر النيرات فى بيان خصائص الكرام العشرة الثقات» منه نسخة فى المكتبة الخديوية .

٦ - «الفتـاوى» ، فيه أيضا .

٣ - «على بن محمد بن على بن غانم المقدسى الخزرجى نور الدين» :

ولد فى القاهرة سنة ٩٢٠ وتوفى سنة ١٠٠٤ هـ ، وتولى التدريس فى الأزهر ، وله مؤلفات عديدة بقى منها خمسة أكثرها فى الحديث ؛ موجودة فى المكتبة الخديوية خطية .

٤ - «أبو الإخلاص المصرى الشرنبلالى» :

من أكابر أساتذة الأزهر ، توفى سنة ١٠٦٩ ، وخلف مؤلفات كثيرة فى الفقه الحنفى ، بقى منها ١٦ مؤلف [1] أكثرها خطى ، ومنه أمثلة فى المكتبة الخديوية يطول بنا تعدادها ووصفها، فإن ذلك من شأن تاريخ آداب اللغة العربية ، وإنما أردنا هنا أن نأتى بأمثلة فى حال العلم فى العصر العثمانى .

٥ - «عمر الدفرى بن عمر الزهرى الأزهرى» :

وهو أيضا من أساتيذ الأزهر ، توفى سنة ١٠٧٩ هـ وله

(١) هكذا فى الأصل والصحيح فيه «مؤلفا» .

بضع مؤلفات ، منها نسخ خطية فى المكتبة الخديوية وكلها فى الفقه الحنفى .

٦ - ومثله «إبراهيم بن سليمان الأزهرى» المتوفى سنة ١١٠٠ هـ ، وغيره .

الفقه المالكى

١ - «ابن جبريل المنوفى المصرى الشاذلى» :

توفى سنة ٩٤٩ هـ ، وله كتاب «المناسك» و «تحفة المصلحين» على مذهب الإمام مالك ، وكلاهما فى المكتبة الخديوية .

٢ - «بدر الدين القرافى المصرى المالكى» :

توفى سنة ١٠٠٨ ، له رسائل فى المذهب المالكى تزيد على ست ، كلها موجودة فى المكتبة الخديوية .

٣ - «أبو النور المالكى» :

وهو أيضا من علماء المالكية الذين خلفوا آثاراً ، توفى سنة (١) .

٤ - «برهان الدين اللقانى المالكى» :

من أساتذة الأزهر ، توفى سنة ١٠٤١ هـ ، خلف مؤلفات عديدة بقى منها ستة :

(١) هكذا فى الأصل ، وهى ٩٢٦ هـ .

١ - جوهرة التوحيد ، منها نسخة خطية فى المكتبة الخديوية ، وفى أهم مكاتب أوربا ، لها شروح عديدة بعضها مطبوع فى القاهرة .

٢ - الفصول فى الفقه .

٣ - نصيحة الأصول .

٤ - مقدمة فى العشق .

٥ - شرح الشمايل وكلها منها نسخ خطية فى المكتبة الخديوية .

٥ - «نور الدين الأجهورى» :

ولد فى أجهور شمالى القاهرة سنة ٩٦٧ ، وتوفى سنة ١٠٦٦ هـ ، وكان شيخ المالكية فى الأزهر، وخلف عدة مؤلفات بقى منها إلى الآن خمسة عشر، أكثرها موجود فى المكتبة الخديوية.

ومنهم أحمد الفيومى المتوفى سنة ١٠٨٤ ، صاحب «حسن السكوك فى معرفة آداب الملوك» . و «عبد الباقى الزرقانى» المتوفى سنة ١٠٩٩ ، صاحب شرح مختصر الخليل . وغيره . و «برهان الدين الشبراخيتى ، توفى سنة ١١٠٦ هـ ، صاخب شرح المختصر و «شرح الأربعين» ، وغيرهم .

الفقه الشافعي

١ – «زين الدين أبو يحيى زكريا الأنصاري» :

هو أشهر أئمة الشافعية في ذلك العصر . ولد في سفيكة شرقي القاهرة ، وتعلم وتثقف حتى صار أستاذاً في القاهرة . ثم صار كبير قضاة الشافعية . وتوفي سنة ٩٢٦ هـ . وكان ثقة علامة، خلف مؤلفات يزيد عددها على ٣٥ كتاباً أكثرها لا يزال محفوظاً خطياً في المكاتب الشهيرة في العالم المتمدن ، وجانب كبير منها في المكتبة الخديوية ككتاب «اللؤلؤ النظيم في روم التعلم والتعليم» وكتاب «المعضد لتخلص ما في المرشد في الوقف والابتداء» ، و «فتح الرحمان بكشف ما يلبس القرآن» و «فتح الجليل ببيان خافي أنوار التنزيل للبيضاوي» و « منهاج الطلاب في الفقه» ، وغيرها كثير ، وهي فضلاً عن وجودها في المكتبة الخديوية ، توجد أيضا في أهم مكاتب أوربا .

٢ – «شهاب الدين الرملي الأنصاري» :

المتوفى سنة ٩٥٧ هـ ، وهو من أساتذة الأزهر ، وله الفتاوى المعروفة باسمه ، ومنها نسخة في المكتبة الخديوية وله غيرها .

٣ – «شمس الدين الشربينى القاهرة [١] الخطيب» :

المتوفى سنة ٩٧٧ هـ ، له شرح «منهاج الطالبين» منه نسخة فى مكتبة برلين . «والسراج المنير» فى الإعانة على معرفة ربنا العليم الخبير» ، طبع فى القاهرة سنة ١٣١١ و «مناسك الحج» طبعت أيضا ، وغيرها .

٤ – «عبد الله بن بهاء الدين الشنشورى» :

من علماء الأزهر بالقاهرة ، توفى سنة ٩٩٩ هـ ، له عدة مؤلفات منها : «المختصر فى مصطلح أهل الأثر» له شروح ، منها نسخ خطية فى مكتبة برلين وغوطا وباريس . «وقرة العين» و «الفوائد الشنشورية» و «اللؤلؤة السنية» وكلها موجود فى المكتبة الخديوية .

٥ – ومنهم «عمر الفارسكورى» المتوفى سنة ١٠١٨ هـ، و «على الشبرملى المتوفى» سنة ١٠٨٧ هـ ، و «عبد اللطيف البشبيشى» المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ ، و «إبراهيم البرماوى» الأستاذ بالأزهر ، توفى سنة ١١٠٦ ، وغيرهم ونجد من مؤلفاتهم أمثلة بالمكتبة الخديوية .

---

(١) هكذا فى الأصل .

الفقه الحنبلي

وظهر من الفقهاء الحنابلة بمصر فى ذلك العصر : «إبراهيم الزينى الحنبلى» المتوفى سنة(١) . وله كتاب : «روض المربى» فى مناسك الحج – موجود فى المكتبة الخديوية ، واعتبر ذلك فى سائر علوم القرآن .

٦ – التصوف

وناهيك بالتصوف ، فقد نبغ فيه جماعة كبيرة بمصر ، منهم : «على الشونى» المتوفى سنة ٩٤٤ هـ . «وأبو المكارم البكرى الصديقى الأشعرى» توفى سنة ٩٥٢ هـ ، وله بضعة وعشرون مؤلفاً فى التصوف ، بعضها مطبوع والبعض الآخر موجود خطأً فى المكتبة الخديوية وغيرها .

وأشهر المتصوفة فى ذلك العصر :

«أبو المواهب عبد الوهاب الشعرانى الأنصارى» ، عاش عيشة الصوفية وتوفى سنة ٩٧٣ هـ ، وله مؤلفات تعد بالعشرات منها :

١ – «الدرر المنثورة فى بيان زبد العلوم المشهورة» ، وهى كالموسوعة فى القرآن وعلومه ، واللغة ، والنحو ، والمنطق ،

---

(١) هكذا فى الأصل .

والتصوف ، منها نسخة خطية فى المكتبة الخديوية وفى مكاتب غوطا وبرلين .

٢ - «اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر» ، طبع فى القاهرة مراراً .

٣ - «فرائد القلائد فى علم العقائد» وغيره .

٤ - أشهرها كتاب «لوامع الأنوار» المعروف بطبقات الشعرانى ، طبع مراراً ، وغير هذه الكتب كثير لا محل لذكره .

ومنهم «كريم الدين الخلوتى» المتوفى سنة ٩٨٦ هـ و «أحمد بن عثمان الشرنوبى» توفى سنة ٩٩٤ هـ وأحمد بن محمد المتبولى المعيد فى المدرسة المؤيدية بالقاهرة توفى سنة ١٠٠٣ هـ . و «محمد الحجازى الجيزى» المتوفى سنة ١٠٠٣ . وقائد بن مبارك الإبيارى سنة ١٠١٦ . والبرلسى سنة ١٠٩٧ وغيرهم .

٧ - سائر العلوم

فترى مما تقدم أن أكثر اشتغال أهل ذلك العصر بالعلوم الدينية ، من شرح أو تعليق ، أو اختصار أو نحوها ، على أنه نبغ فيهم غير واحد فى العلوم الأخرى : فمن المنجمين : «بدر الدين مسبط المارديني» توفى سنة ٩٢٤ . وكان مؤقتاً فى الأزهر ، وله

عدة مؤلفات فى التوقيت ، منها نسخ خطية فى المكتبة الخديوية .

«وعبد القادر المنوفى» المتوفى سنة ٩٨٠ ، كان مؤقتاً فى مدرسة الغورية .

و«مصطفى بن شمس الدين الشركسى الدمياطى الخلوتى» المتوفى سنة ١٠٣٨ .

و «عبد الله المقدسى الأزهرى» سنة ١٠٧٠ هـ و «رضوان افندى الفلكى الرزاز» سكن بولاق وتوفى سنة ١١٢٢ وغيرهم .

ومن الأطباء فى ذلك العصر :

«مدين بن عبد الرحمن القوسونى» توفى سنة ١٠٤٤ هـ له كتاب «قاموس الأطباء» فى المفردات ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

و «شهاب الدين القليوبى» توفى سنة ١٠٦٩ م ، له كتاب المصابيح السنية فى طب البرية ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية . و «تذكرة فى الطب» فيها أيضا ، وله كتب فى مواضيع طبية وغيرها يزيد عددها على بضعة عشر مؤلفاً . أكثرها موجود فى المكتبة الخديوية خطاً ، وبعضها مطبوع ، منها كتاب «نوادر القليوبى» طبع مراراً ، وكذلك «تحفة الراغب» وغيره .

ومن العلماء الأعلام فى كل فن وعلم :

«مرعى بن يوسف بن أبى بكر الكرمى زين الدين المقدسى» المعروف «بالشيخ مرعى» . ولد فى طول الكرم قرب نابلس ، وتلقى العلم فى القدس وفى القاهرة . استقر بالقاهرة أستاذا للفقه على مذهب الحنابلة فى جامع «ابن طولون» حتى توفى سنة ١٠٣٣ هـ . وله مؤلفات عديدة ، بقى منها ٢١ كتاباً بعضها طبع وانتشر ، والبعض الآخر لا يزال خطاً فى المكاتب الشهيرة . فما طبع من كتبه كتاب ، «بديع الإنشاء والصفات فى المكاتبات والمراسلات» طبع مراراً فى الأستانة وبولاق والقاهرة . وما لم يطبع كتاب «قلائد المرجان فى الناسخ والمنسوخ من القرآن» ، منه نسخ خطية فى مكتبة برلين . وكتاب «الكلمات البينات» منه نسخة خطية بالمكتبة الخديوية ، وغيرها كثير لا محل له .

تلك خلاصة تراجم العلماء والأدباء والشعراء وأمثلة من مؤلفاتهم فى الدور الأول فى العصر العثمانى بمصر على قدر ما يسمح به المقام ، فلنعد [1] سياق التاريخ السياسى من الدور الثانى ، فما بعده .

---

(١) لعله نسى : حرف إلـى .

الـــدور الثـاني

من سيادة الدولـة العثمانة علي مصـر

من سنة ١١١٥ - ١١١٧ هـ ومن ١٧٠٣ - ١٧٦٣ م

انتقـال النفـوذ إلى المماليـك

استغرق هذا الدور ٦٢ سنة تولى فى اثنائها على العرش العثمانى أربعة سلاطين ، ويمتاز عن الدور السابق أن النفوذ فيه تحول من الجند والباشا إلى البكوات المماليك ، وقبل التقدم إلى ذكر أخبار هذا الدور نمهد الكلام فى المماليك وسيادتهم .

قد علمت من النظام الذى وضعه السلطان سليم عند فتح مصر أنه جعل للأمراء الذين بقوا من دولة المماليك عميلاً يكون وسيلة للموازنة بين سلطة الباشا وقوة الجند لأن أولئك الأمراء كانوا أعداء لكلا الفريقين . فجعلهم حكاماً على الأقاليم وهى ١٢ إقليماً أو سنجقية (مديرية) (١) يتولى كلا منها أمير من المماليك

(١) الواقع ان العثمانيين قسموا مصر إلى أربع عشرة ولاية سبع منها فى كل وجه (بحرى – قبلى) انظر : حسين افندى الروزنامجي : ترتيب الديار المصرية نشر / شفيق غربال بعنوان «مصر عند مفترق الطرق (١٧٩٨ – ١٨٠٠م) مجلة كلية الآداب المجلد الرابع جـ١ ، مايو سنة ١٩٣٦ ، الباب السادس السؤال الأول ص ٣٢ .

بلقب بك ، ولذلك عرف الأمراء المماليك أيضا بالبكوات المصرلية . ومنهم أمير يتولى حكومة القاهرة كانوا يسمونه : «شيخ البلد» . ومشيخة البلد منصب ضعيف في حد ذاته ، لكن الأحوال جعلته أهم مناصب مصر . وكان الأمراء المماليك كعادتهم في أيام سلطنتهم يتوقون بالاستكثار من المماليك بالشراء . ومنهم تتألف الأحزاب وينسب الحزب صاحبه [٢] أو زعيمه ، فيقولون مثلا : المماليك القاسمية نسبة إلى : «قاسم بك» والرضوانية إلى رضوان بك كما سترى .

وكانوا في أول سلطنة العثمانيين قد أدهشهم الفتح وقنعوا بالبقاء في مناصب الحكومة . وكانت الدولة العثمانية شديدة ولها هيبة .

فلما ذهبت هيبتها بتوالي الزمن – كما تقدم – اشتدت سواعدهم ، وصاروا يحتقرون ولاتها ، ولا سيما بعد أن وقع الخلاف بين الباشوات والجند وتداخلوا ، وجعل النفوذ يتحول إليهم رويداً رويداً على مقتضى الأحوال حتى صار منصب شيخ البلد أهم المناصب وصاحبه أعظم الأمراء ، وإليه يرجع الحل والعقد – فلنعد إلى سياق التاريخ .

(١) هكذا في الأصل ولعله نسي حرف إلى .

١ - سلطنة أحمد بن محمد

من سنة ١١١٥ - ١١٤٣ أو من ١٧٠٣ - ١٧٣٠

تولى السلطان أحمد المذكور وعمره بضع وثلاثون سنة . وكان حكيما ، فأنعم على الإنكشارية بالأموال وفوض إليهم قتل المفتى «فيض الله افندى» لأنه قاومهم فى أعمالهم فلما استقر الأمر وثبت قدمه فى الدولة ، اقتص من الإنكشارية ، فقتل منهم جمعاً كبيراً وعزل رئيسهم - الأغا - وولى عليهم ابن اخته الداماد «حسن باشا» . ولكن الدسائس غلبت على هذا التعيين فعزل وتولى غيره . وتكاثر عزل الصدور ، وشغلت الدولة بداخليتها عن خارجيتها ، ولم تنتبه لما كان يجربه «بطرس الأكبر» [١] ملك الروس فى بلاده ولا إلى سياسته فى خارجها ، وهى تقضى بإضعاف جيرانه حتى يبتلعهم . وكان قد أخذ بإخراج مشروعه إلى حيز العمل ، فحارب شارل الثانى ملك أسوج [٢] وغلبه .

وافضت الوزارة إلى «محمد باشا البلطجى» فمال إلى إشهار الحرب على الروس وقاد الجيوش بنفسه . وبعد وقائع عديدة حصر العثمانيون إمبراطور الروس وامرأته ، ولو طال

(١) بطرس الأكبر : ١٦٧٢ م - ١٧٢٥ م .

(٢) هى السويد .

الحصار لغلبوا على امرهم وسلموا [1] ، ولكن «كاثرينا» زوجة الإمبراطور «بطرس» استمالت «البلطجى» المذكور ، وأغرته بالجواهر ، فأعطته كل ماكان معها منها ، فرفع الحصار واكتفى بمعاهدة لم تغن الدولة فتيلاً .

وتوالى الصدور ، وهم مختلفون ميلاً إلى الحرب أو السلْم فكانت حال الدولة تختلف لاختلاف ذلك مما ليس هو محل الكلام عليه .

وفى عهد هذا السلطان ، دخلت الطباعة المملكة العثمانية ، وتأسست دار الطباعة فى الأستانة بفتوى من شيخ الإسلام تقضى أن لا يطبع القرآن بحروف الطباعة ، خوفاً من وقوع التحريف فيه ، وتولى على «مصر» سنة ١١١٩ «حسن باشا» والياً.

قاسم بك وذو الفقار بك
أو المماليك القاسمية والفقارية

أما مصر فصار النفوذ فيها إلى الأمراء المماليك – كما تقدم – وكانوا فى أيام هذا السلطان حزبين كبيرين يُعرفان بالمماليك «القاسمية» نسبة إلى «قاسم بك» و «الفقارية» إلى «ذى

---

(١) الصحيح لغلبا على أمرهما وسلما .

الفقار بك» وكان هذان الحزبان لا ينفكان عن المنافسة ، يحاول كل منهما اكتساب النفوذ دون الآخر .

اما أصل هذين الحزبين ففيه أقوال منها : أنهما ينسبان إلى أخوين هما : « قاسم بك» و «ذو الفقار بك» ولدى سودون أحد أمراء المماليك فى عهد السلطان «سليم الفاتح» وأن السلطان سليم هو الذى نشطهما ونشط أحزابهما .

وقد ذكر «الجبرتى» لذلك قصة طويلة لا حاجة بنا إلى ذكرها .

وبعضهم يقول إن هذين الحزبين يُنسبان إلى «قاسم عيواظ بك» الدفتردار و «ذى الفقار بك الكبير» سنة ١٠٥٠ هـ (١) . وكان «قاسم عيواظ» رئيس الطائفة القاسمية ، وذو الفقار رئيس

(١) الصحيح ان الاسم الذى ذكرته المصادر المعاصرة هو قاسم بك الدفتردار الذى ينسبون إليه فرق القاسمية ، وذو الفقار بك رأس فرقة الفقارية . أما إضافة اسم عيواظ (عرض : كما تذكره الوثائق ولكنه ينطق عيواظ حسب لهجة الأتراك) فقد أوقع المؤلف فى خطأ تخطى معه فترة طويلة من تاريخ مصر العثمانى فقاسم بك الدفتردار حسب رواية الجبرتى كان سنة ١٠٥٠ هـ أما الخلط الذى وقع فيه المؤلف بين شخصية قاسم الدفتردار وشخصية بك مملوك قاسمى وهو عيواظ بك الذى قتل ابان ثورة إفرنج أحمد ١٧١١ م فليس هناك علاقة بين قاسم الدفتردار وعيواظ بك سوى إنهما قاسميان . المحقق .

الفقارية . وكان لكل من هاتين الطائفتين مناقب خاصة بها .

«الفقارية» : كانت توصف بالكثرة والسخاء و«القاسمية» : بالثروة والبخل .

وشارية «الفقارية» : علم أبيض مزاريقه رمانة .

والقاسمية : علم أحمر .

وكانت هاتان الفئتان قبل تولى «حسن باشا» المتقدم ذكره، فى وفاق تام . فلما جاء خشى من اتحادهما فعمد إلى الدسائس ، فألقى بينهما الشقاق فحصلت بين الطائفتين وقائع دامت ثمانين يوماً ، فكانوا يخرجون من القاهرة إلى مكان يعرف بقبة العزب يومياً ، ويأخذون فى الكفاح من شروق الشمس إلى غروبها ثم يعودون إلى القاهرة ، فيقضون الليل بسلام فى بيوتهم بين نسائهم وأولادهم ثم يعودون فى الصباح إلى المحاربة . ومن الغريب أن هذه المحاربات لم تؤثر فى الراحة العمومية مطلقاً ، فظلت الأشغال جارية فى مجراها والحوانيت والمخازن تفتح وتقفل كالعادة .

مشيخة إسماعيل بك

وانتهت تلك الوقائع بوفاة «قاسم عيواظ بك» فأسف عليه الناس ، وبكوه بكاءهم على حاكم عادل أو أب حنون بار . ولم يبق

صديق ولا عدو إلا بكاه ، لأنه كان فضلاً عن حكمته وعدله ودعته شجاعاً باسلاً أبى النفس . فأقاموا ابنه «إسماعيل بك» مكانه «شيخ بلد» .

وقد تقدم أن مشيخة البلد منصب كان يتولاه أحد البكوات المماليك ، كما يتولون إدارة المديريات ؛ ويقابل محافظ القاهرة اليوم .

ولم يكن المنصب نفسه مُهما ، لكن تراخى الباشوات واستفحال أمر المماليك جعل لهذا المنصب أهمية كبرى حتى أفضى بتوالى الأيام إلى صاحبه ، وصار إليه الأمر والنهى – كما سترى .

ولما تولى السلطان «أحمد» كان على مشيخة البلد «قاسم عيواظ بك» – المتقدم ذكره – فلما مات ، خلفه ابنه «إسماعيل» وصادق الباشا على ذلك لظنه أن إسماعيل لصغر سنه ، يكون آلة فى يده يديرها كيف شاء ، فازداد كدر «ذى الفقار بك» واشتد حنقه ، لأنه كان ينتظر أن يئول ذلك المنصب إليه .

وكان «إسماعيل» عاقلا حكيماً كوالده ، عارفاً وجه الربح والحق ، فسعى فى الوفاق مع طائفة الفقارية ، فاتحدت الطائفتان

على الباشا . وكان إسماعيل من الجهة الأخرى يظهر الطاعة والرضوخ لأحكام الباشا لأنه رئيسه ، لكنه لم ينفك ساعياً سراً فى خلعه ، فكتب عنه إلى الأستانة ففاز بعزله ، فجاء غيره ثم أبدل بآخر فآخر «وإسماعيل بك» فى منصبه يحبونه إلى ما يشبه العبادة .

ومما يحكى عنه أن أحد تجار القاهرة فى أيامه واسمه : «عثمان» باع لأحد القبقجية (لقب الحرس السلطانى) ثلاثمائة قفة بُن إلى أجل مسمى ، وكتب عليه بذلك صكاً . فقبل الاستحقاق جاء الاستانة إعلان بخيانة القبقجى والحكم عليه بالإعدام حالاً ، فجىء به إلى الباشا ، فقتله ، ووضع يده على تركته ، وفيها البن كما هو . فعلم «عثمان» التاجر بذلك ، فعرض لإسماعيل ما كان من أمر البُن فأجبر الباشا أن يرجع البن لصاحبه قبل كل شىء ، ففعل ، فأصبح «عثمان» فى حال من الامتنان لا يعرف كيف يبينها، فلاح له أن يهديه علبة مرصعة ، وبضعة قناطير من السكر النقى ، فرفض «إسماعيل بك» الهدية ، وخاطب عثمان التاجر قائلاً : «إذا كان المال الذى حصلت عليه بواسطتى حقاً لك، فأكون

قد فعلت الواجب على ، والله يكافئنى ، فإذا قبلت هديتك أظلم نفسى . أما إذا كان هذا المال ليس لك وإنما حصلت عليه بالخيانة فقبولى هديتك يعد مشاركة لك فى الخيانة . لكننى مع ذلك أقبل السكر الذى حملته إلى على أن تقبض ثمنه من وكيلى لأننى سآمره أن يدفعه إليك» .

ويحكى عنه أيضاً أنه كان يأدب فى ليالى رمضان مآدبات يجتمع إليها العلماء والفقهاء ومشائخ والقراء القرآن [1] ، ولم يكن يؤذن لغير هؤلاء فى الحضور فيها . فرأى ذات ليلة رجلاً بين الحضور عليه ملامح الكآبة ، فأوصى بعض الخدم متى انفض الاجتماع ، أن يأتوا به إليه ، ففعلوا . فلما حضر بين يديه ، أعطاه مصحفاً ، وأمره أن يتلو عليه سورة . فتوقف الرجل وَجِلاً ، ثم ترامى على قدمى البيك متضرعاً وقال : «يعش سيدى البك إنى رجل نجار لا أعرف القراءة ، وإنما اتيت إلى هذه المأدبة متنكراً بثوب الفقهاء لأملأ جوفى من الطعام ، فإنى فى حالة من الفاقة شديدة» . فأنصفه . ولم يكتف بالإغضاء عن ذنبه لكنه جعله فى

(١) هكذا فى الأصل .

عداد خَدَمَته ، وجعل لعائلته راتباً معيناً وصار هذا النجار بعد ذلك من أصدق الخدمة وأكثرهم عزة وهمة (١) .

وما زال «إسماعيل» بك شيخاً للبلد ١٦ سنة ، تقلب فى أثنائها على «مصر» عدة باشوات كانوا إسماً بلا مسمى .

وكان لحسن سياسته قد أوقف الفقاريين عن كل حركة لتظاهره أنه على وفاق معهم ، فلم يترك لهم فرصة يتحدون بها عليه ، على أنه ارتكب خطأ واحداً آل إلى قتله . وذلك أن أحد المماليك الفقارية واسمه «ذو الفقار» أيضا كان له عقار يقوم بنفقات عائلته ، فاختلسه منه أحد المماليك القاسمية - من مماليك إسماعيل - ، فرفع «ذو الفقار» دعواه إلى شيخ البلد إسماعيل ، فلم يصغ لطلبه فرفع دعواه إلى زعيم الفقارية ، ويقال له «شركس بك» . وكان خصماً لإسماعيل بك بالفطرة ، فسار إلى الباشا وخاطبه بشأن تصرف إسماعيل . وكان فى قلب الباشا حزازات من الحسد عليه ، فوافقه على الإيقاع به ، ثم قال له :

«ليس لك وسيلة أفضل من أن تبعث أحد مماليكك وتأمره

(١) قصة : الرجل النجار الأمى مع إسماعيل بك اورد هذه القصة إسماعيل الخشاب فى مخطوطته (تاريخ المماليك فى القاهرة) محفوظ بدار الكتب المصرية (٢١٤٨ تاريخ طلعت) .

بقتله وأنا أجعل له جميع ما يتركه من المال والنساء مكافأة لأتعابه» .

فوافقه على رأيه ، وعين لتلك الفعلة أول يوم يجتمع فيه الديوان ، وأمر مملوكه «ذو الفقار» أن يستعد لإجرائها ، فقبل اعتماداً على وعد الباشا. ففى اليوم المعين ، جاء «ذو الفقار» إلى الديوان وفيه «إسماعيل بك» فتقدم إليه وقبل يده قائلاً :

أرجو أن تأمر بإرجاع عقارى إلىّ . فأجابه «إسماعيل بك» سننظر فى طلبك هذا . فألح عليه ، فانتهره ، فاستل خنجراً ماضياً بَقَر به بطنه ، فتدفقت أمعاؤه ، ومات ساعته فى وسط الديوان ، فهجم رجال الباشا ، وقتلوا كل من كان هناك من رجال إسماعيل ، ولم ينج منهم إلا سريع العدو . هكذا كانت نهاية حكم إسماعيل بك سنة ١١٣٦ هـ فنقلت جثته إلى بيته . ثم دفنت بجانب جثة أبيه بجوار باب اللوق .

فتولى مشيخة البلد «شركس بك» واستولى «ذو الفقار» على جميع ممتلكات «إسماعيل بك» ونسائه حسب وعد الباشا فأصبح رجلا عظيماً يشار إليه بالبنان ، وفى حوزته مئات من المماليك ، فخافه «شركس بك» وأخذ يسعى فى إذاقته ما أذاقه

لإسماعيل بك . فعلم « ذو الفقار » بتلك الدسائس ، فجمع إليه رجاله ، وفيهم عدة من رجال العثمانيين ، وهجم على شركس بك ، فجرت واقعة لم يستطع رجال شركس الثبات فيها أكثر من ربع ساعة فقتل معظمهم ، وفر الباقون ، وزعيمهم معهم يطلبون الصعيد وهو الملجأ الوحيد للبكوات المغضوب عليهم .

ذو الفقار بك

فتولى ذو الفقار مكانه مع لقب بك ، بعد أن أقر الباشا على ذلك ، وأصبح ذو الفقار عدواً لأترابه البكوات ، وعلى الخصوص لأبى دفية ، وسمى بذلك لأنه كان يتشح برداء كبير يقال له دفية ، ثم أنبىء «ذو الفقار بك» أن أبا دفية ساعٍ فى إهلاكه ، وحاول ذلك مراراً ولم ينجح .

أما «شركس بك» فجمع دعاته فى الصعيد ، وسار بهم نحو القاهرة ، فأرسل «ذو الفقار بك» «عثمان كاشف» أحد كبار قواده فى فرقة من المماليك لمحاربته ، فتقهقر «شركس» ورجاله فراراً حتى لحق ببلاد البربر .

فسكر «ذو الفقار» من خمرة النصر ، وأخذ فى الانتقام من البكوات الذين فى القاهرة ، وقتل منهم من يظن فيه الانتماء إلى

«شركس بك» ، وهم كثيرون - فاتحد من بقى حياً مع رئيس الشرطة ، والأغا رئيس الإنكشارية ، وبعثوا إلى شركس بك بماكان من فعلة «ذى الفقار» وتعاهدوا جميعاً على محاربته ، وانضم إليهم «مصطفى القرد» وكان من أعداء ذى الفقار ومعه جماعة من الرجال الأشداء ، فقدم «شركس بك» إلى القطر المصرى ، فعلم «ذو الفقار» بذلك ، فجمع إليه العلماء والمشائخ ، وشاورهم في الأمر ، فاجمعوا على عدم مناسبة الهجوم فى تلك الحال ، إلا إذا تأكد الفوز ، فلم يصغ لمشورتهم ، فأرسل «عثمان بك» أحد قواته لمحاربة «شركس بك» ، فحصل بينهما واقعة ، قتل فيها «مصطفى القرد» وغرق «شركس بك» فى النيل وهو يحاول الفرار .

فبعث «عثمان بك» برأسيهما إلى «ذى الفقار».. أما هذا فلم يهنأ بذلك النصر لأنه قتل بعد قتل عدوه «شركس» بيومين ، بمكيدة أعدها له البكوات فى القاهرة وذلك أنهم ألبسوا واحداً منهم دفية ، وجاءوا به إلى بين يدى «ذى الفقار» وقالوا له : «هذا أبو دفية قد جعله الله فى أيدينا» . وكانوا قد جعلوا تحت دفيته عيارين ناريين ، فلما وقف بين يديه ، اطلقهما دفعة واحدة ، فسقط

«ذو الفقار» مضرجاً بدمائه فى وسط ديوانه سنة ١١٤٢ هـ ، فعلم «عثمان بك» بما أصاب رئيسه ، فهرع للأخذ بثأره ، فدخل القاهرة ، وجعل يفتك بمن يصادفه فى طريقه ، فخافه الجميع .

ثم أن « محمد بك » أحد البكوات الذين كان يترقبهم «عثمان بك» رأى منصب مشيخة البلد خالياً فطمع فيه ، فعاهد صديقه « صالح كاشف » على أن يقتلوا من بقى من زملائه البكوات بمكيدة ينصبها لهم . فأدب « محمد بك » مأدبة فاخرة دعاهم إليها ، فلبوا دعوته . ثم علموا بمكيدته فقاوموه مقاومة شديدة وتمكنوا من قتله. فيئس «صالح كاشف» من مرامه ، ففر إلى القسطنطينية بعد أن شاهد رؤوس البكوات ملقاة على الطريق أمام جامع الحسين .

ثم عقب هذه القلاقل ضربة أشد وطأة ، نعنى الوباء الذى أصاب مصر فى تلك السنة ، ويدعى طاعون الكى ، فإنه انتشر فى البلاد انتشاراً سريعاً ، وفتك فى العباد فتكاً ذريعاً ووافق كل هذه الضربات خلع السلطان أحمد الثالث فى جمادى الأولى سنة ١١٤٣ هـ .

٢ - سلطنة محمود بن مصطفى

من سنة ١١٤٣ - ١١٦٨ هـ ومن ١٧٣٠ - ١٧٥٤ م

هو محمود الأول ، ولد سنة ١١٠٨ هـ ، فكانت سنه لما تولى العرش العثمانى ٣٥ سنة ، وكان النفوذ عند توليه لرئيس الإنكشارية حتى نقم عليه الإنكشارية أنفسهم ، فقتلوه وعادت السكينة وأمن الناس .

وفى أيامه ظهر «نادر شاه» (١) القائد الفارسى الملقب «بنابليون الشرق» لكثرة فتوحه وكانت الدولة تحارب الفرس ، وكانت تذهب فيها ، فعاض «نادر شاه» ووقف فى طريقها .

وجرت فى أيام هذا السلطان حروب ومعاهدات مع دول أوربا . وقد توفى السلطان المذكور ، وأسفه العثمانيون لأنه كان عادلاً حليماً فيه ميل إلى المساواة بين الرعايا .

وفى أيامه اتسع نطاق المملكة العثمانية بآسيا وأوربا وعقد معاهدة فى بلغراد مع الروس محت العار السابق .

ومن آثاره أنه أسس أربع كتبخانات ألحقها بجوامع آيا صوفيا ، ومحمد الفاتح ، والوالدة وغلطه سراى .

---

(١) نادر شاه : ١٦٨٨ - ١٧٤٧ ، كان شاها لإيران فى الفترة من ١٧٣٦ - ١٧٤٧ .

وكان الباشوات الذين تولوا مصر فى أيامه أكثر أهلية من سابقيهم ، ولكن الأحكام كانت بالحقيقة قائمة بمشائخ البلد ، ولهم الحل والعقد لا يستطيع الباشوات معارضتهم فى شىء .

مشيخة عثمان بك

فبعد قتل ذى الفقار بك تولى مكانه عثمان بك ، المتقدم ذكره . فرقى كثيرين من مماليكه إلى رتبة البكوية ليقوموا مقام الذين هلكوا بالحوادث الأخيرة .

وكان «عثمان بك» عادلاً حازماً ، ولكنه كان صارماً لا يراعى فى تنفيذ العدل جانباً ، فعلم أن أحد بكواته سعى فى إقليمه ظلما فاستدعاه إليه ، فتحقق ارتكابه ، فقطع رأسه .

ويحكى عن «عثمان بك» حوادث كثيرة تشير إلى حزمه واستقامته ، وقسطه ، لا بأس من ذكر بعضها على سبيل المثال :-

يحكى أن حمّاراً من حمّارى القاهرة أراد ترميم مذود حماره ، وهو يفعل ذلك عثر فى أحد جدران البيت على وعاء مملوء ذهب [1] ، ففرح جداً ، وأخذ الوعاء وسلمه إلى امرأته ، واوصاها أن تكتم الأمر لئلا ينكشف للحكومة ، فتأخذ المال منه لأن لها

(١) الصحيح أن تكون ذهبا .

وحدها الحق بالاستيلاء على مخزونات الأرض . فطلبت المرأة من زوجها أن يبتاع لها حلياً وثيابا فاخرة لتتمتع بتلك الهبة . فأبى زوجها إجابة طلبها لئلا يئول ذلك إلى كشف الحقيقة ، فاغتاظت ، وأسرعت لساعتها ووشت به إلى «عثمان بك» فاستدعى الحمّار ، وبعد أن سمع حقيقة الحال صرفه قائلاً : « احفظ ما وهبك الله ، وطلق امرأتك ، وعش بسلام» .

ولما جاء الوباء إلى مصر ، كان «عثمان بك» فى أول حكمه، فلما رأى الجوع الذى عقب الوباء ، فتح مخازنه وخزائنه ، وفرق الأقوات والأموال فى الناس . ومع ذلك لم يستطع النجاة من مكايد ذوى المطامع ، وفى مقدمتهم «إبراهيم وإسماعيل رضوان» الأول كخيا الإنكشارية ، والآخر كخيا العَزَب ، وكان كلاهما من المماليك، الواحد من طائفة الكُزدغلية ، والآخر من طائفة الجلفية ، وأصل الطائفة الأولى مملوك يقال له : «الكزدغلى» كان سروجياً ، وأصل الطائفة الثانية «أحمد الجلفى» كان فى أول أمره شيّالا ، وأغناه الله بطريقة فى غاية الغرابة - لا بأس من ذكرها وهى :

جاء بعض المماليك إلى إحدى معاصر الزيت ليبتاع مئونة بيته من الزيت مدة السنة ، وكان «أحمد الجلفى» فى تلك المعصرة،

فابتاع المملوك الزيت ، واستأجر «أحمدا» فحمله وسا
بلغ بيته ، فأنزل الحمل ووقف ينتظر أجرته ، فجاءه ا
إليه أن يساعده فى إخفاء مبلغ من النقود فى أحد جد
وألح عليه أن يكتم الأمر سراً ، وأعطاه بضعة دراهم م
فساعده ، وأخذ الدراهم وسار فى سبيله حامداً شد
ثلاثين يوماً اتفق له المرور بالقرب من ذلك البيت ، فشد
متجمعة ، ثم علم أن ذلك المملوك توفى وقد تركته لل
أحمد وابتاع البيت الذى فيه المخبأة ، وبعد انقض
استخرج النقود ، وسار بها إلى قريته «جلف» فى الد
ممتلكات كثيرة .

ثم اتسعت ثروته ، وما زال حتى أصبح ز
كبيرة نسبت إليه .

وكان «إبراهيم وإسماعيل رضوان» فى بادئ
تباين كلى بالأدبيات والماديات : كان إبراهيم فى ضي
مع إقدام وبسالة ومطامع كبيرة . وكان «إسماعيل»
يهمه إلا التمتع باللذات والشهوات . فكان إبراهيم فم
إسماعيل ولذلك كان يتقرب منه . ثم تزوج «إبراهيم

البارودى» أحد التجار الأغنياء ، وأخذ معها مالاً كثيراً ، فتمكن بذلك من التقرب إلى بيت شيخ البلد ، وإلقاء المفاسد فيه بواسطة بعض المماليك والأتراك وغيرهم من ذوى الرتب ، كان يستعملهم آلة لتنفيذ مآربه .

ثم تأتى له الارتقاء إلى رتبة البكوية مع صديقه «إسماعيل رضوان» فصار اسمه «رضوان بك» ، واتحد الإثنان على السراء والضراء ، ووحدا ممتلكاتهما ، واجتزءا بالسواء فى محصولاتها . فأوجس «عثمان بك» خيفة من سرعة نمو ثروتهما ، وملافاة لما كان يخشى حدوثه من طموح أنظارهما ضم إليه ثلاثة أحزاب : أحـدهما حزب « إبراهيم بك القطامش » وفيه ثلاثة بكوات . والثانى حزب «على بك الدمياطى» وفيه بيكان والثالث حزب «على كخيا الطويل»، وشاورهم فى الأمر فأقروا على قتل «إبراهيم بك» ، وكان إذ ذاك كخيا الإنكشارية، و «رضوان بك» ، فوافقوه على ما أراد .

وكان وكيله أحمد السكرى من مماليك «إبراهيم بك» فلم يمكنه كتمان ذلك عنه ، فجاء إليه وأخبره بجميع ما كان من التواطؤ على قتله وقتل رفيقه ، فسار الحال إلى «رضوان بك»

وأخبره وتشاوروا بشأن ذلك ، فقررا نصب أحبولة يقتلان
«عثمان بك» ، فبعث إليه رجالاً يترصدونه في طريقه إلى ا
فمرّ ووثبوا عليه ، ففر بجواده حتى دخل القلعة ، ولم يظفروا
فلاقاه وكيله وقد أضمر له الشر فسأله عما ألم به ، فأخبره
كان ، فكلمه بلسان الثعلب ناصحاً له أن يبرح المدينة حالاً ،
الناس قد قاموا يطلبون قتله ، وما زال حتى أقنعه ففر
«سوريا» وسار هو معه حتى إذا دنوا من غزة تنحى أحمد
الطريق، واختبأ في قرية يقال لها : الأشرفية ، بحجة استط
الأحوال لحماية «عثمان بك» فتربص هناك مدة ثم عاد
«القاهرة» بمن معه من المماليك ، وسار إلى «إبراهيم بك» وأ
بما فعله ، فكافأه على تلك الخيانة برتبة البكوية ، وهمّ الأه
ببيت عثمان فأحرقوه ، واقتسموا تركته .

أما هو فوصل «سوريا» وحده ، وسار منها إلى الأستا
صة ولبث فيها حتى توفاه الله . وجميع هذه الحوا
ـر» في أثناء سنة ١١٥٦ هـ .

إبراهيم كخيا ورضوان بك

فلما خرج «عثمان بك» من «مصر» صفا الجو «لإبراهيم كخيا» و «رضوان بك» . فعملا على إبادة الأحزاب التى تآمرت عليهما فأخذ «رضوان بك» على نفسه قتل «على كخيا الطويل» . فأمر أحد مماليكه أن يقتله بالرصاص فى وليمة حافلة ، فلبى المملوك الأمر ، لكنه أخطأ الرمى . وعوضاً من أن يصيب «عليا» أصاب مملوكه الذى كان بجانبه ، فقبض عليه وقتل للحال .

أما «إبراهيم كخيا» فتكفل لإهلاك من بقى من الأحزاب ، وكان على ولاية مصر إذ ذاك «كيور أحمد باشا» فطلب إليه إبراهيم أن يوافقه على إبادة البكوات ، فوافقه . وربما فعل ذلك ، خوفاً منه أو لأنه يعود عليه بالنفع الشخصى ، واستعانوا بالنقود ، فبذلوها فسهلت مشروعهم حتى قتلوا «على بك الدمياطى» بيد وكيله «سليمان» فى وسط الديوان . وقد وعدهم هذا بتسليم رؤوس البكوات الآخرين من أحزابه . فأمر «إبراهيم كخيا» و «رضوان بك» أن تقفل جميع منافذ القلعة على من فيها من البكوات المَنْوِى قتلهم ، وجعلا على بابى الإنكشارية والعزب جنداً . وحافظ «سليمان» على وعده ، فبوشرت المذبحة وأول من قتل فيها «خليل

بك» من دعاة «الدمياطى» و «محمد بك» من دعاة «قطامش» وكثيرون غيرهم .

وحاول «على بك» و «عمر بك البلاّط» الفرار ، فتبعهما الباشا بنفسه . ثم لاقاهما «إبراهيم» و «رضوان» وقتلاهما عند باب القلعة ، ولم يدفن من القتلى إلا «محمد بك» و «خليل بك» .

ولم يبق من مناظرى «إبراهيم كخيا» و «رضوان بك» إلا «إبراهيم قطامش» و «على كخيا الطويل» ، فالأول مات من الحزن بعد مدة قصيرة ، والثانى هاجر من تلقاء نفسه تاركاً الدار تنعى من بناها ، فصفا الجو لإبراهيم كخيا ، فتولى مشيخة البلد وسمى «رضوان بك» أميراً للحج ثم جعلا يتبادلان هذين كل سنة ، وعاد كل منهما إلى ميله الطبيعى : «إبراهيم» إلى مطامعه ، و «رضوان» إلى ملاهيه . فأخذ «إبراهيم كخيا» يفسد الأحكام ، ويستخدمها لاسترجاع ما بذله للحصول عليها ، فلم يغادر وسيلة إلا استخدمها فى سبيل مطامعه من قتل وهتك .

فابتدأ بسليمان قاتل «على بك الدمياطى» ، فحجر عليه فى القلعة ، ولم يفرج عنه حتى استرجع منه ما كان أعطاه من النقود ، ثم باغت من بقى من الأغنياء فى القاهرة ، ووضع يده على

ممتلكاتهم بعد أن قتل بعضاً منهم ، وبقى البعض الآخر فاستولى في يوم واحد على أموال ثمانين بيتاً من بيوت القاهرة ، ووضع يده على محصولات البلاد والجمارك والقرى والمخازن حتى الحوانيت الصغيرة ، فلم يبق ولم يذر .

وكان «كيور أحمد باشا» قد استدعى إلى الأستانة ، وولى حكومة قبرص فأقيم مقامه باشا آخر سنة ١١٥٦ هـ فعامله «إبراهيم كخيا» بالاحتقار ، فحقد عليه . ثم اتفق غياب «إبراهيم» في قافلة الحج إلى مكة ، فاغتنم الباشا غيابه . وتواطأ مع «حسين بك الخشاب» على مكيدة يعدانها لإبراهيم . فاتفق على أن يقوم الخشاب بقتل «إبراهيم» ورفيقه «رضوان» وأن يكافئه الباشا على ذلك بمشيخة البلد .

فلما رجع «إبراهيم» سعى «الخشاب» في إنجاز وعده ، ففاز بالقبض على الإثنين ، فسجنهما في القلعة ، فولاه الباشا مشيخة البلد ، لكنه لم يهنأ بها لأن دعاة «إبراهيم كخيا» اتحدوا وهجموا على «حسين بك» والباشا ، وأخرجوا المسجونين ، ففر الخشاب إلى مصر العليا واختبأ من إبراهيم في بلاد النوبة . أما الباشا ، فاستدعى إلى الأستانة وعاقبه السلطان عقاباً انتهى بالموت .

نشأة على بك الكبير

وكان فى حوزة «إبراهيم كخيا» أكثر من ألفى مملوك ، من جملتهم «على» الذى سيلقب بعلى بك الكبير ويكون له شأن عظيم لهذا التاريخ ، وسترى فى سيرته أنه من أفراد الدهر حزما وبطشا وحكمة . وكان «على» سلحداراً بين مماليك «إبراهيم كخيا» وكان إبراهيم يحبه كثيرا ويجل مواهبه حتى جعله ناقل سيفه . ومما زاده تعلقاً به أنه اصطحبه إلى الحرمين فى قافلة . وكان قد صار كاشفا فسار قائداً لتلك القافلة ، فلاقاهم فى الطريق عصابة من اللصوص ، فدفعهم «علىّ» بقلب لا يهاب الموت ، فلقبوه بالجنّى . ولما رجع «إبراهيم كخيا» إلى القاهرة عزم على مكافأة «علىّ» برتبة بك ، لكن صغر سنه ودسيسة الخشاب حالا دون ذلك .

ثم عقب ذلك مشاغل أكثر أهمية زاد الأمر تأخيراً وذلك أنه جاء القاهرة خبر وصول باشا جديد إلى الإسكندرية بدلاً من الباشا الذى أخرج منها ، وكان من عادة رجال الحكومة فى مصر إذا علموا بمجيء باشا جديد أن يبعثوا وفداً يلاقونه فى الإسكندرية ، وفيهم العيون والجواسيس فيحيطون به يستطلعون مقاصده ونواياه ويطلعون على ما فى يده من الأوامر السلطانية ، فإذا رأوا تلك الأوامر سليمة ومقاصده حسنة رحبوا به وفتحوا له

الطريق حتى يصل بولاق ، فيحتفل الأمراء بلقائه . أما إذا تبينوا من أحواله غير ذلك ، وبلغوا الأمراء بالقاهرة فيجتمعون ويقررون إعلانه أن يقف حيث هو ، ويكتبون إلى ديوان الأستانة بعدم موافقة ذلك الباشا الجديد ، وأن بقاءه فى مصر مخل بالنظام العمومى أو ربما حمل الرعية على الثورة . ثم يطلبون استبداله بآخر أكثر موافقة للبلاد منه .

فلما اتصل بهم خبر قدوم هذا الباشا واسمه «راغب محمد باشا» سار شيخ البلد بنفسه لاستقباله ومعه البكوات فخلع على كل واحد منهم خلعة كالمعتاد ، ثم اجتمعوا جميعاً بجلسة رسمية وأقسموا على الطاعة والإخلاص لأمير المؤمنين ، وأحب الأمراء «راغب باشا» محبة عظيمة لأنه عرف كيف يعامل شيخ البلد ، فأحبته الرعية ومالوا بكليتهم إليه فقضى بين ظهرانيهم سنتين كلهما سلام وطمأنينة حتى أجمع البكوات على استبقائه بينهم زمناً وهم فى ذلك ، ورد إلى الباشا خط شريف أن يسعى جهده فى قطع دابر البكوات ، وفى جملتهم شيخ البلد ومن يلوذ به ، فاستنتج الباشا من نص ذلك الخط أن ديوان الأستانة مشتبه بتصرفه فى مصر وأنه وشى إلى جلالة السلطان بأن اتفاقه مع بكوات مصر ليس إلا لعزمه على استخدامه فى مآربه بالاستقلال

بحكومة مصر وإخراجها من طاعة الدولة العلية . فوقع فى حيرة وتردد بين أن ينفذ الأوامر الشاهانية مع ما فيها من الخطر ، أو أن يعصيها ، أو يؤخرها ، فيعرض حياته للخطر ويؤيد التشكيات التى تقدمت بحقه .

وبعد أن نظر فى المسألة من سائر وجوهها ، فضل الفتك بأصدقائه البكوات ، فتواطأ مع عصابة من رجاله أنه متى اجتمع البكوات فى مجلسه ، فليكونوا على استعداد للهجوم عليهم معاً عند أول إشارة .

ففعلوا ما أمرهم به ، لكنهم لم يفوزوا كل الفوز لأن ثلاثة من البكوات تمكنوا من النجاة ، وفى مقدمتهم شيخ البلد بعد أن جاهدوا الجهاد الحسن وأوسعوا الباشا تعنيفاً على فعلته هذه التى لم يكونوا ينتظرونها من بعد ما أظهروه نحوه من اللطف والإخلاص . فبرأ ساحته باطلاعهم على الفرمان السرى الوارد له بهذا الصدد . فكفوا عن الإنتقام منه ، لكنهم عزلوه . وكتبوا إلى الأستانة يطلبون بدله ، وعينوا ثلاثة بكوات فى مكان الثلاثة الذين قتلوا بتلك المكيدة .

واغتنم «إبراهيم كخيا» هذه الفرصة لترقية «علىّ» كاشفاً فرقاه إلى رتبة بك ، فشق ذلك على أحد البكوات المدعو «إبراهيم

بك» شركسى المولد يعرف «بإبراهيم بك الشركسى» وكان من دعاة «إبراهيم كخيا» لكنه تظاهر عند ذلك بعداوته ، ونمت بينهما الظغائن ولم تنته إلا بقتل «إبراهيم كخيا» بعد ذلك بخمس سنوات بيد «إبراهيم بك الشركسى» المذكور سنة ١١٦٨ هـ . وفى تلك السنة ، توفى السلطان «محمود بن مصطفى» .

سلطنة عثمان بن مصطفى
من سنة ١١٦٨ - ١١٧١ هـ
أو من ١٧٥٤ - ١٧٥٧ م

هو عثمان الثالث ، ولم يحكم إلا ثلاث سنوات لم يحدث فى أثنامها (١) ما يستحق الذكر فى المملكة العثمانية حتى فى مصر . فإن «إبراهيم الشركسى» شفى غليله بقتل «إبراهيم كخيا» لكنه لم يروا مطامعه ، لأن مشيخة البلد انتقلت إلى «رضوان بك» صديق «إبراهيم كخيا» .

ثم ظهر لرضوان منافس آخر من زعماء حزب إبراهيم يقال له «حسين بك» أصبح بعد قتل الكخيا أكبر رجال ذلك الحزب، فادعى لنفسه الأولوية بمشيخة البلد ، فلم تقبل دعواه ، فجمع إليه بعض دعاته المماليك ، وصعد إلى قلعة القاهرة واستولى على

(١) الصحيح : أثنائها .

بطارية من المدافع تشرف على بركة الفيل حيث يقيم «رضوان بك» فأطلق بعض القنابل على المنازل ، فغرقت جدرانها ، فتداعت أركانها «ورضوان بك» مشغول بحلاقة لحيته . فلما أحس بالأمر ، طلب جواده ، ولم يعل ظهره حتى اصيب برصاصة كسرت فخذه ، وتمكن من الفرار ومعه بعض المماليك إلى قرية الشيخ «عثمان» وهناك توقف عن المسير لزيادة الألم ، ومعه رئيس الضابطة ، وكان مجروحاً ثم توفى الاثنان ودفنا معاً .

فسمى «حسين بك» من ذلك الحين «شيخ البلد» وأخذ يتقرب من أترابه البكوات وهم لا يزيدون منه إلا نفوراً . ولم تمض بضعة أشهر من توليته ، حتى كمنوا له فى مكان مصاطب النشاب فى السهل الواقع بين القاهرة وأرض «إبراهيم بك» وكان مشتغلاً بعرض جنوده المماليك ، فهموا به وذبحوه ثم قطعوه إرباً إرباً وصار يعرف من ذلك الحين بحسين بك المقتول ، وتولى مكانه «خليل بك» واشتهر بحب القتل . وكان متظاهراً بالعداوة والحسد لعلى بك على الخصوص لاعتقاده أنه أشد أعدائه وطأة وأقواهم عزيمة .

سلطنة مصطفى بن محمد
من سنة ١١٧١ - ١١٨٧ هـ
- أو من ١٧٥٧ - ١٧٧٤م

وهو «مصطفى الثالث» تولى الملك وسنه ٣٢ سنة ، وكان ميالاً إلى الإصلاح ، ووزّر له «راغب باشا» وهو ذو حزم ونشاط وعمل ، فأعانه فى ما أراده من الإصلاحات وحفظ السلام طوال حياته . فلما توفى عادت «روسيا» إلى الحرب ، وكانت «كاترينة» الثانية إمبراطورة الروس ، قد تولت العرش الروسى بعد «بطرس»، فعينت صديقها «ستسلاس يونياتسكى» ملكاً على «بولونيا» وكان ذلك مخالفاً للمعاهدة بين «روسيا» والدولة ، وإنما عمدت «كاترينة» إلى خرق هذه المعاهدة عملاً بوصية «بطرس الأكبر» وهى تقضى أن يبذل الروس جهدهم فى إزالة الحواجز الثلاثة الحائلة بينهم وبين أوربا الغربية ، وهى «أسوج [1]» و «بولونيا» و «الدولة العثمانية وقد أزيل الحاجز الأول باستيلاء «الروس» على الولايات الأسوجية الفاصلة بينها وبين «ألمانيا» ، وأزيل الثانى تقريبا بتعيين أحد أتباع الإمبراطورة على «بولونيا» ، ولم يبق إلا إزالة الدولة العثمانية من «أوربا» .

(١) السويد .

فتنبهت الدولة لهذا الخطر ، لكن بعد فوات الفرصة ، إذ كان ينبغى لها أن تنجد شارل الثانى عشر على «الروس» ولكنها عمدت إلى استدراك ما فات ، وفتحت حرباً طال أمدها، وتعاظم لهيبها ، وبذلت كل من الدولتين جهدها فى التغلب ، وأرسلت «روسيا» عمارتها إلى البحر الأبيض لمصادرة السفن العثمانية وضرب الثغور العثمانية فاغتنم «على بك الكبير» تلك الفرصة ، واستعان «بالروس» على استقلاله بمصر فى الدولة العثمانية (١) ، كما سيجىء .

وكان «على بك» كثير الإخلاص «لإبراهيم كخيا» لا ينفك ساعياً فى الانتقام له ، ولكنه كان يرى السبيل الأقرب والأسهل لبلوغ مرامه ، إنما هو القوة ، فأخفى ما فى ضميره ثمانى سنوات ، اشتغل فى أثنائها بجمع القوة ، فابتاع عدداً وافراً من المماليك ، ووطد علائقه مع البكوات الآخرين واكتسب ثقتهم بما كان يظهره من الغيرة عليهم والإخلاص لهم ، وما كان يكرمهم به من الهدايا . وما زال يخطو خطوة بعد أخرى حتى اقترب من النقطة المطلوبة ، فأوجس «خليل بك» خيفة منه ، وجعل يتجسس حركاته بالأرصاد والعيون ، ويعد المكائد فى شوارع «القاهرة» .

(١) ينظر إلى هذه الحادثة فى ادبيات التاريخ العثمانى على أنها خيانة . المحقق .

ففى ذات يوم هجم عليه «حسين كشكش» «بأمر خليل بك» وبعد واقعة هائلة أضطر «على بك» أن يفر إلى الصعيد فى طائفة من أصدقائه البكوات ، يستعد للانتقام مضاعفا .

فصرح «خليل بك» أن «على بك» وأتباعه البكوات مجردون من رتبهم وحقوقهم ، وولى مكانهم بكوات من ذويه ، وقتل من ظفر به فى القاهرة من أصدقاء «على بك» أو المنتمين إليه ، أما «على بك» فالتقى فى الصعيد بواحد من مماليك «مصطفى أنور» يدعى «صالح بك» كان منفياً هناك وفى قلبه من «خليل بك» حزازات فاتحد الإثنان ورجالهما وزحفا على «القاهرة» فخرج «خليل بك» و «حسين بك كشكش» ، فدارت رحى الحرب ، فكان الفوز «لعلى» ورفيقه . فطاردا «خليل بك» ورجاله حتى قطعوا مديرية «القليوبية» وأوصلوهم إلى المسجد الأخضر على ضفاف النيل ، واشتد الكفاح هناك ، فالتجأ «خليل بك» ورجاله إلى «طنطا» . فبعث «على بك» كاشفه «محمد» الملقب «بأبى الذهب» ليهاجمهم ، فهاجمهم ، واستلم «طنطا» بعد أن قتل «حسين كشكش» . أما «خليل بك» فاختبأ بالمسجد وبقى فيه ، وقد غلبه الجوع ، ثم قبض عليه ، ونفى إلى «الإسكندرية» وخنق هناك ، ونقلوا رؤوس القتلى إلى القاهرة ، وطافوا بها فى أسواقها .

الـدور الثالـث
لسيادة الدولة العثمانية علي مصر
أو
على بك الكبيـر
مـن سنة ١١٧٧ - ١١٨٥ هـ ،
أو مـن سنـة ١٧٦٣ - ١٧٦٤ م (١)

فتمكن «على بك» بهذا الانتصار من استلام مشيخة البلد «فى القاهرة» سنة ١١٧٧ هـ ، وأول أمر باشره قتل «إبراهيم الشركسى» الذى قتل سيده ، فثارت عليه أحزابه يطلبون الانتقام ، وهم عديدون ، فخاف على بك على حياته ففر إلى «سوريا» والتجأ إلى متسلم (حاكم) بيت المقدس ، وكانت بينهما صداقة قديمة إلا أن هذا الملجأ لم يحمه إلا شهرين ، لأن أعداءه البكوات لما علموا بمقره شكوه للسلطان «مصطفى» وأخبروه بمقره . فأنفذ إلى متسلم القدس فرماناً يأمره به أن يرسل «على بك» مخفوراً إلى الباب العالى .

فعلم «على بك» بذلك ، ففر إلى «عكا» ، وهناك اكتسب

(١) الصحيح ١٧٦٣ - ١٧٧٣ م .

صداقة الشيخ «ضاهر العمر» [1] أمير تلك المدينة الحصينة فأكرم وفادته وسعى في تبرئته أمام الباب العالى ، وبمساعدة نصرانه من أصدقاء «إبراهيم كخيا» اكتسب له العفو من الحضرة السلطانية ، فألغيت الأوامر بالقبض عليه . وأعيد إلى «القاهرة» بمنصبه الأول .

وفى سنة ١١٧٩ هـ – أى بعد ذلك بسنتين ، هدد «على بك» بالإقالة من ذلك المنصب ، وذلك أن «محمد راغب باشا» الذى كان على مصر وعزل منها «على ماهر بك» كان يتذكر كرم أخلاق «على بك» منذ كان كاشفاً ، فبعد استقالته من مصر ، ولى بر الأناطول [2] ، وبعد تسع سنوات صار صدراً أعظم ، وما انفك متذكراً صداقة «على بك» لا يفتر عن معاضدته ، وتسهيل مطالبه سراً وجهراً .

ففى سنة ١١٧٩ هـ ، توفى الوزير «محمد راغب باشا» المذكور ، فأصبح «على بك» فى حاجة لمن يعضده ، فاغتنم أعداؤه هذه الفرصة ، ووشوا به إلى الأستانة ، فاضطر أن يفر إلى

---

(١) الشيخ ضاهر العمر : (١٦٩٥ – ١٧٨٢) شيخ بنى زيدان فى بلاد صفد . انظر مادته فى المنجد فى الاعلام . ٤٤١ / ٢ .

(٢) وهو الاناضول .

اليمن، ولم تأت سنة ١١٨٠ هـ حتى عاد إلى القاهرة ، واسترجع منصبه بمساعدة أحزابه وموت أربعة من دعاة «إبراهيم الشركسي» . ثم تراءى له أن صديقه «صالح بك» تحدثه نفسه بخرج حرمة الصداقة ، واتباع داعى المطامع الشخصية ، فوكل أمر قتله إلى «إبراهيم كاشف» أحد أتباعه ، فقتله طعناً ، وسترى أن «إبراهيم» هذا سيرتقى حتى يتولى مشيخة البلد .

ورأى «على بك» أن قبائل العربان فى مصر السفلى قد شقت عصا الطاعة ، فأنفذ إليها أحد مماليكه المدعو «أحمد» فى فرقة من الرجال ، فحارب أولئك العربان ، وأمعن فى قتلهم حتى لقبوه بالجزار ، وهو الذى تولى «عكا» بعدئذ واشتهر «بأحمد باشا الجزار». أما من بقى من أعداء «على بك» فخافوا ولزموا السكوت، وتحقق تخلصه من القلاقل والمفاسد والمقاومات، ورأى من باب الاحتياط والحرص أن يرقى ثمانية عشر مملوكاً من أتباعه إلى رتبة البكوية لينصروه وقت الحاجة وهى اسماؤهم : ـ

١ – رضـــــوان . ابن أخيه من جورجيا

٢ – على الطنطاوى . من جورجيا

٣ – إسمـاعيـل . من جورجيا

٤ - خليل .	من جورجيا
٥ - عبد الرحمن .	من جورجيا
٦ - حسن .	من جورجيا
٧ - يوسف .	من جورجيا
٨ - ذو الفقار .	من جورجيا
٩ - عجيب .	من جورجيا
١٠- مصطفى .	من جورجيا
١١- أحمد الجزار.	من أماسيا
١٢- سليم أغا .	انكشارى
١٣- سليمان كخيا .	انكشارى
١٤- لطيف الشركسى .	شركسى
١٥- عثمان .	شركسى
١٦- إبراهيم .	شركسى
١٧- مراد .	شركسى

ولهذين الأخيرين شأن فى هذين [1] التاريخ لأنهما سيتنازعان السلطة بمصر .

(١) المؤلف يكتبها هذين والصواب : هذا .

١٨- محـــمـد .

وكان يعز محمداً أكثر من الجميع وستراه رجلاً عقوقاً منكراً للجميل [1] . ولما تقلد البكوية لقب بأبى الذهب ، فأحب أن يجعل هذا اللقب اسماً على مسمى ، فتظاهر بالكرم المفرط وبدلاً من أن يفرق العطايا بالبارات ، فرقها بالأرباع .

أما «على بك» فكان ساهراً مصلحة البلاد سهراً تاما ، وكان مخلصاً فى أعماله ، فطهر البلاد من اللصوص ، وسعى جهده فى إصلاح شئونها ، فساد الأمن فيها بعد أن كانت معرضاً للقلاقل والمفاسد . ولم تقف مطامع «على بك» عند هذا الحد ، فإنه رأى من تحامل الواشين بينه وبين ديوان الأستانة ، وإيقاع ذوى الأغراض به وبسلطته ، ما حمله على السعى فى الاستقلال بمصر، وتجريدها من رعاية الدولة العثمانية ، لكنه كتم مقاصده ، وجعل يسعى فى تنفيذها تحت طى الخفاء .

---

(١) يقف جورجى زيدان موقفا من محمد بك أبى الذهب ويعتبره كما اورد ، أما كتب التاريخ العثمانى فترى العكس .

مساعيه فى سبيل الاستقلال

وأول خطوة خطاها نحو هذه الغاية ، أنه انتحل أسباباً بنى عليها عزل مستخدمى المُلكية والجهادية ورؤساء الوجاقات ، واستبدلهم برجال على دعوته إلا وجاق الإنكشارية فإنه لم يمسه بعد أن تمكن من استبقائه تحت حمايته وسد جميع السبل التى يمكنه بها التطرق إلى مقاومته . وأخّر دفع مرتبات الوجاقات الأخرى عمداً ، وصار يدفع رواتبهم أقساطاً عملة ورق بول كانت تخسر المائة منها تسعين ، فكان يربح أرباحاً عظيمة باسترجاع الورق بالأثمان البخسة ، وصرفه ثانية بثمنه الأصلى . فلما رأت رجال الوجاقات أنهم لا يستولون من ماهياتهم إلا على العشر، كرهوا الاستخدام بالعسكرية ، وجعلوا يستقيلون منها شيئاً فشيئاً ويتعاطون أشغالاً أخرى أكثر فائدة لهم .

ثم سعى فى تقليل العساكر العثمانية واستخدام المماليك من دعاته حتى صاروا نحو ستة آلاف ، وحظر على سائر البكوات والكشاف الذين يخشى تغيرهم عليه أن يقتنى أحدهم أكثر من مملوك أو مملوكين . وكان على ولاية مصر إذ ذاك «محمد باشا» فأزعجته إجراءات «على بك» وخشى عاقبتها ، فنصح له أن يقف

عند حده ، فلم يكترث بقوله . فأقر على مقاومته لأن هذه الإجراءات مضادة لمصلحة الباب العالى ، ولكنه لم يكن يستطيع المجاهرة بمقاصده هذه . فأخذ يدسها سراً ، واتحد مع من بقى من دعاة «إبراهيم الشركسى» وأجمعوا على الانتقام من «على بك»، ثم جعلوا يسعون فساداً بين أحزابه واستجلبوا بعضا منهم إلى جانبهم بالمواعيد المبنية على الحسد والطمع . وفى جملة هؤلاء «محمد بك أبو الذهب» الذى طمره «على بك» بفضله حتى أزوجه ابنته ، وكان يناديه كما ينادى أولاده . ولم يكونوا يستطيعون تنفيذ مآربهم جهاراً ، فأغروا صهره «محمد بك» المذكور بالمال ووعده إنه إذا قتل «على بك» يتولى المشيخة مكانه ، فقبل .

لكنه علم بعدئذ أنه يقصر عن مناوأة «على بك» واستعظم الجناية ، فعدل عنها إلى جناية تقرب منها ، وذلك أنه شكى إلى «على بك» معاملة الباشا له ، فأسرع إلى انقاذه منه ، وما انفك عن الباشا حتى أخرجه من مصر ، فعاد إلى الأستانة ، ولم يزدد «على بك» إلا ثقة فى «محمد بك أبو الذهب» وإخلاصه له ، رغم ما كان ينقل إليه عنه من السعى ضده .

وفى سنة ١١٨٢ هـ ، انتشبت الحرب بين روسيا والدولة

العلية ، فبعثت هذه إلى مصر أن تمدها بإثنى عشر ألفاً ، فوصلت الأوامر لعلى بك بذلك ومشروعه لم ينضج بعد ، فلم يسعه إلا مباشرة ما أمر به لما ابتدأ بجمع الجنود . أما أعداؤه فاغتنموا تلك الفرصة للوشاية ، فضموا إليهم الباشا الجديد الذى كان قد أرسل إلى القسطنطينية بدلاً من الباشا الذى أخرجه «على بك» . واتفقوا جميعاً على كتابة تقرير أمضاه الباشا وسائر البكوات أعداء «على» يشون به إلى الديوان الشاهانى بدعوى انه إنما أراد بما يجمعه من الجيوش معاضدة روسيا للاستقلال بمصر ، فأنفذ الديوان الشاهانى إلى الباشا أمراً مشدداً أن يقتل «على بك» ويرسل رأسه إلى الأستانة .

فاتصل ذلك لعلى بواسطة أصدقائه بالأستانة فبعث «على بك طنطاوى» أحد دعاته فى عشرة من أتباعه المماليك ، متنكرين بلباس البدو ويكمنون على مسافة قصيرة من القاهرة حيث لابد للقابجى باشى حامل ذلك الفرمان من المرور به ، فمكثوا هناك ثلاثة أيام . وفى يوم الرابع بان لهم القابجى ومعه أربعة رجال ، فوثبوا بهم وقتلوهم وطمروهم بالرمل ، وأخذوا ملابسهم والفرمان وصاروا إلى «على» فقرأه .

ثم جمع إليه ديوان البكوات العمومي وأطلعهم عليه وأقنعهم أن ذلك ليس لقتله وحده بل لقتلهم جميعاً . ثم خاطبهم قائلاً :

«دافعوا إذاً عن حياتهم وحقوقهم واعلموا أن مصر ما برحت منذ القدم يحكمها دول من المماليك كانوا سلاطين أشداء تفاخر بهم الأرض السماء فاعيدوها إليهم وهذه فرصة لا يضيعوها . فإنهم لن تعثروا عمركم على فرصة مثلها . هلم إذاً نسعى فى الاستقلال ، فإن فيه حياتنا وحريتنا» .

استقلال على بك بمصر

فتأثر البكوات من فصاحة «على» وبلاغته (١) ، وكانوا ثمانية عشر ، قد أجمعوا على دعوته ، فعاهدوه على الدفاع عنه ما استطاعوا إلى الدفاع سبيلاً . أما سائر الأمراء المماليك من أعدائه فخافوا العاقبة ، ولزموا السكوت ، فكتب ديوان «على بك» أمراً إلى الباشا أن يبرح الديار المصرية فى ٤٨ ساعة ، وإذا لم يفعل ؛ يقتل وأن مصر قد اصبحت مستقلة . وبعث على إلى الشيخ «ضاهر العمر» أمير عكا يعلمه رسميا باستقلال مصر ، ويدعوه للمساعده فى ذلك . فأجابه الشيخ ضاهر مسروراً ، وجمع إليه

---

(١) كان على بك يتحدث بالتركية ولم يكن يعرف العربية .

رجاله ورجال بنيه السبعة وصهره . وانضم الجميع إلى جنود «على» وكان قد أضاف إلى الستة الالآف التى عنده من المماليك الإثنى عشر ألفاً التى جمعت مدداً للعثمانيين ، وأضاف إلى هذه أيضا رجال أصدقائه البكوات حتى رجال اعدائه لأنهم لم يعد يسعهم إلا طاعته .

فاتصل ذلك بالأستانة ، فأرسل الباب العالى أمراً إلى والى دمشق أن يسير فى ٢٥ ألفا لمنع جنود عكا من معاضدة «على» فسار الوالى فى ذلك العدد من الرجال ، فلاقاه الشيخ «ضاهر» فى ٦ آلاف بين لبنان وبحيرة طبرية ، ورده على أعقابه سنة ١١٨٣ هـ . وكانت هذه الواقعة آخر الوقائع لأن الباب العالى أمسك بعدها عن إرسال الجند كأنه نسى علاقته مع «سوريا» و «مصر» بالكلية .

أما «على» فاغتنم اشتغال الدولة العلية بالمحاربة مع روسيا وصرف عنايته فى تنظيم مملكته الجديدة ، وإصلاح داخليتها من الخلل . فخفض الضرائب وجعل على المالية مدير الكمرك القديم المعلم «ميخائيل فرحات القبطى» بدلاً من يوسف بن لاوى الإسرائيلى ، وكان قد قتل جزاء خيانته . ونظم التجارة الخارجية

والمواصلات ، وأبعد العربان إلى الصحراء ، فاستولى الأمن وانتشر الإصلاح فى القطر ، فزادوا على ألقاب «علىّ» لقب بلوط قبان – مبيد اللصوص (١) .

قبيـــلة الهـــوارة

وكان فى جملة القبائل الثائرة على «مصر» قبيلة «الهوارة» وهى أشدهن بأساً وأطول باعاً . جاءت فى الأصل من ضواحى تونس الغرب ، واستقرت بين «جرجا» ، «فرشوط» فى بقعة من الأرض لم تكن تصلح للزراعة . فاعتنوا فيها حتى أنشأوا عدة قرى – وما زالوا ينشرون سطوتهم حتى احتلوا البقاع بين هوارة وكفر الشيخ سليم .

ثم اغتنم الشيخ «هامان» (٢) ، شيخ الهوارة – اشتغال مصر بما تقدم ، ووضع يده على البلاد من «أسيوط» إلى

(١) الكلمة تركية ومعناها الواصل إلى السحاب ، وذلك لطول قامة على بك . ويترجم هولت هذه العبارة بمعنى «قابض الغمام» وفى رد هاوس بمعنى السحاب وهى معا يمكن ترجمتها : حاجز السحاب أو «قابض الغمام» .

(٢) الصحيح هنا الشيخ همام شيخ الهوارة : انظر دراسة د. ليلى عبد اللطيف : الصعيد فى عهد شيخ العرب همام . الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٧ .

«أصوان» [1] وجمع إليه محصولاتها ، وكان قد حارب هذه القبيلة كثيرون ممن تولوا مصر قبل «على» وفرضوا عليها ضريبة مقدارها ٢٥٠ ألف أردب من الحنطة توردها سنوياً إلى مصر .

ففى سنة ١١٨٣ هـ ، أرسل «على بك» صديقه «محمد بك أبا الذهب» لمحاربة الشيخ «هامان» وقبيلته فحاربهم وتغلب عليهم فى أواخر تلك السنة . فاضطر أبناء الشيخ أن يبتاعوا حياتهم بما لديهم من ثروة أبيهم . فربح «أبو الذهب» من ذلك مالاً كثيراً ثم أسرع إلى «القاهرة» لما علمه من الدسائس التى كان ساعياً بها رفيقه «أحمد بك الجزار» على «على بك» وكأنه لم يكن يريد أن يشاركه أحد بالدسائس على سيده .

وكان «أحمد الجزار» ينظر إلى أبى الذهب نظره إلى عدو يناظره فى ارتكاب الدنايا ، فسعى فى قتله ، فلم ينجح وكان لأحمد الجزار سيف مشهور بطيب فولاذه ، واتقان صنعه ، فاتفق يوماً أنه اجتمع «بمحمد أبى الذهب» . فقال له «محمد» : «أرنى حسامك لأجربنّ فرنده» ، فأجابه أحمد : «لا يستل حسامى حتى

---

(١) وهى أسوان .

يستباح قتيل» ، ثم نهض للحال ، وغادر القاهرة قاصداً «القسطنطينية» فوصلها . ثم عهدت إليه ولاية «عكا» بعد ذلك ، ومازال بها حتى توفاه الله .

فتوح على بك ومعاهداته

أما «على بك» فبعد أن تغلب على الصعيد ، ثار فى خاطره حب الافتتاح ، فجرد على «اليمن» جيشاً تحت قيادة «محمد أبى الذهب» فسار فى عشرين ألفاً ، فقطع برزخ السويس ، ومضيق العقبة ، ولم يبق على أحد من القبائل التى حاولت الوقوف فى طريقه ، وما زال حتى أتى اليمن وافتتحها .

وأمر «على» فسار «إسماعيل بك» فى ثمانية آلاف لافتتاح السواحل الشرقية للبحر الأحمر و «حسن بك» لافتتاح «جده» ، ولقب الجداوى إشارة إلى انتصاره على تلك المدينة ، ومازال يعرف بهذا اللقب من ذلك الحين ، ولم تمض ستة أشهر حتى افتتحت جزيرة العرب وفى جملتها «مكة المشرفة» ولحق بها نهب شديد وأنزل شريفها ، واقيم مقامه ابن عمه الأمير «عبد الله» فوافق علياً على سلطته وسماه «بسلطان مصر وخاقان البحرين» ، فعل ذلك بصفته الدينية تملقاً لعلى .

فلما حصل «على بك» على ذلك من شريف مكة ، أخذ يتمتع بحقوق السلطنة ، فأمر أن يخطب باسمه فى الصلوات العمومية أيام الجمعة ، وضربت النقود باسمه سنة ١١٨٥ فى القاهرة – كما سنرى .

وسعى «على بك» فى هذه السنة فى أمر سيق به إلى حتفه، وذلك أنه عهد إلى «محمد أبى الذهب» أن يسير فى ثلاثين ألفا لإخضاع بلاد الشام لأنه كان يعتبر هذه الولاية بعد خروجه من طاعة الدولة العلية عدواً قريباً يخشى منه على نفسه وعلى صديقه ومحالفه الشيخ «ضاهر» وكان ينظر إلى «سوريا» كأنها جزء طبيعى من مملكة مصر . وكانت فى الواقع قسماً منها فى سائر أزمنة التاريخ التى كانت فيها مصر مستقلة ، فى الدولة الطولونية والفاطمية والأيوبية والمماليك وغيرها .

وسعى «على بك» فى التحالف مع الدول التى بينها وبين الأستانة عداوة ، فاستخدم تاجراً ايطالياً اسمه «روستى» (١) عقد له معاهدة سلمية مع البندقيين على أن يكونوا حلفاءه ، ثم عهد إلى رجل أرمنى اسمه «يعقوب» أن يستطلع من الكونت «الكسيس

(١) هو كارلو روستى .

اورلوف» قومندان القوات الروسية فى البحرين (المتوسط والأسود) عن عقد معاهدة دفاعية هجومية مع قيصرة الروس «كاثرينا الثانية» . فأجاب الكونت بالإيجاب وفتحت المخابرات بشأن ذلك ، وطال أمرها كثيراً لبعد المسافة بين الطرفين .

أما جنود «على بك» فى سوريا ، فصاحبها الظفر واتحدت بجنود الشيخ «ضاهر» فاستولوا على «غزة» و «الرملة» و «نابلس» و «القدس» و «يافا» و «صيدا» ، وأخيرا حاصروا «دمشق» ولم تلبث يسيراً حتى سلمت (١) .

خيانــة أبى الذهــب

فلما رأى «محمد أبو الذهب» تمام هذه الفتوح العظيمة على يده ، حدثته نفسه أن يجعلها لنفسه ، ثم قادته مطامعه إلى محاربة على ، واستخراج مصر من يده ، ويظن أنه لم يقدم على ذلك من تلقاء نفسه ، وإنما حمل عليه بأوامر جاءته من الأستانة لأن المخابرات السرية كانت متواصلة بينه وبينها بواسطة الباشا الذى أخرجه علىّ من مصر ، فأمسك «محمد» عن المسير فى البلاد العثمانية ، وحول شكيمة مقاصده نحو الديار المصرية ،

(١) فى المخطوط صورة كاترينا الثانية .

فجمع ما كان لديه من الجيوش ، وضم إليها الحاميات التى كان قد أقامها فى المدن المفتتحة ، وسار قاصداً مصر لكنه لم يجسر على المسير إلى القاهرة رأساً خوفاً من الإنكشارية والوجاقات الأخرى لعلمه بما فى قلوبهم من الضغينة عليه . فعرج نحو الصحراء حتى أتى الصعيد . فحط رجاله هناك ، واستولى على أسيوط فى آخر يوم من سنة ١١٨٥ هـ . ثم استقدم قبائل العربان وطلب محالفتهم ومحالفة بكوات الصعيد ، وجاهر بعزمه على خلع «على بك» وسار قاصداً القاهرة ، فوصلها فى أوائل سنة ١١٨٦هـ، فنزل بجيشه تجاه البساتين فوق مصر القديمة .

فلما علم «على بك» ندم على ما وضعه من الثقة فى رجل كان له ان يعتبر من سيرته الماضية أنه على غير الإخلاص والاستقامة ، فجند ٣ آلاف رجل بقيادة «إسماعيل بك» وأمرهم أن يمنعوا محمداً من عبور النيل ، فسار إسماعيل ، لكنه خاف سطوة عدوه ، وورد عليه كتب مفعمة بالمواعيد يمازجها بعض التهديد فأخذ جانبه ، وضم جيشه إلى جيشه فقطع «محمد بك» النيل ، فاستقبله رجال إسماعيل بالترحاب ، فاتصل ذلك بعلى فيئس من الفوز ، فانقطع إلى القلعة بأهله وأصدقائه ورجال دعوته ، وقد عزم على المدافعة إلى آخر نسمة من حياته .

على بك فى عكا

وبعد ثلاثة أيام ، ورد إليه كتاب من الشيخ «أحمد» أحد أبناء صديقه الشيخ «ضاهر» أن يبرح القاهرة حالاً ويأتى إلى أبيه فى «عكا» ، فخرج علىّ من القلعة بمن معه وسار من جهة الجبل الأحمر طالباً سوريا عن طريق الصحراء . وكان خروجه قبل دخول «محمد بك» القاهرة بيوم واحد ، أى مساء ٩ محرم سنة ١١٨٦ هـ – وهذه هى المرة الثالثة لخروجه منها إلى «سوريا» وفى معيته عدد يسير من الجند لا يبلغ ستة آلاف معظمهم من الخدمة الذين لا يستطيعون الدفاع . ولم يحمل معه من المال إلا ثمانمائة ألف زر محبوب يحملها ٢٥ جملاً ، ونقل معه المصوغات والحلى ما يساوى أضعاف ذلك .

وما زالوا فى المسير ليلاً ونهاراً حتى وصلوا إلى خان يونس فى حدود سوريا بعد ثلاثة أيام . فرأوا أن خمسة من الجمال الحاملة النقود قد ذهبت فريسة بيد القبائل البدوية ، وأن عدداً من رجاله فروا ، ومعهم «يوسف الخزندار» . وفى اليوم التالى دخل «على بك» غزة . ثم واصل السير حتى أتى «عكا» بعد ثمانية أيام . فرحب به أميرها وكانت بينهما مودة شديدة ،

فاطمأن «على بك» هناك غير أن ما تكبده من المشاق فى الأسفار مع ما أثر فى نفسه من الغيظ الشديد غير صحته ، فلم يصل «عكا» إلا وهو فى حالة الخطر من شدة المرض .

وفى أثناء ذلك وصل ميناء عكا أسطول روسى ، فلما علمت حاميته بما حل «بعلى بك» عقدوا معه معاهدة ثانية وقدموا له كل ما يحتاج إليه من المؤن والذخائر . وكان فى خدمة ذلك الأسطول فرقة من الألبانيين مؤلفة من ثلاثة آلاف رجل ، فأمدوه بهم ، فلما رأى «على بك» ما كان من نجدة الروسيين مع ما يمكنه الحصول عليه من جنود الشيخ « ضاهر » عزم على مناوأة « أبى الذهب » لكنه لم يكن يستطيع مباشرة ذلك بنفسه لانحراف صحته، فعهد إلى «على بك الطنطاوى» بعد ثلاثة أشهر أن يسيروا أولاً لاسترجاع المدن السورية التى دخلت فى حوزة «محمد أبى الذهب» فسار واستولى على «صور» و «صيدا» وقرى أخرى من سواحل سوريا كانت قد احتلتها جنود عثمانية بعد انسحاب جنود «أبى الذهب» .

ثم سار «على» بنفسه مع من بقى من الجند إلى «يافا» وافتتحها بعد محاصرة خمسة أشهر استولى فى أثنائها على

«غزة» عنوة وعلى «الرملة» و «اللد» تسليما . فأعاد «يافا» إلى حكومة الشيخ «ضاهر» وجعل على «اللد» «حسن بك» الجداوى ، وعلى الرملة «سليم بك» .

محمد بك أبو الذهب

وفى ٩ القعدة سنة ١١٨٦ هـ ، كان «على بك» فى «يافا» فجاءته رسل من القاهرة بمهمة سرية من وجاق الإنكشارية والوجاقات الأخرى ، وسائر أعيان القاهرة : أن «محمد أبا الذهب» دخل القاهرة حالما خرج هو منها ، وسمى نفسه شيخ البلد ، وجعل يعيث فى البلاد عيثاً لم يسبقه إلى مثله أحد ممن تولى مصر قبله ، فجعل الضرائب ضعفين ، وبعضها ثلاثة أضعاف . ثم اختلق قانوناً غريباً دعاه : قانون رفع المظالم ، والمقصود منه بحسب الظاهر إنقاذ ملتزمى الأموال الأميرية من الإجراءات الاستبدادية التى كان يسومهم إياها الكشاف إلى ذلك العهد واستبدالها بما يعود بالمنفعة . والحقيقة أن الضرائب ما انفكت أشد وطأة من ذى قبل ، والإجراءات لم تزدد إلا استبداداً فضلاً عما رافق ذلك من الفتك بالعباد قتلاً ونهباً .

ثم قالوا إن مصر بجملتها لما رأت ما وصلت إليه من

الانحطاط ، وما لحق بأهلها من المظالم التى ما أنزل الله بها من سلطان قد أنابتهم أن يبلغوا «على بك» أنها بصوت واحد تلتمس رجوعه ليحكم فيها لأنه هو منقذها الوحيد ، وأن مدينة القاهرة مستعدة أن تفتح أبوابها لاستقبال أميرها القديم وأن تدافع عنه الدفاع الممكن إذا حاول «محمد بك أبو الذهب» ما يخالف الصوت العمومى .

خروج على بك لمحاربة أبى الذهب

فلما علم «على بك» بكل ذلك ، شعر أن آماله عادت إليه وبرح «يافا» للحال قاصداً القاهرة ، وما يكن معه من الجنود إلا ألفان وخمسمائة ، فاستنجد حاميات «اللد» و «الرملة» وانضم إليهم جنود الشيخ «ضاهر» وجنود ابنه الشيخ «شبلى» وصهره الشيخ «كريم» ، و «حسن» شيخ صور ، وكان قد استأجر ثلاثة آلاف وخمسمائة من المغاربة ، فكان عدد جنوده جملة ثمانية آلاف محارب .

ففى ١١ محرم سنة ١١٨٧ هـ ، وصل «على بك» إلى خان يونس ، وفى ١٦ منه ، اقترب «من الصالحية» . وفى ١٨ منه ، التقى بمقدمة جيوش «محمد أبى الذهب» وعدتهم إثنا عشر ألف

مقاتل ، وبعد محاربة بضع ساعات ظهر «على بك» عليهم وقتل عدداً غفيراً من رجالهم . فانفتحت له أبواب «الصالحية فدخلها وقد أصيب بجروح بليغة .

ثم علم أن اعتماده على أحزابه فى القاهرة لا يورثه إلا الخيبة لأن أبا الذهب كان قد جمع إليه كبراء البلاد ورجال حكومتها لما علم بمظاهرتهم «لعلى» وأقنعهم أن «على بك» قد غدر الأمة وخان الوطن وأباح دماء المسلمين بمعاهداته مع الروسيين وغيرهم من الأمم النصرانية . واستخدم «أبو الذهب» فى سبيل اقناعهم الدرهم الوضاح ، فانحازت إليه القوات العسكرية إلا وجاق الإنكشارية ، فإنه ظل على ولاء «على بك» .

فلما تحقق «أبو الذهب» اجتماع الأحزاب على دعوته أمن الاضطراب الداخلى فسار بنفسه لمحاربة على .

أما «على» فانزعج لتلك الأحوال انزعاجا كثيرا فضلاً عما كابده من المشاق فى السفر ، وقطع الصحراء ، وزد على ذلك الجروح التى أصابته فى واقعة «الصالحية» فأصيب بحمى شديدة عجز معها عن ركوب جواده وقيادة جنوده . وفى ٢٠ محرم سنة

١١٨٧ هـ ، علم بمجيء «أبي الذهب» وهو على ما تقدم من المرض. فلم يتردد في وجوب الدفاع . فأمر قواده ، فانتظمت رجاله على قلتها وتهيأت للدفاع . وكان على أحد جناحي الجيش «على بك الطنطاوى» ومن معه من البكوات ، وعلى الجناح الآخر ابن الشيخ ضاهر وصهره ، فاستظهرت جنود على بادىء الرأى حتى قاربت الفوز التام .

ثم أرسل «أبو الذهب» بعض جواسيسه إلى المغاربة فى جيش على يغريهم على خيانة رئيسهم ، فوافقوه ، ووافقه غيرهم كثيرون من بكوات على ، وفى جملتهم «إبراهيم بك» و «مراد بك» وهذا الأخير اشترط أن يأخذ مقابلاً لخيانته هذه ما يخلفه «على» من المتاع والنساء ، وخصوصاً امرأته «نفيسة» وكان «على» يحبها ويحترمها لما كانت عليه من الفطنة والجمال فلما انتشبت الحرب فى الصباح التالى ، انحاز جميع المغاربة والبكوات الذين خانوا ، إلى عسكر «أبى الذهب» وكانت جنود «على بك» قريبة من الفوز . فلما رأت تلك الخيانة تضعضعت ، وفر الجند يطلبون النجاة بأنفسهم بعد أن قتل «على بك الطنطاوى» و «الشيخ شبلى» ونجا «الشيخ كريم» والشيخ «حسن» و «رضوان بك» من المعركة وساروا

إلى فسطاط «على بك» وأعلموه بما حصل ، وطلبوا إليه أن يمتطى فرسه ، ويسير برفقتهم إلى غزة ، حيث يلاقيهم الشيخ «ضاهر» بمن معه من الجند .

مقتل على بك

أما «على بك» ، فأبت نفسه الإصغاء لما أرادوا ، فجلس بباب خيمته وقال لهم : «إني ملازم هذا الموضع لا أبرحه حتى تبرحني نفسي ، لأن الموت هنا أفضل عندى من الفرار ، أما أنتم إذا شئتم النجاة بأنفسكم ، فبادروا إلى الفرار قبل أن يغشاكم ما ربما لا تقوون على دفعه» .

فاضطر ابن أخيه ورجاله الباقون أن يذعنوا لما أمر ، فودعوه ، وحوّلوا الأعنة فى طريق خان يونس ، قاصدين «غزة» فلقوا الشيخ «ضاهراً» هناك، فأعلموه بما كان ، وبوفاة ابنه فأسف كثيرا .

ومكث «على بك» بعد ذهاب أصدقائه بضع ساعات ينتظر منيته ، وبجانبه عشرة من مماليكه وإذا بخمسين رجلاً تحت قيادة الكخيا ؛ نائب «محمد أبى الذهب» قد وصلوا الخيمة ودخلوها وقتلوا من كان فيها من المماليك . ثم وثبوا على «على» ، وكان

المرض مشتدا عليه وفيه جروح ، لكنه نهض بسفه فقتل أول قادم عليه ، وجرح اثنين آخرين فخاف الباقون الاقتراب منه، فأطلقوا عليه البنادق فجرحوه جروحاً بليغة فى زراعة اليمنى وفخذه ، فجعل يدافع بيسراه دفاعاً شديداً إلى أن وثب عليه الكخيا بنفسه، فدافعه «على» حتى أصيب بذراعه اليسرى ، وفى أماكن أخرى ، فسقط على الأرض وهو لا ينفك عن الدفا ع ، فتكاثرت عليه الرجال حتى أمسكوه حياً . وساروا به إلى «محمد أبى الذهب» وطرحوه عند قدميه فأمر بحمله إلى القاهرة ، فحملوه إليها، وأنزلوه فى داره بدرب عبد الحق فى شارع البكرى - وراء صندوق الدين - فلبث فيها سبعة أيام ثم توفاه الله . وقد قال بعضهم أن «أبا الذهب» أدخل السم فى جراحه فقتله - والله أعلم - ، ودفنوه بتربة أستاذه «إبراهيم كخيا» بجوار الإمام الشافعى . وكان لموت هذا الرجل تأثير عظيم فى قلب كل من عرفه حتى أن أبا الذهب نفسه لم يسعه إلا الندم فى سره ، لما فرط منه، وما أتاه من نكران الجميل وارتكاب مثل هذه الخيانة .

منـــاقبـة

ومن مناقب «على بك» أنه كان عظيم الهيبة حتى اتفق لأناس أنهم ماتوا خوفاً من هيبته ، وكانت تأخذ الرعدة بعضهم بمجرد المثول بين يديه ، فيأخذ هو بتلطيف رعبه فيقول : «هوّن عليك» ، وكان صحيح الفراسة ، شديد الحذق ، يفهم ملخص الدعوى الطويلة بين المتخاصمين ، ولا يحتاج فى التفهيم إلى ترجمان أو من يقرأ له الصكوك والوثائق بل يقرؤها هو بنفسه ، ولا يختم ورقة حتى يقرأها ويفهم فحواها .

مـآثــره : البناية العظيمة «بطنطا» ، وهى المسجد والجامع والقبة على مقام السيد البدوى ، والمكاتب والميضاة الكبيرة ، والحنفيات ، والمنارتان العظيمتان ، والسبيل المواجه للقبة، والقيسارية العظيمة ، وجدد أيضا قبة الإمام الشافعى ، وبنايات ووكالات فى بولاق مصر . ولا يزال هذا الرجل مميزاً عن المؤرخين بلقب الكبير ، فيدعونه : «على بك الكبير» .

وقد ضرب نقودا باسمه بمصر . وقد أضاف اسمه إلى اسم السلطان أحمد خان على الطغراء اسم السلطان المذكور، واسم «على» على الجانب الآخر.

وبموت «على بك» انتهى الدور الثالث من سلطة العثمانيين على مصر .

الـدور الرابع من سلطـنة العثـمانيـين علـي مصـر

مـــن ســـنة ١١٨٧ - ١٢١٣ هـ -

ومـــن ١٧٧٤ - ١٧٩٨ م

لم يتوال على العرش العثمانى فى أثناء هذا الدور إلا سلطانان ، مدة حكمهما جميعاً ٢٥ سنة ، والحال متضعضعة كما سترى .

١ - سلطنة عبد الحميد الأول

من سنة ١١٨٧ - ١٢٠٣ هـ -

ومن ١٧٧٤ - ١٧٨٩ م

هو ابن السلطان أحمد ، تولى العرش العثمانى وسنه خمسون سنة . وكان قد قضى مدة حكم أخيه مصطفى محجوراً عليه فى قصره - كما جرت العادة - ولم يستطع توزيع المال على الجند حسب العادة ، لنضوب الخزينة فى الحروب الماضية وكانت قد عادت ظافرة منها ، فأخذت روسيا تستعد لاسترجاع ما فقدته من الشهرة .

ففى تلك السنة ، زحفت جنودها على نهر الطونة (١) واجتازته ، فاعترضهم العثمانيون وهزموهم ، وعادوا فتناوشوا وتحاربوا ، وانتهت الحرب بمعاهدة فى يوليو سنة ١٧٧٤ كانت روسيا فيها الرابحة ، لكن العثمانيين تفرغوا لإصلاح داخليتهم والتأهب للمستقبل ، فرمموا الأسطول ، واشتغلوا بالإصلاح ، وتعدت روسيا على القرم وضمتها إلى أملاكها ، ولم يحرك العثمانون ساكناً .

أما حال مصر ، فبعد وفاة «على بك» عاد وادى النيل إلى ما كان عليه قبله تابعاً لأملاك الدولة العلية ، وعادت أحكامه إلى مشايخ البلد والكشاف الذين جعلوا تلك المناصب وسيلة لاختلاس أموال الناس ، وحقوق الدولة ، وكان «على بك» قد جعل لهذه المظالم حداً ، وأصلح الشئون حتى عُلقت الآمال باعتزاز مصر ورفع شأنها ، فلم تُبق المنية عليه .

نعم إن مصر بعد وفاته عادت إلى كنف الدولة العثمانية لكنها بالحقيقة لم تفدها شيئاً ، لأنها كانت فى الحالة الأولى طعمة لرجل محب للإصلاح ، مخلص بمقاصده ، وإن كانت بمعزل عن

(١) وهو نهر الدانوب .

سيادة الدولة فأصبحت فى الثانية طعمة لثلاثين رجلاً كل منهم يسعى فى ابتلاعها ، لا يتفقون إلا على كره الدولة التى هم تحت حمايتها .

أما السلطان عبد الحميد ، فلم يكن يرسل إليها من الولاة إلا من كان اسما بلا مسمى ، كما كان شأنهم قبل ظهور «على» فكان الباشا من هؤلاء آلة يديرها البكوات كيف شاءوا ، ولم يكن لديه من الأعمال إلا مخابرة القسطنطينية سراً بما كان يقع بين هؤلاء البكوات من الخلاف ، وما كانوا يتداعون إليه من الخصام ، وواجباته المهمة أن يستلم الجزية من الحكومة المصرية ، ويرسلها إلى الأستانة إذا تمكن من قبضها .

أبو طبق وعزل الباشاوات

فكانت ولاية مصر منصباً يستحى العقلاء من قبوله لأنهم كانوا يعتبرونها منفى استحقه الباشا أو الوزير الذى يرسل إليها (١) . وكان يعلم قبل خروجه من الأستانة أنه إذا لم يكن راضيا بما يرضاه شيخ البلد لا يلبث أن يصله منه رسالة ينقلها ناقل يقال لها : الأوطة باشى ، وفيها الأمر بعزله أمر لا مرد له ولا

(١) الأصل أن مصر كانت ولاية عثمانية ذات وضع متميز ولا يرسل إليها إلا الولاة المتميزون .

مجال للمدافعة بعده . وكيفية ذلك أن شيخ البلد ورجاله إذا رأوا فى تصرف الباشا ما يوجب الشك اجتمعوا اجتماعاً عمومياً فى الديوان وقرروا عزله ، وكتبوا بذلك أمراً يسلمونه إلى الأوطى باشى ليوصله إلى الباشا ، فيحمله ويسير على حمار – لأن القانون لا يسمح له بركوب الخيل أو البغال – وبين يديه فرمان العزل . فإذا مرّ بالأسواق على هذه الصورة ، علم الناس أنه ساع فى أمر هام فيه عزل فيهرولون وراءه ، ولا يزال سائراً فى عرض الطريق قائداً لتلك الجماهير نحو القلعة . ومن واجبات أى جندى لقيه فى تلك الحال أن يرافقه اتقاء ما يخشى حدوثه عند وصوله القلعة .

فإذا وصل القلعة يدخل على الباشا ، ثم يجثو أمامه باحترام ووقار . وعندما ينهض يطوى السجادة التى كان جاثياً عليها وينادى بأعلى صوته : «انزل يا باشا» وعند طى السجادة ، والتلفظ بهذه العبارة تسقط كل حقوق الباشا ، ولا يبقى له أقل سلطة على الجنود التى كانت قبل بضع دقائق تحت أمره ، وتصير تحت أمر الأوطة باشى ، وكانوا يسمونه «أبو طبق»(١) لأنه كان يلبس على رأسه قبعة مثل الطبق ، والباشا

(١) فى المخطوط صورة أبو طبق فى موكبه .

يقف ممتثلاً يسمع تلاوة الفرمان سواء كان منطوقه بعزله أو بقتله ، فلا يسعه إلا الطاعة التامة ، على مثل ذلك كانت معاملة باشوات مصر (١) .

لما مات «على بك» ، اختلف أعداؤه فى القاهرة على الاجتزاء من انتصاراتهم ، فكان كل منهم يظن لنفسه الحق بالتمتع بأثمار انتصاره كغيره أو أكثر ، فاختلفت الأحزاب من بينهم . أما من بقى من رجال «على بك» فلم يجدوا مكاناً فيه راحة لهم ، وكانوا فى «عكا» عند الشيخ ضاهر – على ما تقدم – فتقهقر «أبو الذهب» لأنه كان يحب الانتقام . حباً يفوق التصديق وقد آلى على نفسه ألا يبقى على أحد من رجال «على» .

أما الشيخ ضاهر – أمير عكا – فلم يعد يطيب له السكون بعد أن خسر ابنه فى سبيل نصرة «على بك» فثارت فى خاطره

---

(١) ان ما ذكره المؤلف بشأن طريقة إقالة الباشا من منصبه لم تكن طريقة ابتدعتها الدولة العثمانية ، بل إن الدولة حينما تريد عزل واليها – الباشا – تصدر له فرمانا بالعزل ويعين بدلاً منه قائمقام يتولى مهامه إلى حين وصول الباشا الجديد . لكن ما ذكر المؤلف عن تلك الطريقة كان من ابتداع كبار الأمراء المماليك فى القرن ١٨ حينما اصبحوا هم المسيطرين الحقيقيين على شئون البلاد ولا دخل للدولة العثمانية فى ذلك والتى كانت سلطتها على مصر فى تلك الفترة ضعيفة إلى حد ما . المحقق .

بواعث الانتقام . ولكن «أبا الذهب» لم يعد يستطع صبراً على ذلك، فاسترحم من الباب العالى أن يسمح له بالمسير لإخضاع «سوريا» ولا سيما «عكا» . واتهم أميرها ضاهراً بالعصيان ، وأنه ساع ضد الدولة . فأجابه الباب العالى بفرمان يثبته فى مشيخة البلد مع لقب باشا ورتبة والى القاهرة ، مكافأة لما أتاه من كسر شوكة «على» وأحزابه ، وأذن له أن يتتبع ذلك الشيخ العاصى .

فلما وصل الفرمان إلى «أبى الذهب» كاد يطير من شدة الفرح وأعد جيشا تحت قيادته واستخلف فى مصر إسماعيل بك ، وعهد حكومة مدينة القاهرة إلى «إبراهيم بك» . وسار فى جيشه إلى «سوريا» ولم تنته سنة ١١٨٩ حتى دخل فلسطين . وكان لشدة عجبه بما أوتيه من الألقاب والرتب وما وعده به الباب العالى من المساعدات لا يزيد إلا كبراً حتى جعل خيمته التى يستريح فيها من أثمن ما يكون ، وزينها أبدع زينة . فمر «بخان يونس» ، «فالرملة» ولم يلاق مقاومة ، أما «يافا» فكان عليها شيخ «كريم» صهر الشيخ «ضاهر» فدافعت قليلا ثم فتحت عنوة ، فدخلها رجال أبى الذهب ، وقتلوا القسم الأعظم من سكانها رجالاً ونساء ، وشيوخا وأطفالاً .

فبلغت تلك الفواحش مسامع الشيخ «ضاهر» وهو فى عكا، فخاف أن يصيبه ما أصابها ، ففر بعائلته وبمن هاجر إليه من المصريين ، ولم يترك فى المدينة إلا ابنه «عليا» .

ولما علم باقتراب جيوش أبى الذهب ، أخلى القلعة وانسحب منها لاعتقاده أنه إذا حاول الدفاع إنما يحاول عبثاً ، فوصلها «أبو الذهب» وأبوابها مفتوحة ، فدخلها ولم يبق عليها . ففى هذه المدينة انتهت فظائع هذا الرجل ، لأنه بينما كان عازماً على العود إلى مصر ، أصبح القوم فوجدوه ميتاً فى خيمته ، ولم يعرفوا القاتل رغم ما اتخذوه من الاحتياطات وما كان لديهم من القرائن الكثيرة . فقال بعضهم إنه أصيب بنقطة - وهى داء السكتة - وقال آخرون إنه مات مقتولاً بيد عدو فاتك - والله أعلم .

وبعد موت أبى الذهب ، عادت الجيوش المصرية تحت قيادة «مراد بك» إلى مصر ومعهم جثة رئيسهم ، فدفنوها بالقرب من مدفن «على بك» ، ومات أبو الذهب بعد موت على بك بسنتين ولُقِّب بالخائن (١) .

(١) لم يلقب محمد بك أبو الذهب بلقب الخائن ، ولم يحمل هذا اللقب فى تاريخ مصر العثمانية إلا أحمد باشا الخائن ، أما المصادر العثمانية فتزيد على هذا ، محمد على باشا رأس العائلة العلوية فى مصر . المحقق .

مشيخـــة إسمـاعيــل بــك

وتولى مشيخة البلد بعده «إسماعيل بك» ولم يبق غيره من رجال «إبراهيم كخا» ، وهو من الذين نالوا البكوية بواسطة على بك ، وكان لا يزال على دعوته ، وإنما انضم إلى «أبى الذهب» خوفاً ، وقلبه لم يفتر لاهجاً بالمدافعة عن رئيسه ، لأنه لم يأت نحوه إلا ما يستدعى نصرته فضلاً عن أنهما من طائفة واحدة .

فلما استلم زمام الأحكام نسج على منوال «على بك» فبعث إلى رجال حزبه الذين كانوا لا يزالون فى سوريا فاستقدمهم إليه ، وأقرهم فى أماكنهم ، وطيّب خاطرهم استعداداً لمقاومة «مراد بك» و «إبراهيم بك» مناظريه على مشيخة البلد .

وكانا قد اتحدا على خلع «إسماعيل بك» فطلبا أولاً طرد «حسن بك الجداوى» صديق «إسماعيل بك» فلم يفوزا ، لكنهما تمكنا من احتلال القلعة ، فاتحد «إسماعيل بك» و «حسن بك» واخرجاهما منها ، ففرا إلى الصعيد . ثم جمعا حزباً كبيراً ، واستعدا لقتال إسماعيل ، فبعث جيوشاً لتخمد أنفاسهما ، فعادت على أعقابها وفاز الأميران فاضطر «إسماعيل بك» إلى مغادرة القطر المصرى فيمّم الأستانة .

أما «حسن بك» فقبض عليه ونفى إلى جدة بحراً ، فاحتال فى أثناء الطريق فأرضى رئيس المركب الذى نقله ، فأنزله فى القصير على سواحل القلزم (١) ، ومن هناك قطع الصحراء غرباً حتى أتى الصعيد فاستكن فيه .

مــراد بـك وإبـراهيـم بـك

فلما خلا الجو «لمراد بك» و «إبراهيم بك» اقتسما الأحكام فتعين الأول أميراً للحج . والثانى شيخاً للبلد ورقيا كثيرون (٢) من مماليكهما إلى رتبة البكوية ، وقلداهم مصالح البلاد .

وكانت الأحكام فى عهدهما كما كانت فى أيام أسلافهما من الظلم والاستبداد . وبلغهما بعد مدة أن «إسماعيل بك» عاد من «الأستانة» وجاء «حلوان» ، فبعثا فرقة من المماليك فتكت بكل من كان معه من أهله ورجاله . أما هو فتمكن من النجاة باختبائه فى بعض الكهوف ثلاثة أيام . ثم خرج طالباً الشلال ، اجتمع هناك بصديقه «حسن بك الجداوى» وسارا معاً وأويا إلى الجنادل فى السودان .

---

(١) هو البحر الأحمر .

(٢) الصحيح فيها كثيرين .

فاختلف «مراد بك» و «إبراهيم بك» على إرسال حملة للقبض على الهاربين . فارتأى أحدهما وجوب التجنيد ، وخالفه الآخر حتى آل الأمر إلى الخصام ، وخروج «إبراهيم بك» مغتاظاً من القاهرة إلى المنيا فى الصعيد . فأرسل إليه «مراد بك» بعض الاختيارية يسكنون من غضبه ، فأرضوه وأعادوه إلى مركزه فى القاهرة ، إلا أن العلاقات الودية ظلت متكدرة بين الإثنين . ولم تمض مدة حتى خرج «مراد بك» إلى المنيا غيظا من زميله ، لأنه اتحد مع خمسة من بيت عدوهما القديم وهم البكوات : «عثمان الشرقاوى» و «أيوب الصغير» و «سليمان» و «إبراهيم الصغير» و «مصطفى الصغير» .

ولبث «مراد بك» بعيداً عن القاهرة خمسة أشهر وإبرهيم يظن أنه لا يلبث أن يسكن غضبه ويعود إليه . فلما استبطأه ، أرسل إليه الاختيارية كما فعل ذاك معه . فأبى «مراد بك» ورد الاختيارية خائبين ، ثم جند جنداً من أتباعه المماليك وسار على الضفة الغربية للنيل حتى أتى «الجيزة» – مقابل مصر القديمة – وعسكر هناك وهمّ بقطع النيل ، فعلم «إبراهيم بك» بذلك ، فجند فى الجهة المقابلة على البر الشرقى ليمنعه من المرور ولبث الجانبان على تلك الحال ثمانية عشر يوماً لا يتحاربان إلا على سبيل

المناوشة بإطلاق مدفع أو مدفعين ولم يقتل إلا رجل أو فرس . فمل «مراد بك» من تلك الحال ، فعاد إلى المنيا (١) .

أما «إبراهيم بك» فكان كثير الرغبة فى مصالحة زميله ، فأنفذ إليه بعد خمسة أشهر من خروجه وفداً ثانياً من كبار البلاد ومشائخها يطلبون إليه الرجوع إلى القاهرة . فوافقهم لكن اشترط عليهم أن يسلموه الخمسة البكوات المتقدم ذكرهم حال وصوله إلى القاهرة ، فقبلوا بذلك الشرط ، فنزل معهم . فعلم أولئك البكوات سراً من «إبراهيم بك» بما اشترطه «مراد بك» فخرجوا من «القاهرة» نحو القليوبية على نية الشخوص إلى الصعيد عن طريق الأهرام فاتصل ذلك «مراد بك» ، فجعل عند الجسر الأسود قرب الأهرام عصابة من العربان تترصد مرورهم ، ولم يستطع صبراً على ذلك ، فقطع النيل ببعض رجاله ، فالتقى بالمنهزمين عند رأس الخليج ، فتلاحموا ، فجرح «مراد بك» ، ونجا أولئك فلاقاهم العربان عند الجسر ، فأسروهم ، وجاءوا بهم إلى «مراد بك» فنفاهم إلى المنصورة و «فرسكور» و «دمياط» تفريقا لكلمتهم . وبعد مدة يسيره عادوا واجتمعوا فى آخر سنة ١١٩٧ واتفقوا أن

---

(١) فى المخطوط صورة مراد بك .

يفروا إلى الصعيد ، ويجمعوا إليهم عصابة يقاومون بها عدوهم . ولم يباشروا ذلك حتى توسط شيخ الجامع الأزهر فى أمرهم وحصل العفو لهم من «مراد بك» فصفح عنهم وأعادهم إلى القاهرة بكل إكرام وأعاد إليهم رتبهم وامتيازاتهم .

حملة عثمانية لحرب المماليك

مضى بعد ذلك ثلاث سنوات على «إبراهيم بك» و «مراد بك» وهما على وفاق وسكينة يقتسمان إيراد البلاد بينهما بالسواء، لا يقدمون عنه حساباً ، أو إذا قدموه كان حبراً على ورق . فوشى بهما «محمد باشا» والى مصر إذ ذاك إلى السلطان وبما كان فيه من الاستنثار بمالية البلاد . فأمر السلطان «عبد الحميد» – الأول – سنة ١١٩٩ هـ أن يرسل إلى مصر جيشا لايقافهما عند حدهما فسار الجيش فى عمارة بقيادة «حسن باشا قبطان» ، فوصلت الإسكندرية فى ٢٥ شعبان سنة ١٢٠٠ ، فخاف البكوات خوفاً شديداً واجتمعوا اجتماعاً عاماً فى الديوان ، وتباحثوا فى ما يجب اجراؤه ، فكثر اللغط ، واختلفت المقاصد والآراء ، فلم يقروا على شىء وأخيرا ارتئوا طلب توسط «محمد باشا» . ولما عرضوا عليه رأيهم رفض .

فطلبوا من شيخ «أحمد العروسى» شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ «محمد المهدى» الذى بقى فى زمن الفرنساوية كاتم سر الديوان - وغيرهما - أن يسيروا إلى «رشيد» ويستعطفوا القبطان باشا (١) .

فركبوا من «بولاق» فى زورق فاخر ، ومازالوا حتى بلغوا رشيداً ، فلاقاهم القبطان باشا بما يليق من الاحترام أما هم فلعلمهم أن الأميرين «إبراهيم ومراد» لا يثبتان على رأى خافوا إذا طلبوا العفو ، وحصلوا عليه أن ينكثا ذلك فتكون الملامة عليهم، فقال الشيخ العروسى : «يا مولانا إن رعية مصر ضعفاء ، وبيوت الأمراء مختلطة ببيوت الناس» فقال الباشا «لا تخشوا بأساً ، فإن أول ما أوصانى به مولانا السلطان هو قوله «إن الرعية وديعة الله عندى وأنا استودعك ما أودعنيه الله تعالى» . فدعو له بطول العمر ثم قال لهم : «كيف ترضون أن يملككم مملوكان كافران يسومانكم سوء العذاب . لماذا لا تخرجونهما من دياركم ؟» فأجابه أحدهم بقوله : «يا سلطانم (٢) هؤلاء عصبة شديدو البأس لا نقوى على دفعهم» .

---

(١) فى المخطوط صورة الشيخ محمد المهدى الكبير .

(٢) سلطانم بمعنى سلطانى ، والميم فيها ملكية للمتكلم .

فطيب خاطرهم ووعدهم بالحماية . وبالحقيقة أن هذا الوفد تصرف بالحكمة لأنهم لم يكادوا يخرجون من حضرة القبطان حتى سمعوا بقدوم «مراد بك» ومعه عشرة من البكوات وبعض الكشاف والمماليك . ثم شاع أنهم نزلوا فى الرحمانية عند منشأ الترعة المحمودية الإسكندرانية ، وسبب ذلك أن «مراد بك» بعدما أرسل الوفد خطر الدفاع بالسيف ، فجمع إليه ذوى شوراه ، وفاوضهم ، فأقروا على الدفاع وأن يسير «مراد» لذلك ويبقى إبراهيم للمحافظة على القاهرة .

فسار «مراد بك» بمن معه ، ونزلوا الرحمانية - كما قدمنا - فلاقتهم الجنود العثمانية ، وجرت بينهما واقعة لم تطل إلا يسيراً . فانذعرت جنود المماليك من قنابل العثمانيين التى كانت تتدافع بين حوافر الخيل فتشتت شملهم وفاز العثمانيون . ففر مراد بك ومن معه حتى أتوا القاهرة ، فاجتمعوا «بإبراهيم بك» وخرجوا جميعاً إلى الصعيد ، ومكثوا ينتظرون هجمات العثمانيين.

فلما رأى «محمد باشا» الوالى خلو القاهرة من المماليك جمع إليه الوجاقات ونزل بهم من القلعة لاستقبال الجنود العثمانية.

وفى شوال سنة ١٢٠٠ ، دخل «حسن باشا» القاهرة بعد أن أخربت جيوشه ما مروا به من المدن والقرى ونهبوها ولولاه لم يبقوا على شىء أصلاً . لكنه كان يمنعهم من ذلك بالقوة ، وقتل كثيرين منهم عبرة للباقين ، فكفت الأيدى فسكنت الناس . فلما دخل القاهرة ، نزل فى بيت «إبراهيم بك» عند قصر العينى على النيل ، ثم عرض أمتعة البكوات المنهزمين للمزاد العمومى ، ومن جملتها حريمهم وأولادهم ومماليكهم . فاسترحم المشائخ أن يخرج الأولاد والنساء الحوامل من معرض البيع لأن ذلك فضلاً عن مخالفته للعواطف الإنسانية فهو مغضب لله (١) .

فانتهرهم القبطان باشا قائلاً : «سأكتب إلى الأستانة بأنكم تعارضون فى بيع أمتعه أعداء جلالة السلطان فأجابه الشيخ السادات قائلا : «قد أرسلت إلينا لمعاقبة شخصين وليس لهتك شرائعنا والطعن فى عاداتنا فاكتب إلى الأستانة ما شئت» .

فعند ذلك أمر الباشا باستثناء المحظيات الحوامل من البيع. و بعد أن بيعت سائر الأمتعة عكف «حسن باشا» فى إصلاح الإدارة ، فأصلحها على ما يوافق الإرادة الشاهانية .

(١) فى المخطوط صورة للشيخ أبو الأنوار السادات .

وكان قد استقدم «إسماعيل بك» و «حسن بك الجداوى» من الصعيد ، فأرسلهما فى جيش بقيادة «عابدين باشا» و «درويش باشا» قائدى الحملة العثمانية التى جاءت إلى مصر عن طريق البر – فضلا عن العمارة المتقدم ذكرها – وسار فى تلك الحملة أيضا نحو ألف مقاتل من رجال الشام تحت قيادة أمير كبير من أمراء شيخى أوغلى ، فاجتمعت هذه الحملة ، وسارت نحو الصعيد لمحاربة مراد بك ورجاله ، فحصلت هناك واقعة عظيمة شفت عن عدة قتلى من الجانبين ، وانهزم «مراد بك» ورجاله إلى الشلالات ، ورجعت الجنود العثمانية ظافرة إلى القاهرة . ثم جاءت الأوامر الشاهانية بعزل «محمد باشا» وتولية «عابدين باشا» .

وهنا تنتهى مهمة «حسن قبطان باشا» فاستدعى إلى الأستانة بسبب الحرب مع روسيا ، ولكن مصر لم تنج من البكوات. وكانوا لا يزالون فى مصر العليا كما رأيت ، والمسيحيون يشكون من معاملة «حسن باشا» بأنه أخذ متاعهم وباعه على مشهد من الناس فضلاً عن الإهانة التى سامهم إياها ، وعلى الخصوص المعلم «إبراهيم الجوهرى» أمير احتساب مصر فإنهم قبضوا على امرأته وأجبروها أن تخبرهم بمخابىء زوجها من النقود ، فأخبرتهم ، فاستخرجوها ، وأخذوها .

ولما برح «حسن باشا» القاهرة ، أقام عليها «إسماعيل بك» شيخ البلد ، فعهد هذا إلى صديقه «حسن بك الجداوى» إمارة الحج واتفقا معاً على اقتسام الإيراد .

فى سنة ١٢٠٣ هـ توفى السلطان «عبد الحميد الأول» .

سلطنة سليم الثالث

من سنة ١٢٠٣ - ١٢١٣ هـ -

أو من ١٧٨٩ - ١٧٩٨ م

هو ابن السلطان مصطفى الثالث ، تولى السلطنة وسنه ٢٨ سنة ، ووجه السياسة بظلم والدولة متضعضعة ، فبذل جهده فى الإصلاح ، ولكن اليأس كان قد استولى على الجنود وضعف عزائمهم .

وفى سنة ١٢٠٥ ، طرأ على القاهرة وسائر القطر المصرى وباء الوطأة لم تقاس قبله مثله ، حتى بلغ عدد الموتى نحو الألف فى اليوم بالقاهرة وحدها . وتقلب على حكومتهم فى يوم واحد ثلاثة حكام . وسبب ذلك أن «إسماعيل بك» أصيب بالوباء ، فأقيم آخر مكانه ، فآخر حتى فنى كل من كان من بيت «إسماعيل بك» إلا واحداً يدعى «عثمان بك الطبل» ولا يزال هذا الوباء مشهوراً

بفتكه ، المعروف بطاعون (١) إسماعيل فتولى «عثمان بك الطبل» المذكور مشيخة البلد ، ولم يكن قادراً على إدارة الأعمال التى عهدت إليه فاستدعى «إبراهيم بك» و «مراد بك» فدخلا القاهرة فى ٢١ القعدة من تلك السنة ، ففر «حسن الجداوى» إلى مصر العليا قانطاً .

فاستلم «إبراهيم» و «مراد» أزمّة الأحكام ، وجعلا يعيثان فيها وكانا يتناوبان مشيخة البلد وإمارة الحج سنوياً بعد أن أفنيا كل من كان على غير دعوتهما . فصفا الجو لهما (٢) .

أما قلباهما فكانا لا يخلوان من الضغائن المتبادلة لما طبع عليه كل منهما من الحب الذاتى . وقد اختلفا فى الطباع والمناقب :

كان «مراد بك» شديد البطش مقداماً لا يهاب الموت .

وكان «إبراهيم بك» أكبر سناً ، وأكثر اختباراً ، ربعاً ضخم القامة ، حسن الطلعة ، حاد البصر ، وكان يتربص لمراد محاذراً بطشه لئلا يطلبه للنزال ، ولولا ذلك لم يرض معه بالاجتزاء من

(١) فى المخطوط صورة نقود السلطان عبد الحميد الأول .

(٢) فى المخطوط صورة للسلطان سليم الثالث .

الدخل على السواء ، وكان لا يعارضه في ما يأتيه من الاستبداد ، ووضع الضرائب ، وسلب أموال الناس ، لأنه شريكه في الأرباح الناتجة عن ذلك . وكان في إبراهيم رياء يظهر غير ما يضمر إذا استصرخ وعد مع العزم على الإخلاف . وكان جباناً ، فإذا أراد أمراً لا يتظاهر به ، وإنما يسعى إليه بالدسائس والمكايد .

أما «مراد بك» فلم يكن يعرف المكر وإنما كان يسعى في أغراضه بالقوة والحزم . وكان طويل القامة ، عضلي البنية ، شديد البأس ، يقطع عنق الثور بضربة من سيفه وعلى وجهه ملامح الأسود ، فإذا غضب يهابه ويخاف منه كل من يراه ، حتى أحب أصدقائه . وكان كريم النفس ، لا يبيت على غيظ ، حر الضمير لا ينكر الحق ، ولو كان عليه ، مخلصاً لأصحابه ، مقيماً على قوله ، وكان طمعه بمقدار سخائه وحبه لذاته بمقدار حرية مبادئه وصراحته . وكان سريع الغضب لا يراعي في حال غضبه أمراً من الأمور وربما فتك بمصلحة نفسه .

وألم بالبلاد بعد عود هذين الأميرين إلى «مصر» جوع هائل ، ويقال إنه جعل من كثرة ما ضبطاه من الحبوب في مصر العليا طمعاً بالكسب . ثم القيا النظامات التي وضعها «حسن

باشا قبطان» وأبدلاها بما يوافق مطامعهما الشخصية. فكثرت تعديات مماليكهما ، وعلى الخصوص تعديات «أحمد محمد الألفى» ، فثار الأهلون ثورة عامة لم يسعهما معها إلا توقيف تلك الإجراءات وقتياً ، فخمدت الثورة . فعادا إلى ما كانا عليه فعاد الناس إلى الاضطراب ، وكسدت سوق التجارة لقلة الامنية ، وضربا على التجار الأجانب فى الإسكندرية ضرائب فاحشة ، فرفعوا شكواهم إلى قناصلهم . فلم تكن النتيجة إلا زيادة الاضطهاد .

كل ذلك كان يجرى والسلطان «سليم الثالث» يعلم بذلك وهو من أرغب السلاطين بالإصلاح ، ولكنه غُلب على أمره ، وفى أيامه وهذه حالة مصر ، حمل عليها بونابرت سنة ١٢١٣ هـ أو ١٧٩٨ م ، واحتلها ، وهو آخر المراد بسطه من تاريخ العثمانيين بمصر فى هذا الكتاب (١) .

---

(١) فى المخطوط صورة نقود السلطان سليم بن مصطفى .

العلم والأدب
ومشاهير العلماء والأدباء بمصر
في الأدوار الثاني والثالث والرابع من
العصر العثماني
من سنة ١١١٥ - ١٢١٣ هـ

إن الاضطرابات السياسية ، واختلال الداخلية في الأدوار الثلاثة الأخيرة ، وقفت من سيل القرائح ، وشغلت الناس عن العلم والأدب ، ومع ذلك فقد ظهر في هذه الفترة جماعة من الشعراء والأدباء والفقهاء ونحوهم . هاك أشهرهم :

١ - الشعـــراء

١ - الحسن البدري الحجازي الأزهري :

توفي سنة ١١٣١هـ ، وكان شاعراً عاماً تعلم في الأزهر ، ومال إلى الإنزواء للمطالعة والنظم ، وله فيه طريقة حسنة ، وقد نظم أرجوزة في التصوف نحو ألف وخمسمائة بيت على طريقة الصارح والباغم ، ضمنهما أمثالاً وحكايات ونكات . وله ديوان على حروف المعجم سماه : «تنبيه الأفكار للنافع والضار» ، منه نسخة

خطية فى المكتبة الخديوية وفى شعره صبغة عامية وسهولة يرضاها العامة . وفيها نصائح لهم ولسائر الناس ، ومن أمثلة ذلك قصيدة بائية قال فيها :

أخى فطناً كُن ، واحذر الناس جملة
ولاتك مغرور الظنون الكواذب
فكم من فتى يرضيك ظاهر أمره
وفى باطن يرتاغ روغ الثعالب
إذا بك يلقى ظافراً كان كافراً
يذيقك نكر النكر من كل جانب
ولا سيما نوع الأقارب إنهم
عقابك فى الدنيا وعقر العقارب
إذا كنت فى خير تمنوا لك الردى
لإرثك ميتاً أو لنهبة ناهب
وإن كنت ذا فقر فأنت لديهم
أخس خسيس من أخس الأكالب
فلاتك للطلاب للإرث تاركاً
طلابا سوى خيبات طلبة طالب

ونحو ذلك ما تلقى معاينة للجمهور .

٢ – «عبد الله بن محمد بن عامر بن شرف الدين الشبراوى الأزهـــــرى» :

أحد أساتذه الأزهر ، توفى سنة ١١٣٢ ، لــه :

١ – «ديوان منائح الألطاف فى مدائح الأشراف» ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية ، وفى مكاتب برلين وغوطاً وباريس وقد طبع فى بولاق ومصر مراراً .

٢ – وكتاب الإستفهامه الشبراوية ، منها نسخة فى المكتبة الخديوية .

٣ – عروس الآداب وفرجة الباب، منه نسخة فى مكتبة ليدن .

٤ – «عنوان البيان وبستان الأذهان» طبع فى القاهرة مراراً .

٥ – «نزهة الأبصار فى رقائق الأشعار» فى مكتبة باريس .

٦ – «حمل زجل» ، طبع فى القاهرة .

٧ – أسنى المطالب لدراية الطالب ، فى مكتبة برلين .

٨ – «نظم أسماء بحور الشعر» فى المكتبة الخديوية .

٩ – «الإلتحاف بحب الأشراف» فى مكتبة باريس .

١٠– «شرح الصدر بغرة البدر» ، فى المكتبة الخديوية وطبع فى القاهرة سنة ١٢٠٣ هـ .

٣ – «عبد الله الادكاوى المصرى» :

نسبة إلى إدكو قرب رشيد وقد اشتهر «بالمؤذن» ، توفى سنة ١١٨٤ هـ ، تقرب من نقيب الأشراف فى عصره ، فأكرمه وأدناه ، ولما مات النقيب تزوج وتغيرت حاله ، فلازم الشيخ الشبراوى ، ومدحه ، وكان يحترمه ومن مؤلفاته :

١ – «بضاعة الأريب فى شعر الغريب» وهو مجموعة من شعره ذيلها بذيل سمكي وسيمة القصر ، منها نسخة خطية فى مكتبة باريس .

٢ – «الدر المنتظم فى الشعر الملتزم» .

٣ – «الفوائح الجنانية فى المدائح الرضوانية» .

٤ – «الدر الثمين فى محاسن التضمين فى المكتبة الخديوية» .

٥ – «هداية المتوهمين فى كذب المنجمين» طعن فيه على أهل النجامة ، ومنه نسخة خطية فى مكتبة غوطا .

٦ – «المقامة القزية فى المجون» . وكان حسن الخط ، نسخ عدة كتب وله مفارقات لطيفة مع شعراء العصر الواردين على مصر ومن مليح شعره قوله يدعو إلى نبذ التقيد بالقديم :

كن للمعاصر خير ناصر   كم للأوائل من مفاخر

لا تحقرن جديــدهــم	كم فى جديدهم جواهر
ودع التعـصـب لـلأوا	ئل يافتـى أو لـلأواخـر
من كان منهـم مبدعـاً	فاعقد عليه من الخناجر

٢ - علمـاء الفقـه

واشتهر من علماء الفقه في هذا العصر :

١ - «إبراهيم بن مصطفى الحلبى المدارسى» توفى سنة ١١٩٠ م ، وقد تعلم فى مصر ودمشق وأخذ التصوف عن «عبد الغنى النابلسى» الشهير ، ثم عاد إلى القاهرة ، وتعين معيداً لعلى الضرير . وسافر إلى «الآستانة» وتعرف هناك إلى «محمد باشا» الوزير المعروف «بالراغب» فتعرف به وقرأ عليه . واجتمع بشيخ الإسلام هناك «عبد الله» الشهير «بالإيرانى» وكان إذ ذاك قاضى العسكر ، فصار عنده مفتشاً ومميزاً ، وقرأ عليه علماء الروم ، ومازال يرتقى حتى توفى هناك ، وأكثر علماء الأزهر فى زمانه من تلامذته . ومن آثاره الباقية كتاب «الحلة الضافية فى علمى العروض والقافية» منها نسخة فى المكتبة الخديوية . و«تحفة الأخبار على الدر المختار» فيها .

٢ – «السيد محمد تقى الحسينى الزبيدى» الفقيه (١) اللغوى النحوى الأصولى الناظم الناثر صاحب تاج العروس فى شرح القاموس ، توفى سنة ١٢٠٥ . ولد فى زبيد ، ونشأ هناك ، ثم رحل فى طلب العلم وجاء مصر سنة ١١٦٧ ، وحضر دروس أشياخ زمانه ، وما لبث أن ظهر فضله عند الخاص والعام وارتقت حاله ، فلبس الملابس الفاخرة ، وركب الخيول المسومة ، واشتغل بعلوم أهملها أسلافه كعلم الأنساب والأسانيد وتخاريج الأحاديث . وألف من ذلك كتباً ومنظومات ، وكان مظهره مخالفاً فى زيه وحاله لعلماء عصره . ويعرف اللغة التركية والفارسية وبعض لغة الكرج ، وكان الوجهاء يتسابقون إلى دعوته والإيلام له وإلى مجالسته ومحادثته . وزادت منزلته على الخصوص لما فرغ من كتابه «تاج العروس» وهو أشهر مؤلفاته . وفى شهرته ما يغنى عن وصفه ، فإنه يدخل فى عشرة مجلدات طبع فى «القاهرة» سنة ١٣٠٦ . وفى صدره مقدمة نفيسة فى اللغة ومراتب اللغويين ، وأول من ألف فى اللغة وترجمة الفيروز ابادى وغير ذلك . وله كتاب «نشوة الارتياح فى بيان حقيقة الميسر والقداح» منه نسخة خطية فى «برلين» وله كتب أخرى .

---

(١) الصحيح : السيد مرتضى الحسينى الزبيدى ، صاحب كتاب تاج العروس .

٣ - «موسى بن أحمد البيلى العدوى المالكى» كان شيخ رواق الصعايدة بالأزهر ، توفى سنة ١٢١٨ . وله من المؤلفات المنح المتكفلة بحل الفاظ القصيدة العربية الموسومة بمورد الطمآن فى صناعات البيان وهى مشروحة ومنها نسخة خطية فى مكتبة «برلين» وكتاب «فائدة الورد فى الكلام على أما بعد» منه نسخة فى المكتبة الخديوية ، وفيها أيضا له «البشارة لقارئ الفاتحة» ومنظومة فى الصرف .

٣ - المــؤرخـــــون

١ - «إبراهيم بن أحمد أفندى الخطاط شاهزاده» كتب نحو سنة ١١٣٣ ، له كتاب «مبدأ العجائب بما جاء فى مصر من المصائب» منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٢ - «الأمير كتخده الدمرداش عزبان» (١) ، توفى سنة ١١٦٩ وله كتاب «الدرة المصانة فى أخبار الكنانة» مكتوبة بلغة العامة ومنه نسخة خطية فى مكتبة غوطا ومنشن والمتحف البريطانى .

(١) الاسم الصحيح هو الامير أحمد الدمرداش كتخدا عزبان وقد نشر هذا المخطوط بمعرفة : د. عبد الرحيم عبد الرحمن : الدرة المصانة فى أخبار الكنانة ، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٩ وأيضا د. عبد الوهاب بكر - دانيال كريسيليوس صفحات من تاريخ مصر العثمانية ، دار الزهراء ١٩٩٢ .

٣ - «عبد الرحمن بن الحسن بن عمر أبى اللطائف الأصهورى المالكى المغربى» «سبط القطب الحديدى» . تعلم فى «القاهرة» وتعين استاذا فى الأزهر وفى السنانيــة ببولاق ، وتوفى سنة ١١٩٨ . وله كتاب «مشارق الأنوار فى أهل البيت الأخيار» منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

٤ - الفقــهاء ونحـوهــم

الفقــه المالــكى

١ - «ناصر الدين النشرتى المالكى» من أساتذه الأزهر :

توفى سنة ١١٢٠ هـ ، له كتاب «الأنوار الواضحة فى السلام والمصافحة» فى المكتبة الخديوية .

٢ - «شمس الدين الزرقانى المالكى» :

توفى سنة ١١٢٢هـ ، وله كتاب «وصول الأمانى بأصول التهانى» ، منها نسخة خطية فى المكتبة الخديوية ، وله شرح الموطأ، وشرح المواهب اللدونية للقسطلانى .

٣ - أبو الحسن الصاعدى العدوى المالكى» :

من أساتذة الفقه المالكى ، توفى سنة ١١٨٩هـ . له رسالة فيما

تفعله فرقة «المطاوعة من المتسوفة من البدع فى المكتبة الخديوية ، وله عدة حواشى على كتب فقهية .

الفقــه الشـافـعى

١ – «شمس الدين البديرى الدمياطى» :

درس فى دمياط وفى الأزهر ومكة ، وتوفى سنة ١١٤٠ وله «إرشاد العمال» إلى ما ينبغى فى يوم عاشوراء وغيره من الأعمال، منه نسخة فى المكتبة الخديوية . وكذلك كتاب بلغة المراد فى التحذير من الافتتان بالأموال والأولاد . وله كتاب تحرير الإفهام فى كيفية توريث ذوى الأرحام منه نسخة فى مكتبة بطرسبورج .

٢ – «أحمد بن عمر الديربى الشافعى الأزهرى» :

توفى سنة ١١٥١هـ . له كتاب «غاية المقصود عن قيود العقود» منه نسخة فى المكتبة الخديوية ، وفى مكتبة برلين ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٩٧. وكتاب «غاية المرام فى ما يتعلق بانكماش الأنام» ، فى المكتبة الخديوية ، وكذلك كتاب فتح الملك الجواد لتسهيل قسمة التركات على بعض العباد ، وكتاب المجرات طبع فى القاهرة .

٣ – «الحسين بن أحمد المحلى» :

توفى سنة ١١٧٠، له كشف اللثام عن أسئله الأنام منه نسخة فى المكتبة الخديوية .

٤ – «نجم الدين محمد بن سليم الشافعى المصرى الحنفى الحسينى» فى حفنه قرب بلبيس درس فى القاهرة ، ودخل طريقة الخلوتية الرائجة فى تلك الأيام وتوفى سنة ١١٨١هـ ، وله : «الثمرة البهية فى أسماء الصحابه البدرية» وذكر أسماء أهل بدر . وعدة رسائل فى أمثال ذلك ، منه نسخة فى المكتبة الخديوية .

وهناك طائفة كبيرة من الفقهاء الشافعية نبغوا فى ذلك العصر بمصر منهم :

– «عيسى بن أحمد الدرادى» ، توفى سنة ١١٨٢ .

– و«أحمد الشجاعى» سنة ١١٩٠، وله مؤلفات كثيرة أكثرها موجودة فى المكتبة الخدوية .

– و «حسن الكفراوى» من أساتذه الأزهر ، توفى سنة ١٢٠٢. فضلاً عن فقهاء الحنابلة والشيعة ومن هؤلاء .

– «أبو السعود أحمد بن عمر بن السقاطى» ، توفى سنة ١١٥٩هـ فى القاهرة ، وله كتب فى القراءات ، منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية .

– و «الحسن بن علي الأزهري المنطاوي المدابغي» من أساتذه الأزهر ، توفي سنة ١١٧٠. وله كتاب «اتحاف فضلاء الأمة المحمدية ببيان جمع القراءات السبع من طريق التيسير» في المكتبة الخديوية . وكتاب في مولد النبي ، فيها أيضا .

٤ – المتصوفة

وهناك طائفة من المتصوفة نبغت في مصر بذلك العصر منهم :

– «علي بن محمد المصري» المتوفي سنة ١١٢٧هـ، وله تعاليق وشروح .

– و «علي بن حجازي البيومي الدمرداشي» توفي سنة ١١٨٣هـ بالقاهرة ، وله كتاب في الطريقة الدمرداشية منها نسخة في برلين وكتاب «الأسرار الخفية» منه نسخة في المكتبة الخديوية . ورسائل عديدة ، بعضها موجود في المكتبة المذكورة .

ومن مشاهير الصوفية وكبارهم : الشيخ «عبد الرحمن العيدروسي» أصله من بلاد اليمن ، ولد في تريم ، وتنقل في بلاد اليمن وغيرها في تاريخ طويل حتى استقر له المقام في القاهرة ، واشتهر فيها ، وقصده الطلاب حتى توفي سنة ١١٩٢هـ ، وهو من

أساتذة الشيخ «عبد الرحمن الجبرتى» صاحب التاريخ المشهور ، وقد ترجمه مطولاً ، وله مؤلفات تزيد على بضعة عشر منها .

١ - «النفحة العيدروسية فى الطريقة النقشبندية» منها نسخة فى برلين .

٢ - «النفحة المدنية فى الأذكار القلبية والروحية والسرية» منها نسخة فى المكتبة الخديوية .

٣ - «لطائف الجود فى مسأله وحدة الوجود» ، منها نسخة فى برلين .

٤ - «العرف الوردى فى دلائل المهدى» ، فيها .

٥ - «اتحاف الخليل بالمشرب الجليل الجميل» ، فى المكتبة الخديوية . وله عدة رسائل وقصائد ، منها فى هذه المكتبة وغيرها .

- و «محمد بن حسن بن محمد السمنودى الأزهرى جمال الدين» تثقف فى الأزهر ، ودخل الطريقة الخلوتية . ثم تولى قراءة القرآن بالقاهرة ، وتوفى سنة ١١٩٩هـ . وله «تحفة السالكين ودلالات السائرين منهج المرقبين ، طبعت بمصر سنة ١٢٨٧هـ .

- وأبو البركات أحمد بن محمد الدردير المالكى العدوى الأزهرى الخلوتى» :

تعلم فى الأزهر . ثم صار ناظر وقف الصعايدة وشيخ الرواق وتوفى سنة ١٢٠١ ، وله عدة كتب منها .

– «الخريدة البهية فى القصائد التوحيدية ، طبع فى الإسكندرية سنة ١١٨١ ، وتحفة الأخوان فى بيان تاريخ أهل العرفان» ، طبع بالقاهرة سنة ١٢٨١ . وكتب أخرى موجودة خطاً فى المكتبة الخديوية وغيرها .

ومنهم «سليمان بن عمر بن منصور العجيلى الأزهرى الجمال» المتوفى سنة ١٢٠٢هـ .

ونبغ غير واحد فى علم النجوم أو النجامة منهم :

– «حسن بن إبراهيم الزيلعى الجبرتى» من أسرة الجبرتى المؤرخ ، كان استاذاً فى القاهرة ، توفى سنة ١١٨٨ ، وله عدة مؤلفات ورسائل فى هذه الفنون يمكن الإطلاع عليها من المكتبة الخديوية .

ونبغ من الأطباء :

المؤلفين «أحمد بن عبد المؤمن الدمنهورى» المتوفى سنة ١١٩٢ ، كان أستاذا فى الأزهر . وله مؤلفات عديدة فى أكثر الفنون تجد أكثرها فى المكتبة الخديوية .

ولو أردنا تعداد المشاهير في ذلك العصر لضاق المقام وإنما أردنا إيراد الأمثلة لحالة تلك الأيام الأدبية والعلمية وقد رأيت أنها في حالة الانحطاط، لأن ما تقدم ذكره من المؤلفات العديدة قلّ فيه المستنبط أو الوافي . ولعل هذا العصر أحط عصور التمدن الإسلامي .

ويلاحظ في لغة ذلك العصر ؛ أن الإنشاء انحط إلى أقصى درجاته حتى صار أقرب إلى لغة العامة وانحطاط اللغة تابع لانحطاط نفوس أهلها ، ومن أشهر أمثلة إنشاء ذلك العصر تاريخ «الجبرتي» وتاريخ «ابن إياس» .

أما كتب الفقه ، فيرجع اجماليها إلى المصطلحات الفقهية وهي قلما تتغير مع الوقت . وأكثر ما كتب في تلك الفترة ؛ إنما هو من قبيل التقليد أو التلخيص أو الشرح أو التعليق .

وقد رأيت أن أكثر المؤلفات في علوم الدين الإسلامي ، لأن العلم انحصر يومئذ في الأزهر تقريباً . فإن أكثر طلابه من الفقهاء ، إلا من كان فيه ميل خصوصي لعلوم أخرى ، مع أن أوربا كانت قد أفاقت من غفلتها وأخذت في تأسيس العلوم الحديثة. ولم يبلغ خبر ذلك إلى مصر إلا على يد الحملة الفرنساوية

سنة ١٧٩٨، فإنها أتت معها بحملة علمية ، فضلاً عن الحملة العسكرية ، فبهر العقلاء من أحوالهم وإن لم يأخذوا عنهم شيئا . وإنما ترى ذلك الفضل للأسرة المحمدية العلوية وأول من أخذ من هذه النهضة «محمد على باشا» مؤسس هذه الأسرة العلية .

الحالة الاجتماعية والاقتصادية

أما الهيئة الاجتماعية فى ذلك العصر ، فإنها تختلف عما نحن فيه الآن اختلافاً كبيراً ، فإنهم لم يكونوا يدركون ما ندركه نحن من لفظ الوطن والاستقلال والدستور والحرية الشخصية ، وحقوق الفرد ، وحقوق الجماعة . وإنما كانت الأمة مؤلفة من الحكام أصحاب الأمر والنهى والسطوة والنفوذ ، والشعب وما عليه إلا الطاعة وتحمل المصائب بالصبر . فإن أحدهم كان إذا نهض من فراشه خرج من بيته وهولا يدرى ما يلقاه من أنواع المظالم أو ضروب الإهانة إذا كان فى يده مال لا يأمن من أن يبقى ذلك المال له إلى المساء ، وإذا كان له فرس أو بغل أو دابة كانت عرضة للسخرة بأمر الحاكم أو بعض رجاله .

وناهيك بالضرائب المتوالية التى لا يُسأل ضاربها ولا ينجو أحد من دفعها مرة أو غير راضياً أو غاضباً . حتى نساؤهم وأولادهم إنهم لم يكونوا آمنين عليهم من السطو والنهب .

بالأمة التي هذا حالها من الضنك والذل والظلم لا غرو إذا ظلمت فيها المرأة وصارت كالأمة لأن ظلمها تابع لظلم الحكام؛ فإن الرجل يقضى نهاره مظلوماً لا يستطيع رداً ، ولا دفاعاً أو انتقاماً، فإذا أتى بيته تشبه بحكامه لأنه في عائلته كالأمير في بلده ، يأمر وينهى فيعامل أهله كما عومل . وبذلك كانت المرأة تُظلم وتنحط في عهد الحكومة الاستبدادية الظالمة [1] ولا غرو إذا انصرف أولئك المظلمون من الرجال إلى تسلية أنفسهم ، وتصريف تغيظهم بالمشروبات الروحية أو تدخينها المخدرات كالحشيش ونحوه . ولذلك كثر تناول هذا العقار في تلك الأثناء يخدر الناس أعصابهم وينسوا حالهم [2] .

---

(١) ما ذكره المؤلف عن ظلم المرأة وانحطاط وضعها في العصر العثماني ليس هناك ما يؤكده بل العكس هو الصحيح ، فوثائق المحاكم الشرعية تفيض بالوثائق الخاصة بقضايا الأسرة والمرأة . فعلى سبيل المثال فإن وثائق محكمة الباب العالي الخاص بقضايا الزواج أو الطلاق شواهد صدق على علو مكانة المرأة في مصر العثمانية . انظر د. سوسن سليمان يحيى قضايا المرأة في مصر العثمانية (مجلة كلية الآداب عدد خاص ٥٧) ص ١٩٩ – ٢٢٥ .

(٢) تناول المخدرات لم يكن بالظاهرة التي يصورها المؤلف وكأنها عادة يومية عند الناس فما ذكرته المصادر المعاصرة ، هو انتشار عادة التدخين لكنها كانت للقادرين فقط . انظر الجبرتي : جـ١ . ص ٤١ مطبعة الأنوار المحمدية درت .

الـزراعـــة

وطبيعى أن يرافق ذلك الانحطاط السياسى والعلمى انحطاط اجتماعى واقتصادى ، فتناقص عدد السكان فى أواخر ذلك العصر حتى أصبح أقل من ٢,٠٠٠,٠٠٠ نفس فى القطر المصرى أعلاه وأسفله ، وتناقصت البقاع المزروعة فى وادى النيل حتى نقصت عن مليون فدان وبعض المليون . والأرض يومئذ ملك الحكومة وليس للناس إلا أن يتمتعوا بريعها وللحكومة حصة من ذلك الريع فى مقابل حمايتها أو إصلاح شئونها وهو الخراج . على أن فساد الأحكام فى عهد المماليك شغل الناس عن الزراعة فقلت الجباية فتعسر حلها ، والحكام فى ذلك العهد إنما يلتمسون السلطة طمعاً بالمال ، فعمدوا إلى طريقة «الإلتزام» وهو تضمين الخراج لإناس يتولون جمعه عن الحكومة ، ويشاركونها فى نفوذها ، فلا يزيدون الأهالى إلا ضغطاً وعسفاً .

وذلك أن الحكومة كانت تعرض خراج البلاد بالمزايدة لمن يضمنه من أهل النفوذ ، فيضمن أحدهم بلداً أو بضعة بلاد فإذا وقع عليه المزاد أعطاه كبير المماليك «شيخ البلد» عهداً بذلك يسمونه تقسيط ويصحبونه بأمر يسمونه «فايك» وهو عبارة عن

خطاب من الحكومة إلى أهالى البلد الواقع فيها إلتزام ذلك الملتزم، توصيهم فيه أن يطيعوا الملتزم ويؤدوا له الخراج . والملتزم يدفع للخزينة فى مقابل ذلك مال سنة معجلاً ، ويقوم مقام الحكومة فى السيادة والإمارة فى البلاد الداخلية فى التزامه . وله عدا ذلك بقعة من الأرض يستغلها بنفسه ، لا يدفع عنها شيئا وتسمى «أوسيه» «جمعها أواسى» وعلى الأهالى أن يحرثوها له ويزرعوها ويحملوا إليه غلاتها بلا أجرة فضلاً عن منافع أخرى .

وكان الإلتزام فى بادىء الرأى لمدة محدودة ، ثم جعلوه لمدى العمر فلا ترجع الأرض للحكومة إلا بعد وفاة الملتزم . فكان الانتفاع بغلة الأرض مقسوماً بين الحكومة والملتزمين . والفلاح عبدٌ رق يعمل بقوته ويشقى بعمله . فهل يلام إذا قعد به القنوط من العمل أو حمله الخوف على الفرار ؟ (١) .

التجـــــارة

أما التجارة فكانت فى زمن المماليك ضعيفة جداً ، لأنها لا تنمو إلا فى ظل الأمن والعدل . فكانت قاصرة على بعض ما يحمل من محصولات هذه البلاد إلى «أوربا» وأهمها الحبوب والسكر

(١) هذه نظرة قديمة ، تحتاج لتعميمها أو نفيها دراسات تاريخية واجتماعية واقتصادية علمية فى تاريخ ، الدراسات فيه قليلة بل نادر حتى الآن .

والرز ، وما يمر بها من واردات السودان كالصمغ والعاج والريش ونحو ذلك . وبعض ما يحمل إليها من المصنوعات الإفرنجية من «إيطاليا» و«فرنسا» و«ألمانيا» وغيرها .

ذكر «فولني» الرحالة الفرنساوى فى رحلته إلى «مصر» أواخر القرن الثامن عشر أن تجارة «مصر» كان معظمها فى أيدى السوريين المسيحيين ثم أهل البندقية والإنكليز والفرنساويين وكانت الجمارك يومئذ «بالإسكندرية» و «رشيد» و «دمياط» و «السويس» و «القصير» وفى «بولاق» و «مصر القديمة» . وكانت الحكومة تضمن دخل هذه الجمارك كما كانت تضمن خراج الأرض . والغالب أن يضمنها بعض اليهود . فلما أفضت «مصر» إلى «على بك الكبير» المتقدم ذكره تحولت ضمانة الجمارك إلى أيدى السوريين ، ولم يكن منهم يومئذ فى مصر إلا عائلات قليلة من أهل دمشق وكانوا يتعاطون التجارة فيها .

على أن الجمارك كثيرا ما كان يتولى شئونها أمراء المماليك أنفسهم وخصوصاً فى أواخر القرن الثامن عشر ، إن «إبرهيم بك» و «مراد بك» اقتسما الانتفاع بها ، فاختص «إبراهيم» بجمرك السويس وعهد به إلى عمال يديرونه بالنيابة عنه ، واستولى

«مراد» على سائر الجمارك فضمنها بعض أهل الوجاهة . وكانت إيرادات الجمارك نحو مليون ريال أبو طاقية أو نحو ١٢٠,٠٠٠ جنيه أكثر تجمع من جمرك السويس .

النقــود المصــريـــة

وقد تقدم الكلام عن حل النقود المصرية أواسط العصر العثمانى وهى الأنصاف والبندقى والزر محبوب فى آخر القرن الثانى عشر للهجرة كان الدينار يساوى ١١٠ أنصاف ، والبندقى ٢٢٥ نصفاً ، والبنتو ٤٠٠ نصف . فكانت الأنصاف تقل قيمتها بتوالى الأعوام مع بقاء قيمة الذهب/على حالها تقريباً ، فالدينار كان يساوى سنة ١٩٣ هـ . ١١ أنصافاً مثلاً ، فصار يبدل بعد عشر سنين بنحو ١٥٠ نصفاً ، وهكذا ، وكانت أسعار الأشياء التى تقد بالأنصاف ترتفع كل سنة عما قبلها إرتفاعاً تدريجياً . ولم يكن ارتفاعها من توفر الثروة كما حدث لهذا العهد ، وإنما كان سببه تلاعب رجال الحكومة بالنقود الفضية وغشها ، فإذا رخصت قلّت النقود وظهرت المبيعات غالية ، وهاك على ذلك بأثمان أهم المأكولات فى أول القرن الثالث عشر للهجرة إلى سنة ١٢١٩ باعتبار الأنصاف من كل رطل :

سنة	اللبن	الضأن	الصابون	المسلى	القمح بالأردب
١٢٠٤	٣٦	٧ ١/٢	١٢	١٨	٢٠٠
١٢٠٩	٣٨	٨	١٨	٢٠	٤٠٠
١٢١٦	٥٠	٨ ١/٢	١٨	٢٥	٨٠٠
١٢١٩	٧٠	..	٢٤	٣٦	١٦٠٠

فيتبادر إلى الذهن لأول وهلة أن الغلاء سائر على سنة طبيعية بالتدريج . والواقع أن الأشياء لم ترتفع أسعارها إلا بالنظر إلى الفضة . أما بالنظر إلى الذهب فظلت باقية على حالها تقريباً وكثيراً ما كان أولو الأمر والأغنياء يرجون الأموال الكثيرة فى تبديل النقود .

فلما استتب الأمر «لمحمد على» (١) شاع استعمال القرش وهو ألمانى الأصل ، وكان سنة ١٢٣٠ هـ يساوى ٤٠ نصفاً ثم أصاب القروش بتوالى الأعوام ما أصاب الأنصاف على الكيفية المبينة فى الجدول الآتى . وهى أسعار النقود الذهبية المعروفة يومئذ بالقروش المصرية من سنة ١٢٥٠ إلى ١٢٨٦

(١) محمد على باشا : مؤسس الأسرة العلوية بمصر .

سنة	الجنيه الإفرنجي	الجنيه المصرى	البينو	المجر	الجنيه المجرى	البندقى
١٢٥٠	٥٣	..	..	٤٤	..	٤٥
١٢٥٦	١٠٠	١٠٣	..	٤٧	..	٤٩
١٢٦١	١٠٣	١٠٥	٧٧	٤٧	..	٥٠
١٢٧٠	١١٤	١١٧	٩٠	٥٤	١٠٥	٥٦
١٢٧٧	١٤٧	١٥٠	١١٦	٧٦	١٣١	٧٢
١٢٨٥	١٩٢	١٩٧	١٥٢	٩١	١٧٢	..
١٢٨٦	١٩٩	٢٠٣	١٥٨	٩٥	١٧٩	..

فنرى فى ذلك أن القرش نزل سعره إلى النصف . وباعتبار الجنيه الإفرنجى إلى الربع فى ٣٥ سنة . وكانت الحكومة المصرية قد أخذت فى تنظيم شئونها التجارية على عهد «إسماعيل باشا» الخديوى غير أن اختلاف أسعار النقود على هذه الصورة لا يرجى منه نجاح ، فأصدرت سنة ١٢٨٦ هـ تعريفة للنقود جعلت المعاملة فيها على المناصفة فالجنيه الإفرنجى كانت قيمته ١٩٩ قرشاً فجعلتها $\frac{1}{2}$ ٩٩ والمصرى ٢٠٢ قرش جعلت قيمته $\frac{1}{2}$ ١٠١ قرش ، وقس على ذلك . ثم تنوعت الأسعار قليلاً حتى وقفت على قيمتها المشهورة الآن . وهذا هو أصل المعاملة التعريفة والصاغ فى مصر .

التعليم بمصر فى ذلك العصر

ونختم الكلام بفذلكة فى حال التعليم فى ذلك العصر ، فإنه كان يختلف عن تعليم هذه الأيام . ومعلوم أن التعليم فى إبان التمدن الإسلامى كان محصوراً بالمساجد كما كانت مدارس النصارى محصورة في الأديرة والكنائس ، وكان المسلمون يسمون التلامذه المجتمعين حول أستاذ يتلقون منه العلم «حلقة» وتفرعت العلوم بتوالى العلوم ، واتسعت دوائرها حتى أصبح العلم الواحد عدة حلقات والغالب أن تنسب الحلقة إلى أستاذها ، فيقولون مثلاً حلقة «أبن إسحاق الشيرازى» فى جامع «المنصور» أو نحو ذلك ، وكانوا يجعلون فى كل جامع خزانة كتب للمطالعة والإستنساخ .

على أن التعليم لم يكن خاصاً بالمساجد ، فكثيراً ما كانوا ينشئون حلقات التدريس فى المارستانات أو الربط أو المنازل أو غيرها ، وكان الأغنياء إذا أرادوا تعليم أولادهم أحضروا المعلمين إلى منازلهم .

وكانت مصر فى القرن الأول للهجرة ولاية من ولايات المملكة الإسلامية تابعة للمدينة أو دمشق أو بغداد ، فكان التعليم فيها ثانوياً ، ودخل القرن الرابع للهجرة وليس فى عاصمتها

إلا جامعان ، جامع «عمرو» وجامع «ابن طولون» تُلقى فيها العلوم الإسلامية على مذهب أهل السنة لأنها كانت تابعة للدولة العباسية. فلما تغلب الفاطميون على مصر فى أواسط القرن الرابع ، وانتقلوا إليها وبنوا مدينة القاهرة ، وأنشأوا فيها مسجداً يعلمون فيه مذهبهم « الشيعة » وظل الأزهر مدرسة شيعية طوال خلافة الفاطميين نحو ٢٠٠ سنة حتى غلبهم «صلاح الدين الأيوبى» سنة ٥٦٧ هـ ، وكان سُنّى المذهب ، وليس له بدّ من متابعة خليفة يثبته فى منصبه فبايع الخليفة العباسى فى بغداد ، وخطب له فى الأزهر . وكان «صلاح الدين» على مذهب الإمام الشافعى فلم يضطر لتبديل كثير فى طرق التعليم ، وقبل الناس سلطته على أهون سبيل ولكنه لم ير مندوحة عن مراعاة مذهب الخلفاء العباسيين وهو مذهب «أبى حنيفة» ، ورأى بحكمته وسداد رأيه أن يكتسب ولاء سائر المسلمين ، فأجاز التعليم فيه على المذاهب الأربعة . وكل مذهب يحضره أهله فآل ذلك إلى اتساع شهرة هذه المدرسة ، وتقاطر إليها الطلاب من أربعة أقطار المسكونة ، ولم يبق التعليم قاصراً فيها على الفقه وعلوم الدين واللغة ، ولكنه تناول شيئا من الرياضيات والنجوم وبعض علوم الطبيعة .

وما زال ذلك شأنها في أيام الأيوبيين ومماليكهم حتى جاء السلطان «سليم العثماني» ، وفتح مصر ، ثم استبد الأمراء المماليك بالحكومة ، فاشتغل الناس عن العلم ، وكان العنصر العربي قد ضعف شأنه في سائر المملكة الإسلامية إلا في مصر ، لأن مدرسة الأزهر فيها ، وكانت أكبر وسيلة لاستبقاء اللغة العربية حية بتعليم العلوم الدينية واللسانية لكنها اقتصرت يومئذ على هذه العلوم ، وأهملت سواها من الطبيعيات والرياضيات .

ومازال الأزهر أهم مصادر التعليم في القطر المصري إلى النهضة الحديثة بعد إنشاء المدارس على النسق الجديد في أيام «محمد على» لتعليم العلوم الحديثة ، كالطبيعيات والطب والهندسة وغيرها . أما قبل هذه النهضة ، فكانت هذه العلـوم ولاسيما الطب يدرس في المارستانات أهمها في دولة الأمراء المماليك «المارستان المنصوري» في شارع النحاسين ، ولا تزال آثاره باقية هناك إلى الآن .

تم الكتاب

فهرس الفصول
لمصر العثمانية

مقدمات تمهيدية

تاريخ مصر العثمانية

العلم والأدب

الدور الثانى من العصر العثمانى

الدور الثالث من العصر العثمانى

الدور الرابع من العصر العثمانى

العلم والأدب

الحالة الاجتماعية والاقتصادية

قائمة المصادر والمراجع الخاصة بالتحقيق

أولاً : المصادر والمراجع :

١ – ابن اياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفى) ، «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» ، حققها وكتب المقدمة محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة (٣) ١٩٨٤ م جـ ٥ .

٢ – ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، المطبعة البهية مصر.

٣ – أحمد عبد الرحيم مصطفى «دكتور» حركات التجديد الإسلامى فى العالم العربى الحديث . القاهرة ١٩٧١ م .

٤ – إسماعيل الخشاب ، تاريخ المماليك فى مصر ، مخطوط رقم ٢١٤٨ تاريخ طلعت دار الكتب المصرية .

٥ – حسين افندى الروزنامجى ، ترتيب الديار المصرية ، نشر شفيق غربال بعنوان «مصر عند مفترق الطرق» ١٧٩٨ – ١٨٠٠م مجلة كلية الآداب المجلد الرابع حـ١ مايو ١٩٣٦.

٦ – سوسن سليمان يحيى (دكتورة) قضايا المرأة فى مصر العثمانية مجلة كلية الآداب عدد خاص ٧٥ .

٧ – شوقى أبو خليل جرجى زيدان فى الميزان دمشق ١٩٨٠م.

٨ – عبد الرحمن الجبرتى عجائب الآثار مطبعة الأنوار القاهرة .

٩ – ليلى عبد اللطيف (دكتورة) الصعيد في عهد شيخ العرب همام ؛ القاهرة ١٩٨٧ .

١٠– ليلى عبد اللطيف (دكتورة) الإدارة في العصر العثماني القاهرة ١٩٧٨ م .

١١– محمد حرب (دكتور) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» دمشق ١٩٨٩ م .

١٢– محمد حرب (دكتور) «حملة السلطان سليم الأول على الشام ومصر» (باللغة التركية) استانبول ١٩٨٦ م .

١٣– محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية – تحقيق الدكتور إحسان حقي – دار النفائس طبعة (٢) ١٩٨٣ م .

١٤– معلم جودت (اينانج آلب) ذيل على فصل «الأخية الفاتيان التركية» في رحلة ابن بطوطة استانبول ١٣٥٠هـ–١٩٣٢م.

١٥– هاملتون جب وهارولد بوون المجتمع الإسلامي والغرب ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) القاهرة ١٩٧١ م .

ثانيـــاً : الموســـوعات :

١ – دائرة المعارف الإسلامية التركية (الترجمة التركية)

استانبول ١٩٦٧ م .

٢ - دائرة معارف التاريخ (بالتركية) دار باتش ، استانبول ١٩٦٩ م .

٣ - الموسوعة العربية الميسرة إشراف محمد شفيق غربال - دار إحياء التراث - بيروت - صورة طبق الأصل من طبعة ١٩٦٥ م .

ثالثـــاً : المعـــاجـم :

١ - بطرس حرفوش - المنجد فى الإعلام - طبعة (١٠) دار المشرق - بيروت ١٩٨٠ م .

٢ - حسن عميد - فرهنك فارسي عميد - (فارسى) طهران ١٣٤٢.

٣ - دار بيلمن - قاموس الشريعة الإسلامية والمصطلحات الفقهيه - استانبول - بدون تاريخ .

٤ - الفيروز ابادى (مجد الدين محمد بن يعقوب) القاموس المحيط - مؤسسة الرسالة - بيروت طبعة (٢) ١٩٨٧ م .

٥ - عبد النعيم حسنين (دكتور) قاموس الفارسية - دار الكتاب اللبنانى - القاهرة - ١٩٨٢ م .

٦ - علی سیدی - رسملی قاموس عثمانی - استانبول - ١٣٣٠.

٧ - محمد علی الأنسی - الدرادی اللامعات - بیروت - ١٣١٨.